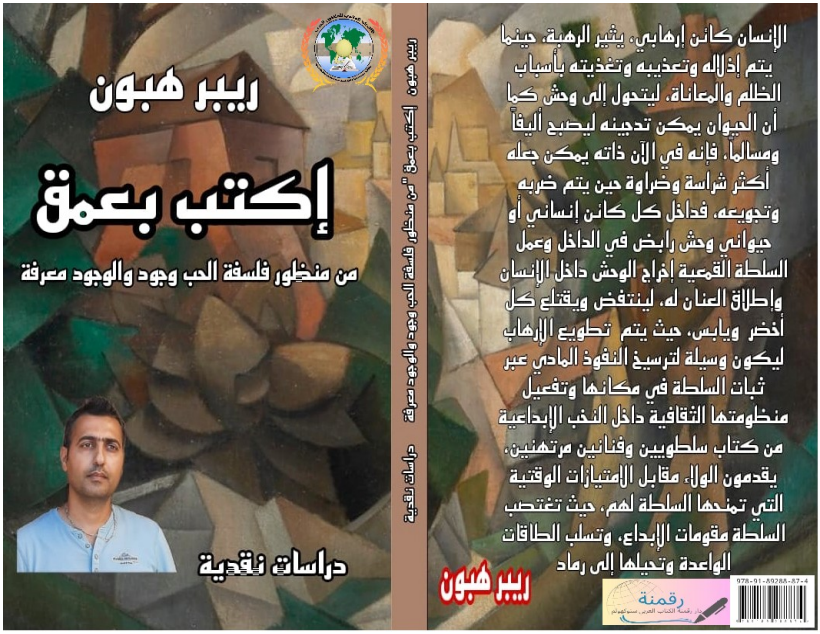
ريبر هبون
إكتب بعمق
من منظور فلسفة الحب وجود والوجود معرفة
دراسات نقدية
ريبر هبون إكتب بعمق "من منظور فلسفة الحب وجود والوجود معرفة دراسات نقدية
الإنسان كائن إرهابي، يثير الرهبة، حينما يتم إذلاله وتعذيبه وتغذيته بأسباب الظلم والمعاناة، ليتحول إلى وحش كما أن الحيوان يمكن تدجينه ليصبح أليفاً ومسالماً، فإنه في الآن ذاته يمكن جعله أكثر شراسة وضراوة حين يتم ضربه وتجويعه، فداخل كل كائن إنساني أو حيواني وحش رابض في الداخل وعمل السلطة القمعية إخراج الوحش داخل الإنسان وإطلاق العنان له، لينتفض ويقتلع كل أخضر ويابس، حيث يتم تطويع الإرهاب ليكون وسيلة لترسيخ النفوذ المادي عبر ثبات السلطة في مكانها وتفعيل منظومتها الثقافية داخل النخب الإبداعية من كتاب سلطويين وفنانين مرتهنين، يقدمون الولاء مقابل الامتيازات الوقتية التي تمنحها السلطة لهم، حيث تغتصب السلطة مقومات الإبداع، وتسلب الطاقات الواعدة وتحيلها إلى رماد
ريبر هبون
رقمنة
978-91-89788-87-4

ريبر هبون

إكـتـب بــعمـق

من منظور فلسفة (الحب وجود والوجود معرفة)

دراسات نقدية

الطبعة الأولى 2023
9789189288874:ISBN
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية:
2023-08-27-13-33
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
البريد الإلكتروني:
arabiskabok@hotmail.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.
جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب © العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.
إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

*المحتويات :

قراءة نقدية في النظرة الإسلاموية لدى الكاتب وحيد راغب	6
المنهج المعرفي في كتاب الأمير لنيقولا ميكافيلي	10
الواقعية الساخرة في مجموعة تخاريف العم لطوف	16
الهوامش	27
التساؤل في حضرة الذاكرة في أدب الشاعر مصطفى النجار	28
دراسة حول قصة الطوفان الأسود للقاص مامد شيخو	34
البعد الملحمي في مجموعة (إلا إليك)للشاعر محمد بشير دحدوح	43
دلالات الرمز في أدب الشاعر أدهم الدمشقي	48
رمزية اللغة في أدب الشاعرة مرشدة جاويش	53
عذوبة النص الشعري في أدب الشاعرة غزال ابراهيم خضر	63
"منهج الحكمة عند الأديبين"لقمان محمود" و "وحيد راغب	66
مسارات رؤيوية لفهم (الوحش الذي بداخلي)	71
الوحش بوصفه تمثالاً راسخاً للخوف	73
متاهة السلطة والمجتمع المغترب	75
محورية الذات أمام متغيرات المحيط	77
لغز تمثال الرئيس	84
إرهاب الدولة ودورها في صناعة المجتمع الخائف	89
شهوة السلطة القمعية وتصاعد نمو الشخصية المستلبة	101
توحش الأمن وحيونة القطيع	106
الوحش الذي بداخلي من زاوية علاقة الأدب بالفلسفة	110
نظرة في آليات التعذيب وآثارها على المعتقل	112
الانتحار بوصفه دعوة للحرية	116
سلطة البعث وحربها ضد الإنسان	123

قراءة في النسخة الكوردية لرواية الوحش الذي بداخلي	131
التركيبة المتمردة لسالار بطل الرواية	132
أثر الإستبداد على تنشئة الفرد	140
<أثر الطفولة والذاكرة في رواية الوحش الذي بداخلي>	143
الخلاصة	160
الهوامش	170
فلسفة الوجع في رواية الطيران بأجنحة متكسرة	177
الإرادة المجتمعية في مواجهة الإرهاب	183
قراءة الموت وفق سياق الحدث	201
جدلية الحب والحرب	229
جدلية الموت و الحياة في حرب كوباني	257
الخلاصة	268
الهوامش	272
مفهوم الإرادة والتحرر في فكر البارزاني	279
ريبر هبون في سطور	284

قراءة نقدية في النظرة الإسلاموية لدى الكاتب وحيد راغب

في استعراضنا لمقال للكاتب المصري (وحيد راغب) والذي بعنوان (القانون الطبيعي والطبيعة الفردية أو الخلق) يمكننا أن ندخل في سياق رؤية تأملية تحليلية حول نقد نظرته وبيان محتواها، ولعل كل كتابة متحيزة وقابلة للنقد وفق ذلك، وطريقة النقد تعتمد على مدى قرب أو بعد أي مقال من الموضوعية العلمية، وفي تناولنا لنظريته الدينية هنا نكتشف النظرة القطعية في بداية قراءتنا لمقاله، دون أن يقدم ممهدات تدخله لعرض النتيجة بعد تقصٍ وكعادة كل نظرة دينية شمولية فإنها تنتقد ما سبقها من أديان، لتبني بذلك نظرتها كبديل تام، لا جدال فيه، فمفهوم –التحريف والضلال، مفهومان دينيان تصفويان غرضهما هدم نظرة وإنشاء البديل عنها ولا شك أن تلك النظرة تدخل في خدمة النظام السلطوي المؤسس على تلك النظرة الشمولية التي كرست لما يسمى بظاهرة الإسلام السياسي حيث يقول الكاتب وحيد راغب هنا:

(وهنا مفارقة يعرفها الغرب، بعيداً عن التعصب المقيت، ويعرفها الشرق كذلك، أن ما سبق الإسلام من ديانات أصابتها يد التحريف البشرية للأغراض والأهواء، وحب الجاه والسلطان والعظمة والكبرياء والعروش الزائفة، ومن ثم كانت ظلمات العصور الوسطى، فتحكمت الكنيسة في السلطة الدينية، بل تدخلت الغيبيات، إنها تدخل الجنان، وتعفو عن أهل الخطيئة من دون الله، صك الغفران وظل الله على الأرض)

ولعله هنا يجسد الإسلام السياسي في نظرته الإقصائية، تلك النظرة الممتزجة بالبعد الإيديولوجي القومي المرتبط بقوموية الدين والتصور السلطوي

الإسلامي في النظرة العدائية للغرب وكذلك التوصيف الضيق للديمقراطية، وكأن مفهوم الفردية لم يكن موجوداً ومكرساً قبل الإسلام، ولعلنا نستطيع أن نوغل في التاريخ ما قبل الأديان الإبراهيمية الثلاث، لنرى أن الأساطير اليونانية والإغريقية والرومانية قد رعت مفهوم الفردية لأجل استخدامها وسيلة ناجعة لرفعة الإمبراطوريات وتوسيع رقعتها، فمفهوم الفردية مكرس لحماية الطبقات الحاكمة، حيث أننا نجد العديد من الشخصيات الأسطورية التي ذكرتها لنا الملاحم مثل: القديسة كاثرين، وشخصية هرقل اليوناني، وبروميثيوس وكلكامش، وأنكيدو، وسبارتكوس، رمز ثورة العبيد أيام الأمبراطورية الرومانية، وأسطورة الملك البريطاني آرثر، وغير ذلك من الرموز التي رسخت عظمة الفرد ودوره في تغيير أقدار الشعوب، والممالك نحو الأفضل، ونرى الكاتب وحيد راغب ينقل لنا أمثلة من هنا وهناك عن وقائع وحوادث معاصرة لأجل إدانة الغرب متناسياً محاكم التفتيش الإسلامية ودورها في محاربة المعرفيين من أمثال: ابن المقفع، ولسان الدين بن الخطيب، وابن رشد، وبشار بن برد، وغيرهم، وقتلت الكثير تارة باسم حروب الردة، وتارة آخرى نعتهم بالشعوبيين، وهذا شأن كل دين أو سلطة حاكمة مهما كان شكلها عبر التاريخ غربيين كانوا أم عرباً، حين تحول السلطات الحاكمة الدين أو القضية القومية مطية ناجعة بيدها ويد أرباب المال، كونها وسيلة ناجعة للاستمرار في الحكم وزيادة النفوذ فمذهب خلط الأوراق بعضها ببعض، مذهب الساسة المسترقّين ومن والاهم من منظري الأديان لصالح مكوثهم وانتصاراً لهم، فالكاتب وحيد راغب يذكر لنا أمثلة وشواهد وأمكنة مثل "سجن ابو غريب" دلالة على فظاعة الأمريكيين وعن ديكتاتورية النازي "هتلر"، وتعميم ذلك على الغرب برمته، والتعميم مقياس خاطئ بامتياز يفقد كل معالجة موضوعية صوابها ومصداقيتها، إلى حيث تستلزم تأنياً وحذراً تفادياً لأي مغالطة ولبس جارح

وباطش، متناسياً أن في التاريخ الإسلامي شخصيات ديكتاتورية من أمثال "عمر بن الخطاب" و"أبو بكر الصديق" و"أبو جعفر المنصور"، و"أبو العباس السفاح"، و"يزيد بن معاوية"، وغيرهم، ولعل ذلك طبيعي في ظل طبيعة المجتمع السائدة حينذاك والتي ذكرتنا بمقولة ونستون تشرشل حين قال: كل شعب في العالم، ينال الحكومة التي يستحقها، ولعل هذه العقلية الإقصائية التي نشهدها اليوم في العالم العربي هو امتداد لما سبق، إنه يروِّج ويسوِّق لبضاعة التصور الإسلاموي القوموي وليس قراءة موضوعية تحليلة تحاول إخراج شيء حقيقي ومؤثر ونرى الكاتب وحيد راغب بعد تدبر وعبوس وتأمل يفصح عن نتيجة مفادها أن كلام "أهل الجنة عربي" حيث يقول هنا

«فاللغة العربية من أهم لغات العالم، وهي لغة القرآن ولغة أهل الجنة»، فلا عجب مما قاله، وليس غريباً أن يقول هذا فلطالما قال المتنبي:

وإنما الأمم بالملوك وما،، تفلح عربٌ ملوكها عجمُ

لأن الشوفينية تعمي البصائر، والنزعة القومية المغلفة بصبغة سياسية دينية، إنما هي خير تعبير عن ركوب الشعوب ودوام خضوعها باسم السيادة الدينية العروبية فلا يعقل أن يقول الله: "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"، ومن ثَمَّ يأتي وحيد راغب وما سلفه ليقول: إن كلام أهل الجنة عربي ناسفاً ولاغياً حالة التنوع التي أوجدها الخالق وفق الآية المذكورة والتي تحض على التنوع، ولا شك أن كل نظرية لابد وان مخرجها ومنشأها قد أسبغ عليها بزخرف الكلام وجميله حتى كانت تعابير سمحاء ونبيلة، بيد أن حقيقة الحياة السياسية والنظم الحاكمة قالت دائماً وبواقعية أن ما من عالم مثالي، فالأديان (السياسية) وتوابعها النظريات الشمولية التي ارتدت زي العلمانية مجَّدت الحاكمين على مر التاريخ وأفرزت الكوارث والمحن وقد أفسدت الدين الذي في مضمونه السمح النقي يتلخص في

علاقة الإنسان بموجده، (الله)، ولاشك أن الشوفينية التي تصل بنا لتأويل الدين وفقاً للنظرة القومية العرقية وقول ان كلام أهل الجنة كلام عربي، يقودنا نحو الذرائع التي أعطت وجودية وأحقية لقيام الحركات الدينية المتشددة ومهدت أرضية لتمددها في أوساط العقول التي تعيش في الماضي المتصحر، ولعل هذا هو إفراز للإسلام السياسي الذي له مقومات وجودية لدى أغلب المنظرين الإسلاميين ممن يصفون أنفسهم بالمعتدلين مدعين أنهم على طرفي نقيض من داعش وأخواتها، فمن الاستحالة تطبيق الدستور الديني على الفئات اللادينية، حينما نصفها بالمضطربة نفسياً والمريضة، حين يقول وحيد راغب واصفاً لها:

«نتيجة التربية الخطأ أو الكبت، أو سوء معاملة الآباء أو جنوح المجتمع لعدم تقبُّله في نسيجه، فالأمور لديه مشوشة والأفكار مختلطة، وتخيلاته مرضية، فهو نمَّى بقوة داخله رفض كل شيء، فهو صفحة لتقبُّل من يأويه ولو بالباطل تحت جناحيه»

فهو يصف اللاديني بأنه شخص مريض وعديم تربية أو يعاني من الكبت بالتشوش والاضطراب فمصيره وفق الدستور الذي يرتئي له القتل لأن تهمته جاهزة وهي الارتداد عن الدين، فكيف يمكن لدستور ديني أن يكون عادلاً وهو يفرض نفسه على كل الشعوب المتنوعة والتي يراها عربية إذ دخلت الجنة، وكأنه ذهب للجنة فعاد منها مؤكداً أن كلام أهلها: اللغة العربية، وهو يحارب الديمقراطية ولا يراها سوى بدعة أوروبية؟!

المنهج المعرفي في كتاب (الأمير) لنيقولا مكيافيلي

مكيافيلي، الذي أعمل قلمه لأجل إحقاق المظلومية التي كانت خفَّاقة في المشهد الإيطالي، وعن الولايات الإيطالية التي تداعت الوحدة تلو الأخرى بسبب رداءة الحكَّام، وسوء تعاطيهم مع الإدارة والشعب، وإن الحقيقة المثلى التي أراد "مكيافيلي" بيانها في كتابة (الأمير)، هو إيجاد بديل عن التردي السياسي، والبرودة الوطنية التي أعيت إيطاليا حينذاك، هو كأي باحث سياسي، محاولٍ، أراد استخلاص مفاهيم جيدة يستطيع أي حاكم طموح الالتزام بها لأجل النهضة، نهضة الشعوب، وكذلك إبراز قوة ونوعية قيادة الأمراء، ومحو الخصوم من انقلابيين ومأجورين، ومن خلال تقلّد (نيقولا مكيافيلي) لعدد من المناصب الدبلوماسية والسياسية لجمهورية فلورنسا، ونستطيع معرفة قدرته على احتواء المواقف وإبراز النتائج، المتمخضة عنها، وكذلك كشف الخلفية المعرفية الرافدة عن تجربته، التي تعتبر تجربة واضحة تعبِّر عن واقعية السياسة لا تفصامها عن الواقع، لا شك أن تجاب الإطاحة بجمهورية (سودريني) ونفيه القاسي إثر ذلك، جعله يعيش حالة الواقعية السياسية أكثر فأكثر، مستخلصاً العبر الأكثر رزانة وتكثيفاً وتحريضاً على إثارة التساؤل، ونحن أمام كتاب (الأمير) نمهِّد لاستخلاص سلسلة من النقاط المهمة التي لابدّ من أن نقف عليها ونعالجها تبعاً للعصر وما يمكن مقارنته مع الحاضر الدائم الذي نعايشه، ولاشك في أن إقدام محكمة التفتيش على حرق مؤلفات مكيافيلي دليلاً على أن الإرادة المعرفية التي كانت متمثلة في شخص مكيافيلي والتي كانت موضع حجب واستنكار ونكران مِمَّن قاموا بحرق أعماله. ولا شك أن الأزمة الراهنة التي يعايشها كل عصر، تتمثل في إشكالية السلطة وعلاقتها بالشعب فيقول مكيافيلي هنا مخاطباً الأمير: ص(20)

«فمصورو المناظر الطبيعية، ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال، ثم إنهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة، حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان، ولذلك من الضروري أن تكون أميراً حتى تعرف طبيعة شعبك، كما أنه يجب أن تكون أحد الرعية أيضاً كي تعرف الحقائق المتعلقة بالأمراء»

من خلال هذا المقتطف الذي راح مكيافيلي ببيانه أمام الأمير، نجده يعرض حقيقتين:

- حاجة الحاكم الماسة لمعرفة شعبه، ومن خلال المعرفة والكسب والتعاطف والتعاضد، يمكن الحرص على ديمومة بقاء الحكم ونقائه وقوته مبيناً ذلك بتشبيه دقيق وواضح بالذي ينظر من أسفل الوادي للجبل ويرسمه، ومن ثم يصعد عالياً ليتمكن من رؤية المشهد الكلي
- ويوضح مكيافيلي من خلال ذلك نقطة أخرى تتمثل بقوة الأمير الناجح ومداركه الواسعة، بمقدار استيعابه للشعب ومعرفة الحقائق المتعلقة به، فعلاقة الحاكم بالمحكوم ليست علاقة عدائية بقدر ما هي توافقية تنتج عنها القوة والديمومة..

بيد أننا نلحظ التناقض السائد والمتنوع والمتفاوت في مخاطبة الأمير فتارة يريده أن يقترب من الشعب بنظرة المدرك، وتارة يريد من الحاكم الجديد المفترض أن يكون الأقوى مشيراً إلى أن أي حاكم مهما بدا قوياً فلا بد أنه سيركن لحقيقة الزوال، إن آجلاً أو عاجلاً، حين يقول هنا:

ص 25 "ومن يسيطر على أراض ويريد أن يحتفظ بها، لابدّ أن يضع في اعتباره أمرين: أولهما القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاءً مبرماً، وثانيهما عدم تغيير أي قوانين أو ضرائب خاصة بهذه البلاد، وبهذه الطريقة ستصبح جزءاً من الاتحاد في وقت قصير جداً، وتصبح الدولة كياناً واحداً»، إنه

في ذلك يعتبر أن مقياس القوة كامن في آلية التعامل مع الأسرة الحاكمة، وكيفية الانقلاب عليها وتدميرها والمحافظة على القوانين السابقة كما كانت ولعل ذلك يجعلنا نستخلص حقيقة فهم مكيافيلي لطبيعة السلطة الواقعية القائمة على الأنانية والاحتكار والهيمنة الفردية، التي هي جل تناقضات السلطة وإشكاليتها عبر التاريخ ومن خلال الأمثلة والشواهد، ثم إن مكيافيلي يوضح لنا مدى نفع وخاصية القدرة المعرفية التي تجعل الأمير الطامح متمكناً وثاقب الرؤية حين يقول هنا:

«إن من يستفيدون من قدراتهم حتى يصبحوا أمراء، يحصلون على الإمارة بصعوبة، إلا أنهم يحافظون عليها بسهولة، والصعوبات التي تواجههم في ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلى إدخالها حتى يستتب السلام في ولاياتهم» ص 40

وهذا ما يجعلنا نتأمل حقيقة القوة المتمثلة بحسن التصرف والحكم، وكذلك القدرة على التمييز مابين الوصول للحكم بجهد أو الوصول إليه بالوراثة التي تنتج عن نقصان تجربة وحنكة ونضج، لأن السلطة وممارستها فنٌ بليغ يجتهد له الحاكم المعرفي الطموح القادر على الاعتدال والتوافق وكذلك محاربة الفتن والنعرات والمفاسد التي يمكن أن تشلَّ فيه طبيعة حكمه وتؤلب عليه الشعب، من هنا فمكيافيلي مع القوات الوطنية ومع أن يحفل الحاكم بحب الشعب حيث كان بالمقابل يبرز سوءات المرتزقين المأجورين الذين هم عبء خطر على البلاد ولا بد من الاستعانة بقوة الشعب لا المأجورين، إذ يقول مكيافيلي هنا: "ومن طبيعة الإنسان أن يرتبط بمن يقدم له نعماً وينعم عليه، وبناء على ذلك فإنه الأمير الحكيم الذي ينظر إلى الأمور كافة بعين قادرة على حسن التقدير، لن يكون من الصعب عليه أن يرفع من روح مواطنيه عندما يبدأ الحصار وفي أثنائه لو كان

يملك ما يكفي من مؤن وسلاح» ص 62

هنا ربط مكيافيلي بين قدرة الأمير الحاكم على إطلاق عنان القيم الوطنية الكامنة في إرادة الشعب مرتبطاً بالدعم اللوجستي من سلاح وذخيرة ومؤن، هذا سيجعل المناعة أكبر وأقوى وأمتن، ويجعل الأمير هَرماً متيناً أمام أعين الجمهور، وقد أكد مكيافيلي على الإرتباط المهم ما بين الرئيس والمرؤوسين، ومالهما من علاقة، ورأى أن النبلاء هم ممثلوا الشعب ومن خلالهم فإنه يمكن للحاكم معرفة مدى رضا الشعب عليه، وقد بين مكيافيلي مساوئ وعيوب الإرتزاق والإعتماد على المرتزقة في الحفاظ على البلاد حين بيَّن ذلك بجلاء قائلاً: ص 67 «إن الضباط المرتزقة إما أن يكونوا ذوي كفاءة أو غير أكفاء، فإذا كانوا أكفاء فإنه يمكن الاعتماد عليهم، لأنهم يثبتون لأنفسهم أنهم عظماء، إما بابتزازك وأنت سيدهم، أو بالضغط على غيرك لما هو في غير صالحك، أما إذا كان الضابط غير كفء فإنه يدمرك تماماً»

ولقد أدرك نيقولا مكيافيلي ذلك معبراً عن الحقيقة التي تتجسد في خطأ الاعتماد على المأجورين لأنهم عبء على الحاكم والبلاد في آن معاً، ولقد ربط مكيافيلي هذه النقطة ودعّمها بمثال من التاريخ الروماني حين قال: ص 75 «وإذا ما نظرنا إلى أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية فستجد أنه كان بسبب استئجار قوات مرتزقة من «الغوت» لأنه منذ ذلك الوقت بدأت القوات الرومانية في الضعف وسقطت عن الإمبراطورية جميع مزاياها وذهبت إلى (الغوت)».

وقد أحسن مكيافيلي في التعبير عن صفات الأمير وتفكيره الدائم بالحلم وتعلم التدريب العسكري في أيام السلم كما الحرب، لأن ذلك يحفظ سيادة البلاد على الدوام ويجعل الناس العاديين يقتربون لممارسة مهام الحكم، بمعنى آخر فمكيافيلي لم يكن معادياً للشعب أبداً، بل كان يرسم مواصفات القائد الحكيم

والناجح والنشط في شتى المواقف والمعبر عن رغبات الشعب في تأمين البلاد والمصالح ولاشك أن مكيافيلي كان يعي طبيعة الحكم ومراحله وقد وعى حقيقة الصراعات في الحكم ومراحلها المريضة الأخيرة، لذلك عبَّر عن ذلك بان الأمير الطامح للتغيير عليه إنهاء سجالات الأسرة الحاكمة بذهاب أفرادها المتحليين مما نجم عنهم من ضعف وفساد، وقد أدرك جلياً أن إرضاء العامة غاية لا تدرك فقال:

«مازلت أقول: إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهاباً بطريقة تجعله –إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية على أي حال، وذلك لأن المهابة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معاً» ص 87

لقد اعتمد مكيافيلي على التوافقية والتوسط في طريقة حكم الرئيس للشعب وتجنب الاحتقار، ولاشك أن مكيافيلي أكد بوضوح ضرورة أن يكون الامير حليفاً للشعب لا نداً له عندما قال: ص 94«وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات، إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه، فعليه أن يخاف من كل فرد يخشى كل شيء»

لقد كان مكيافيلي في عصره بحاجة إلى نظام حكم يتلاءم مع طبيعة الواقع ولا يوافق تماماً أنانية الإنسان وسعيه لإرضاء نزواته فقط، وكان يوقن أن أسباب سقوط الحكام عبر التاريخ كامنة في كراهية المحيط لهم واحتقارهم إياهم، ولم يكن مكيافيلي يهتم بلبوس الذين أدعوا الفضيلة وقاموا بخلق عالم مثالي يتذرع بالوفاء والسلام ويضمر عكسهما، بل كان مع الحقيقة المعرفية الواقعية ومنهجه ملائم للواقع حين دعا الأمير أن يكون معرفياً وأن يهتم بتربية الفن والإبداع في شؤون حكمه للبلاد حين قال: «على الأمير أيضاً أن يكرِّم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمي البارزين في كل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث

مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنو البال»

ومكيافيلي المعرفي الطامح بيَّن أن ديمومة الرفاهية والعدل كامنة من حث المبدعين على الإبداع وحث الناس على العمل كضرورة لمعرفة الحياة وصونها، والتعايش ضمن المجتمع ولاشك أن مكيافيلي كان يؤرقه الهم الوطني المتمحور حول إيطاليا وحريتها من الغرباء والعابثين بها، حين دعا إلى سن النظام الجديد وقال: ص 123 «ولاشيء يحقق للرجال المجد الكبير، سوى سنّ القوانين الجديدة، وهي أمور تجعله موضع إعجاب واحترام، ويوجد في إيطاليا ما يسمح بإدخال نظم جديدة»

وأخيراً نستطيع القول بأن الغطاء السوداوي الذي تم وضعه على المفكر مكيافيلي لم يكن مبرراً بشكل موضوعي، ودقيقاً بالمعنى العلمي العملي الهادف، فلو تأملنا وأعدنا القراءة، قراءته جيداً لاستطعنا إنصافه ومعرفة الظروف الحساسة والهامة التي جرت في عصره، أثناء تنقلاته وكذلك نستطيع لمس الطابع المعرفي المرتبط بالحكمة والعمل في فلسفته ولابد أخيراً من أن تصل الرسالة على نحو أصح.

(الواقعية الساخرة في مجموعة–تخاريف العم لطُّوف)

تجربة الكاتب محمود الوهب تتمخض عن ألم واقعي معاش وغزارة التجسيد لديه في البناء القصصي تعتمد على الإدراك العام لكل ما هو مخترق ومنتهك في عالم القيم لدى البشر ، نراه في أحايين كثيرة ينغمس في سياق البعد النفسي للشخصية المتحدث عنها مسهباً في البحث عن جوهر الإنسان في زمن أصبحت فيه المنفعة أساساً ، ورؤية الكاتب للمواقف تتجلى في سعيه إلى البحث عن الممكن والمتيسر تحقيقه على صعيد الأشياء ، يقدم في أدبه العام صورة عن الإنسان المناضل ، الأخلاقي ، القائم بذاته ، الراكن للجمال ، المشغول بالمحتوى الإنساني والمحتج على الرذيلة بوصفها وباء يحيط البشرية عامة ، فالحديث عن القصة هو بمثابة الخوض في متاهة لا قرار لها أو دهليز لا نهاية لعمقه وسرداب لا منفذ له، والنقد الأدبي برمته ليس باباً يتسع للحديث من خلاله عن كل شيء ، إنما نحاول أن نلمس مفصلاً حساساً أكثر إثارة من بين العديد من النقاط وإشارات الاستفهام ، وهذا ما يعد ممكناً في سياق الحديث عن تجربة الكاتب محمود الوهب القصصية واستخدامه السرد المكثف المنمق بالعديد من الرموز اللاذعة التي تنقل لنا الاحتجاج على غياب الفضيلة والعدالة والحق في مجتمع استهلاكي مادي أصبحت فيه القيم النبيلة موضع استهداف ولجم ، والكاتب ناقل لاحتجاجات الموجوعين من خلال رصده لحقيقة النضال سعياً إلى العيش الكريم المتواضع ،(العم لطوف) كأحد الشخصيات التي تغزو فضول الساعي لمعرفة ما قد تخبئه الحياة إلى جانب العديد من الأزمات التي تتشبث بالطبيعة البشرية لتكون بداية للدخول في شتى المفاهيم الموغلة في العمق الإنساني على مسرح التناقض ، يود الكاتب القول أن ثمة من يحتج بماهية

وجوده وإحساسه العميق بمرارة الوجع في الحياة والاحتجاج يمثل عنصر الحركة التي لا تكترث للجمود ومثال عظمة الفرد من قوة الجماعة ، المثال الفردي هنا في شخصية العم لطوف هو إبراز لقوة الجماعة وما تفرزه من إسقاطات ونتائج ، المجتمع الذي يحتوي العم لطوف ويحتويه العم لطوف بفلسفته العفوية و أفكاره الرائدة وطرافة حسه ولذاعة تساؤلاته وغرابة أجواءه التي توقن مصائر البشر وغرابتهم سلوكاً وخلقاً ، الغرابة ميزة المبدع وميزة الذين يسيرون في المسار الممكن الذي لا يتعارض مع الواجب والقيمة التي تنتج عنها ومعيار الشخصية في أدب الكاتب محمود الوهب بارزة من قدرة الشخصية على التأثير والتوغل إلى عوالم كثيرة وبالتالي قدرتها الفائقة على نقل حصيلة تجارب المجموعات البشرية على اختلاف هيئاتها, فلسفة السعي إلى الحياة دون التأثر بأوبئتها جلية في تجربة الكاتب في مجموعته (تخاريف العم لطوف) ويليه العنصر المقابل للغرابة وهو الذهول ، إشارة إلى جودة القص الذي يبث الغرابة والذهول معاً ، ومن خلال هاتين الثيمتين تظهر الاثارة والتشويق إلى جانبها المتعة والفائدة كي تتفق كل هذه العناصر في خلق الجمال كنتيجة خالصة ، حيث أن أهم ما يميز الكاتب هنا هو احتوائه للثنائية المتناقضة ، الفقر–الغنى ، التخلف–التقدم ،الحركة– الجمود ،المحافظة– التغيير ،الجهل– العلم ، ففي خضم تجربة الكتابة تتآلف القيم والمعايير في نسبيتها والحقائق يجوهرها لتشكل الإيقاع الذي ينشد للفن وجوهر الحياة والفن هو جودة اللعب على حد تعبير (كروتشه 1) ،الاغتراب الفردي ظاهر في شخصية العم لطوف الذي ينادي إلى العدالة في ظل غيابها وإلى الفضيلة في ظل زوالها وإلى الوفاء للأماكن بالرغم من خرابها وبالعودة إلى صفاء الماضي بالرغم من أفوله وهذا دعوة للمجتمع الطبيعي الذي تتحقق المساواة من خلاله بين كافة الطبقات ففي قصة (الساعة العجيبة) تتمثل لنا الجوانب المبهمة في

ذات العم لطوف العامل الكادح الذي يكدح لأجل أن يعيش ويغادر شوقاً لأهله وحين يثقل بالديون يعود لعمله لبيروت متذكراً ساعته العجيبة حيث يروي قصته على رفاقه ليتمثل المشهد الأكثر إثارة وحزناً هنا: ص 28 ((هم الحاج ابراهيم يريد التعليق بعبارته المعتادة– يخرب بيتك يالطوف ، ما أكذبك ...!– إلا أنه توقف متردداً مشدوهاً ,للدمعتين الفريدتين اللتين تحدرتا من محجري العم لطوف الغائرين لتنحدرا ببطء على جدران خديه الجافين))، عظمة المأساة في عيون العم لطوف كانت تحتل رصيد الأسئلة المعلنة في الفضاء الاجتماعي والإنساني عموماً ،حيث أن التناقضات المفعمة بالدهشة أطلقت سيول الصور الحزينة المنبعثة في داخل هذا الإنسان الذي يمثل لسان حال الطبقات المسحوقة التي تعيش من أجل أن تقتات وتنعم بالكرامة التي هي أساس كل المواقف الانسانية على صعيد الحياة والزمن ،الكاتب ينقل لنا الحدث من منحى تصويري هادئ يعكس كل الحوار الهادئ المستفيض بالعديد من الإسقاطات على عموم التجارب الإنسانية في ظل حالات الصراع التي لا تنتهي بل تشتعل وتتصاعد وتيرتها وفقاً للزمن ولزيادة الاحتياجات وتراكم الاحتجاجات في ظل غياب العدالة

الإجتماعية ،ينقل الكاتب فلسفته في تحليل الشخصية الفردية التي تعكس الواقع البائس بأوجهه المختلفة ضمن مناخ واحد يجمعها وهو البساطة الفنية المعمقة بالعديد من الأفكار النقية التي لا تتباعد بل تنسجم وفقاً لمسار قائم واحد باتجاه التوغل في المواقف وحقيقة الحياة المتشعبة ففي قصة (البطيخة العملاقة) يكشف الكاتب على ضوء شخصية العم لطوف مناخاً قائماً على كشف إشكالية جديدة تخدم قضية الإنسان القائم روحاً ووجداناً ومعنى كبديل عن ذلك المتقوقع في دائرة فارغة المضمون ،يثير أسئلة من نوع خاص ، يقيم سجالاً إنسانياً في المواقف الملتبسة ،يتحدث عن علاقة المستغِل بالمستغل، وعلاقة الضد بالضد ،

ويقيم عدة هواجس وأسئلة على أعتاب تفجر فتيل الأزمة الخانقة في ظل غياب الحقيقة وانزياح الستار عنها في مشهدية تميل إلى الغرابة ابتكرها الكاتب بلغة من يتقصى الجودة مخترقاً كل الحواجز ومعبراً بالوقت ذاته عن أنين يسكن مشروعية الحق الغائب وبذلك فهو يدعو إلى إستخلاص العبر الجديدة من خلال الكشف عن مصائر المتعبين الذين يسيرون على مسار التعايش مع الأشياء على حقيقتها قصة (البطيخة العملاقة) تعكس فنية المسار الواقعي وغرائبية الأسلوب وأيضاً ،مباشرة في طرحها لأسئلة تخص قضية الإنسان مع الإنسان،إن تجربة الكاتب محمود الوهب تعتمد الرؤية الثورية الواقعية في تجسيدها للمعاناة إزاء عجز الإنسان عن مواجهة المعوقات التي أنجبت عدة أشياء جعلت عالم الإنسان أشبه بالدوران في سلسلة مغلقة حيث الذات المبدعة التي توقر من قدْر القيم والذات المقابلة التي تبالغ في سطوتها على الشخصية المبتكرة التي أقرت الحياة وفقاً للنضال الصلب والكفاح المتزامن مع القيم النبيلة وشخصية العم لطوف هنا مثار أسئلة وتساؤلات رأى الكاتب من خلالها الخلاص البشري عموماً فهو إنسان مبتكر عامل ومناضل ضد الزيف ورؤيته طبيعية قائمة على بث السحر والقناعة المثالية على عوالم البشرية ومتناقضاتها ،في قصة (البطيخة العملاقة) يتبادر في ذهننا سعي العم لطوف إلى أن يسهِّل من حياة العائلة وأسرتها حين يعرض البطيخة للبيع ليكتشف إثرها النتيجة ، نلاحظ: ص 41

((وما إن وقعت عيناه عليَّ حتى عبس وقطب..!وتساءل:

_نعم..!

_قلت:أنا صاحب البطيخة..!

قال:أية بطيخة..!؟

قلت:البطيخة التي..!

فقاطعني وكأنه يتذكر ..نعم..نعم.. تعال ,وقادني إلى داخل الخان ، مشيراً إلى كومة كبيرة من قشور البطيخ ..!وقال: تلك هي بطيختك يالطوف هيا احملها ..كاد السوق يغلق بسبب فساد لبها وروائحه النتنة..!

حين نتعرف من خلال هذا الحوار الثنائية المتناقضة التي تمثل إحدى فصول الاستغلال الذي يبديه التاجر مع العم لطوف ، ليثير الاحتجاج على القيم الاستهلاكية القائمة على الإجحاف بالحق وتشويه القيم الخالصة التي تستثير سلباً دعامة الإنسان الطامح إلى البناء السلمي القائم على التوازن الطبقي لبث الخلاص الانساني ،يجسد الكاتب هذه العوائق ليستخلص ماهية الإنسان وما يجدر أن يعيشه من منحى الأخلاق القائمة على دحض الكراهية والخبث البشري في التعامل مع الحياة كقيمة نفعية خالية من الضمير والمبدأ العادل،كشف الآثار المرضية في الطبيعة البشرية هو جل ما يشتغل عليه الكاتب في بيانه الإنسان وتعامله مع المادة لا كوسيلة تعايش سلمي إنما كغاية تمحو قيم الإنسان المتعلقة بالفضيلة التي هي مبدأ أولي طبيعي في تغيير الحركة التاريخية التي تتجه باتجاه وضع حلول للإنسان ،رؤية الكاتب على ضوء تجربة العم لطوف واقعية قائمة على بناء الإنسان من الداخل ووضع الحلول الكاملة لا أنصاف الحلول في بث القيم البشرية العادلة من جديد بين المجتمعات البشرية على اختلاف طبقاتها ، العم لطوف يمثل الإنسان المحتج على تبدل الروح الطامحة للإرتقاء ،على مستوى المظاهر البراقة ويميل إلى القول بأن الإبداع يتولد برفض الزيف المتبع بحق الأشياء الجميلة لذلك استمد الكاتب من هذه الشخصية معيار استكشاف الحياة ورصد السلبيات والحد منها،والكشف عن تحليل نفوس المجموع ومعرفة ماهية من يفتقرون إلى الممارسة الأخلاقية وفي عناوين العم لطوف

الرغبة في رؤية العالم معافى من المرضية والاحتقان والقلق من منحى اغترابي عميق نلاحظ هنا: ص 45

((- يقولون ،بأنهم في القهوة قد أحضروا تلفزيون

وقعت الكلمة في أذني العم لطوف وقعاً باهتاً ، خالياً من أي معنى ،كأنما هي مجرد صوت تردد صداه في حدود الأذنين وما تعداهما ..! مما دفعه للأستفسار ثانية ،لكن بحذرٍ وحيطة وبنوع من الاعتذار ..! خوفاً من أي تعليق عابث ،يأتيه من صديقه الحاج ابراهيم ..!))،ينقل لنا الكاتب فوضى المجتمع بحركات منتظمة تشغل الحيز الحكائي بصورة عفوية تمتاز بالغرابة والتعقد لتأخذ ماهية العم لطوف من منحى درامي يبعث على السخرية لما قد يراه في مشهدية هذا الحدث فالعم لطوف يدرك أهمية الجديد من صياغة الحكاية التي يرويها فهو يراها غاية في الانسجام والتناغم لا سيما أنها وعاء لاحتجاجاته المترافقة مع صيحات المشردين والخائفين لما قد يحمله المجهول لهم ،إنه يؤمن بالفرد الهادئ القادر على احتواء الآخرين رغم سوء الحالة ،إبراز عنصر الوصف في العمل القصصي هو ممهد للدخول إلى أجواء من السرد المفصل للأحداث وهي تجري ، الأسلوب الذي يعتمده القاص في الغالب يركز على العنصر الفردي وقدرته على ضخ شحنات الإحتجاج الذي يعانيه باقي الأفراد في المجتمع ممن تثقلهم السذاجة فنرى هنا: ص 48 ((التفت العم لطوف إلى الحاج ابراهيم قائلاً:

-أيعقل ياحاج أن يتسع هذا الصندوق لكل ما ذكرت...؟

-انتظر يالطوف ،وسوف نرى بأعيننا كل شيء ...

إذاً عنصر الكلام التقليدي وإسباغ البساطة على شخصية العم لطوف هو انعكاس للجو العام أكثر من كونه حقيقة موجودة فيه كفرد ,فالتلفاز يتسع لكل ماهو إيجاب وسلب إنه مصدر إعلامي وبسيط ومرتبط بمعاناة أهل الحي ومن هم على

شاكلة أهل الحي من المجتمعات المغلوبة على أمرها, طرح الكاتب لقضايا جوهرية في مقاطع حكائية إنما هو إبراز المتانة في القص لديه،اختراق الفكرة من خلال بساطة ووصف الحركات والشخصيات والقدرة على ربط ذلك ضمن إيقاعيات فنية تعكس لنا أجواء الماضي وعلى العموم فالشخصيات ليست وليدة زمن ما بمقدار ما هي سوى تعبير عن انسحاق الإنسان ورؤيته للخلاص منه قيوده المجحفة بحق بقاءه في الحياة ، البساطة هي طابع الإنسان الأول ، وحاجة الإنسان للصفاء هي حاجة كبيرة وكأن الجو العام يشير إلى ذلك حيث تكون لهفة المتلقي للأشياء أكثر عفوية وبداهته تكون إزاءه جدتها ،أكثر إلحاحاً واجتذاباً ،أيضاً يجسد الكاتب مدى الإنقسام البشري والتفاوت بين المجتمعات،المتقدمة التي تبتكر الأشياء وتفكر دائماً باستخلاص بدائل حياتية في حياتها ومسيرتها عموماً وبين مجتمعات ما تزال تعتمد البساطة والبدائية في التعايش مع الأشياء وافتقارها إلى آليات التعايش الجديدة والرقي في التفكير ، يركز على مسألة اتساع الهوة بين الغني الطامح والفقير المتلاشي أي التابع،يمثل انقطاع الكهرباء رمزاً بعيد المدى ، يجسد صرخة الإنسان لمواكبة الحاضر ، وقدرته على إحداث ثقب في طبقة الجهل السميكة التي تعيش في سيكولوجيا المجتمعات النامية ، الصراع بين المتناقضات في ظل مجتمع مغلق يستمد تنفسه من بقايا أشياء محدودة وهنا ينغمس العم لطوف وفق هذا المنحى من إثبات وجوده وبقدرته على لفت الانتباه والجذب أكثر من التلفاز ذاته وهذا انحياز للإنسان القادر على تحريك العالم دون أن يكون منحازاً أو تابعاً، فغاية هذه الشخصية هو الكشف عن نقاب الأشياء المعلنة ظاهراً ، حيث يلجأ العم لطوف إلى بث الإغواء في صدور الناس من خلال حكاياه التي تجمع بين الخيال والواقع وتجنح في عموم معاناة الإنسان الكادح البسيط ويمثل ميل الغالبية

لجاذبية حكاياه هو لمعرفتهم أكثر ماهية الألم الذي يتلبسهم وعدم قدرته على تقبل الصندوق وسيلة التطور الجديدة بالنسبة لهم وهو بمثابة أن الأشياء النقية تكون الأجمل والأصفى لبقاءهم بعيدين عن زيف المدنية والنفاق المستشري، الغرائبية وعناصر الإثارة والتشويق كلها قادت نحو الفكرة التي تبع على السخرية والتهكم والكوميدية السوداء التي تعكس حال البسطاء ومعاناتهم ، قدرة الكاتب على بث روح التساؤل من خلال هذه الشخصية المتميزة بحضورها داخل القص على مستوى الشخصيات والفرادة التي تميزها من كونها المدير المدبر للتصادم الذي يحدث بين الشخوص عموماً، وهنا يعكس الكاتب إشكالات المجتمع من خلال سعي الانسان المتميز إلى إشعال فتيل الاحتجاج من أجل بث قيم الأخلاق داخل مجتمع متداعٍ يغلب الفساد على طابعه العام ورؤية الكاتب من خلال شخصية العم لطوف قائمة على كشف الرذيلة لإسقاط قناعها والدخول إلى عالم العم لطوف الغرائبي هو بمثابة توغل في أتون القصة وهدفها ومبعثها الغائي ، كونها ارتبطت بالإنسان وبقضاياه الأكثر حساسية وإرباكاً في مسيرة التطور والارتقاء سعياً إلى الأجمل والأبهى والأفضل دائماً، وما طريقة اتخاذ الكاتب لمظاهر الوصف الخارجي إلا بياناً لقيم البشر وعيوبها كما هنا ص 63: ((بقينا وحدنا ، نصارع خيوط الدهشة التي تكاثفت حول ألسنتنا ، معتقلة إياها في حلوقنا الجافة علق كل منا أكثر من إشارة استفهام على شفاهه الممطوطة ،فيما انتصبت إشارات التعجب ، لتنصف حدقات أعيننا المتسعة ، وهي تترجح في نظرها ما بين الباب والنافذة ..!))، في قصة (الأفعوان) يتجسد الوعي الإنساني بقدرته على وصف التداعيات التي نمت إثر تسلل الأفعى فالدهشة تعبير عن حضور القلق والقلق نتج عن عائق طبيعي وحيوية القص متأتية من عناصر التشويق والجذب اللذين يسهمان في إنماء بذور الخيال الخصب لدى

المتلقي وهذه الحيل اللغوية مناسبة لدخول الذهن لحظة صفاء فعملية القص قائمة على الوصف الذي له علاقة ب الظاهيراتية التي تعتمد على وصف الأشياء والتحليل القائم على فهم الظواهر أولاً ،وبيان العلاقة فيما بينهما ثانياً وترسيخ جمالية التضاد ثالثاً والقدرة على ربط هذه المكونات،بمكونات لها علاقة بالاتجاه السميائي الذي يعرف باستنباط العلامات إثر العلاقة بين الدال والمدلول ،فلا تخلو القصة من علامات قد تشكل أدوات في فهم العالم وفقاً لرؤية الكاتب والعمل الفني الذي وضعة , وصف الحياة الطبيعية البسيطة ، هو بمثابة دعوة الإنسان للصفاء الطبيعي الذي أشاد به (جان جاك روسو 2)وهو بمثابة العودة لها لأنها تمثل أهم مفاتيح الخلاص والوئام الانساني القادمين حتماً ،فالمدنية والحضارة وقيم التحضر ووسائل التقنية حملت كل ما هو جديد وكل ما هو إيجابي وسلبي للإنسان ، لكنها أحاطت الإنسان بأقنعة الزيف والتصنع الذي أنتجت قيم بعيدة عن الصفاء الطبيعي ،العم لطوف يهندس الكلمات ، يعطيها طابعها الإنساني المشبع بالمفاهيم الخلاقة ، مبتكرٌ مبدع وتأثيره على الآخرين عميق وهنا نتأمل في قصة (حمامتان بيضاوان) ، تداعيات حكايا العم لطوف على الآخرين من رفقائه في المجالس : ((أمرٌ واحد أخذ يتبدل في علاقتنا مع العم لطوف، ذلك أننا–ومنذ أن دخلنا سن اليفاع لم نعد مستمعين فقط ,بل صرنا مساهمين في رواية بعض الأحاديث أو الحكايا التي كانت ، تدور في مجالسه!))،إنه يركز على تحرير الإنسان ويجسد قدرة الأحداث والمواقف على بناء الشخصية المتألمة من منحاها الاحتجاجي الذي يطالب بالعدالة والإنصاف ، في عالم استهلاكي اختلت فيه طبائع البشر وتفاعلهم مع منظومة القيم الأخلاقية , ينطلق الكاتب محمود الوهب من تحدثه عن نموذج فردي مميز يحتوي هموم الطبقة الكادحة التي اختارت أن تجرب الأشياء وتدخل في حيز المواقف والتجارب مستفيدة من الحياة

بأوجهها المتناقضة وهنا نتأمل في ذات القصة ص 81 : ((دفعْت الباب ، تقدمت بحذر حتى مدخل الصابون ..رأيت مجموعة من النساء ، كنَّ في حالة لهو ومرح، كان جواً حريمياً خالصاً ..!فما إن رأيننني حتى تصايحن:ولي وتراكضن ، يختبئن في الغرف المجاورة ! لقد كنَّ شبه عاريات ...لكن صاحبة الصوت الأول ،ردت عليهن : هذا لطوف .. لطوف الأجير.. أجيرنا في المزرعة..! ثم اقتربت نحوي.. تمد يديها العاريتين حتى الإبطين .. تريد حمل الأغراض التي أخذت تهتز بين يدي..! ،كانت هي الأخرى شبه عارية ,بل هي عارية إلا من ثوب رقيق أسود ,يلتصق على جسدها الوردي الناعم..)) طريقة الوصف تجسد تناقضاً بين حالة الإنسان البسيط الأجير وحالة النساء اللاتي يعشن في أجواء من النعومة والرفاهية وهي مثار جانب يركز على أن التفاوت الطبقي يجعل الإنسان أكثر خجلاً من التحدث بالأشياء التي تخص جوانب الفتنة لدى النسوة اللاتي لم يرتعدن كثيراً من رؤية العم لطوف لكونه مجرد أجير وإنسان بسيط مما نلمس لدى الكاتب مقدرة على الإحاطة بجمالية الوصف , وصف الحالة والمشهد والإحساس بمأساة هذا التفاوت البشري بين عالم النساء الذي نراه هنا أقرب إلى الرفاهية والنعومة والدلال وعالم العم لطوف البسيط الذي يحتاج إلى لحظات من التلذذ بهذا السحر والحس الأنثوي مما يتمخض لديه كنتيجة عن النقص هذا الإبداع الذي جعله الأكثر تأثيراً وتميزاً على مساحة الأفكار والأكثر إحساساً بأهمية الوجع ،في جعل الإنسان يرتقي من سلم البساطة إلى حالة من الإدراك والتأمل والصفاء اللامتناهي،في قصة (العفاريت) تتجلى اللمسات الأخيرة لدى الكاتب الذي أراد من العم لطوف أن يكون مثال ذلك الثائر المحتج الذي يبتعد عن منطق المساومات ويتجسد في إطار ذلك الصامد في وجه قوى اللجم والقهر وقد أضفى الكاتب عليه صفة الإنسان الثوري المقاوم من منحى إنساني فهو

ينحاز إلى الجماهير الطيبة المنساقة للحياة بطيبتها ودماثتها فهنا نرى : ص 91 ((في تلك الليلة يروي ثائر لم أكد أغفو , حتى جاء الجماعة أخذوني .. ظننت أنني الوحيد .. لكنني ، ومن خلال التحقيقات فهمت أننا جميعاً بمن فينا العم لطوف موجودون في نفس المكان))إذن فالعم لطوف يشارك المجموع الهم الاجتماعي المزري الذي يلاحق حال الطبقات المعدمة ،فهو بذلك يتسم بالموضوعية الهادفة التي لا تتوارى عن أحاسيس المجموعة البشرية وهمومها وهنا نلاحظ أيضاً: ص 96 ((لا أعرف كم دامت المعركة بيني وبين هؤلاء العفاريت ، ولكني في النهاية ، وجدت نفسي في غرفة واسعة ، غرفة مفروشة بفرش إفرنجي ، فيها رجل يرتدي ثياباً مدنية أيضاً ، يتسلى بما يشبه السكين..!))، الرجل المقاوم الذي سرعان ما يلقى القبض عليه .. لأنه فعل المقاومة فعل ارتقاء نحو الأفضل ورؤية العالم بمنحاه المتناقض هو تعبير عن عدم اكتراث لبطش الآخر المتهالك على صعيد القيم والإرادة الخيرة ، هذا ما يؤكده الكاتب هنا من خلال وضعه لتداعيات ظروف اعتقال العم لطوف والمجيء به لغرفة التحقيق ، وعموم هذه المجموعة القصصية تهدف إلى بناء شخصية طامحة عادلة تتميز بالذكاء والشعور بالمجموع العام واستدعاء الإنسان النموذج والمثال في شخصية العم لطوف هو بمثابة استدعاء الأصالة الفردية التي تتمايز عن المجموع الذي من خلاله تتداعى عيوب البشر وقد كانت رسالة الكاتب في تخاريف العم لطوف قائمة على استعادة الريادة الحضارية الإنسان الذي يتعين عليه أن يكون في قمة القيم التي تسمو بالانتماء الوطني تماهياً بالعالمية وتأصلاً بقضية الانسان جوهراً وعملاً..

- **الهوامش:**

1-بينيديتو كروتشه (1866 - 1956) فيلسوف إيطالي من أتباع المدرسة الهيغلية الجديدة (أنظر الهيغلية الجديدة) وأستاذ بنابولي (1902-1920)، وقد ظهر كروتشه قرب نهاية القرن التاسع عشر بنقد للنظريات الفلسفية والاقتصادية للماركسية.

2-جان جاك روسو (28 يونيو 1712، جنيف - 2 يوليو 1778، إيرمينونفيل) هو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

التساؤل في حضرة الذاكرة في أدب الشاعر مصطفى النجار

أدب الشاعر مصطفى النجار أدب اختزالٍ للفكر من خلال التساؤل حول ماهية القيم التي تتضوَّعُ في الذاكرة إزاء العالم، يكشف عن تجربة تعتمد على الذاكرة في سجالها المستمر مع الزمن في خضم أحداثه حيث أن للشاعر رؤيته الخاصة وارتباطه الحميمي مع المكان الذي قاده للتساؤل وإبداء القلق على مستوى الحدث المتعلق باستحداث ذاكرةٍ غنيَّة، فنحن إذ نقف في مشاهد تعكس جغرافيا الحياة والمشهد الزمني غير محدد الماهية ورؤية الشاعر ضمنه تتلخص في مفردات من الحنين والنزعة التأملية وجمالية الوجع باقترانه مع التصوير ففي (شحارير بيضاء) ديوان الشاعر الأول، أدرك الشاعر ماهية الحقد الأعمى الذي يداهم البشرية منذ تشكلها فكيفما يحاول الحب مسَّ أرواحنا فإنه عاجزٌ على اقتناص الرذيلة في نفوسنا، ففي قصيدة (سماوات بعيدة) ينقل لنا الشاعر ماهية العجز الإنساني في الوصول إلى الكمال بأبعاده الرحبة المتناسقة حيث يتأمل متساءلاً:

أحببت أن أنام فوق سفينة في يوم/ثم أصحو/لا ضغينة لا حدود

ما أشبه هذا الاحتجاج باحتجاجٍ أكثر توتراً حيث يقول بشار بن برد:

صار كل الناس إلا أقلَّهم ذئاباً على أجسادهنَّ ثيابُ

إلى أن الشاعر النجَّار كان أقلَّ حدَّةً من ابن برد كونه يربط تفاصيل حياته بأفكاره الحيَّة بإيقاعية تميل للوصف والرصد وهو إضافة ينقل لنا عزم الإنسان الجديد إلى السمو والتحليق في الصحو برحاب التأمل الخلاق لما وراء العالم المادي باستخدامه لعنصر الابهاج حين يقول:

ما أحلى الطائر المحلق/جناحاه يحملانه حيث يشاء

وهذا كثيراً ما يذكّرنا بسعي أبو النصر الفارابي في بحثه عن الاجتماعات الإنسانية التي نظر إليها على أنها في درجتين كاملة، غير كاملة، وأعظم الاجتماعات الكاملة هو اجتماع الجماعة، ومايحيط بالشاعر مصطفى النجار حين يشيد في قصيدة له عن تآلفه مع مجمع المفكرين والمبدعين الذي يحرضه عليه خياله فيقول:

مازال بي يحلّق/خيالي المجنّح/نحن في سماء اليونان/مع أثينا وسقراط والشعراء/مع أعمدة المرمر/مع الأولمب العظيم/

فالسعادة الكاملة في نظر الشاعر هو سموه مع الجماعة، وهذا ما اعتبره الفارابي من أعظم الاجتماعات الكاملة ولعل تجربة الشاعر ومفرداته تدخل ضمن حيز الخصوصية الذاتية التي تطرح قضية المعادل الذاتي كبديل عن المعادل الموضوعي الذي طرحه تيسي إليوت وهو بالتالي مثار دعوة للكمال الخاص ومسيرة الشاعر في ضوء الكتابة الشعرية متجسدة في مخاطبة الحاضر ورصد أزماته من خلال تفعيل العلاقة بين التساؤل والذاكرة من كونهما مفصلان رئيسيان من خلالهما يذود الإنسان عن بقاءه إزاء الموت الذي يهدده فهو هنا في قصيدته سرب جلّنار في بلادي يقول:

لعينيك يا مهجتي/باح ما باح قلبي/لعينيك كان الحوار الذي لا يموت/وكانت حكايا الهموم التي لا تحب المغيب/

روح التفاؤل لديه تتمتع بكاريزما خاصة به فهو دائم البحث عن كمالية الحوار وعن تتمة الحكايا حيث يعبّر ابن سينا فكرياً عن ذلك من حقيقة الكمال الخاص بالإنسان فابن سينا يرى«إن سعادة كل كائن هي في وصوله إلى كماله الخاص به، والكمال الخاص هو المعرفة وبالتالي التفكير»

الشاعر مصطفى النجار دائم البحث عن ماهية القدوم واستنباط قيم جديدة

ظاهرة أكثر منها موارة في الوجود فهو في قصيدة «أبحث عن قيس آخر» يجول بحذر ويحيط قصيدته بهالة من التساؤلات حين يقول: ياقيس ويا قيس المجنون/الركبان وسيارات السفر الحضري/بجع الأيام القادمة/تاريخ الأفراح النبوي/ترجوك وترجو منك الاجهاز على الأحزان/ترجوك وترجو منك الصحو وتحرير الإنسان/

إنه يتحدث من منظار انتصار الفرح على الحزن واستعادة حرية الإنسان من خلال الحب من أوجه ترتبط بقيم العمل لا الخيال وهذا ما يقابل الذاتية الموضوعية في جعل الهيمان الشعري حاجة عقلية وفكرية إلى الجنوح لما وراء الخيال والفكر وهنا نتذكر قول الاستاذ يوسف كرم في كتابه تاريخ الفلسفة الحديثة حين يقول: « الحرية والخلود والله أمورٌ يؤدي إليها العقل العملي وإن عجز العقل النظري عن البرهنة عليها.. » وهنا يرتبط الشاعر بهذه المنهجية المقاربة لمقولة (كرم) حيث أن الشاعر النجار يخاطب قيس المجنون من منظار عصره ويدعو إلى الصحو أي إلى اختزال القيم من خلال دعوة العشق التي يتوحد فيها البشر عبر تعاقب الأزمنة وبالتالي فهي ثنائية تجمع العقل مع القلب في اتحاد كلي يسمو للرابطة السامية التي تناسقت مع الكون الهندسي الرائد، يجمع الشاعر مصطفى النجار أيضاً بين الفكر والغنائية الرومانسية في ظل رؤاه الفلسفية التأملية لإيجاد لغة ترابطية توجز القديم في اقترانه بالجديد في هيئة اتساق البسيط مع المعقد والغرابة مع الوضوح ليرسم لوحة سوريالية وعلى طريقته كقوله في قصيدة من سرق الفراشة والسور بديوانه«من سرق القمر»:

وكيف يرفُّ فراش الأماني/وسور الحديقة عالٍ/تشعُّ قناديل حبِّ/وليل المدينة من زمهرير/

إنه في هيئة الأماني والقناديل المشعَّة يستحضر معالم السعادة الكاملة

وميوله لاختزالها في ثوب المدينة التي يحاصرها الزمهرير وهذا أقرب من تفرد كنط في دراسته للسعادة حين أكَّد «أن السعادة هي إرضاء جميع ميولنا سواء في مساحتها، أي تعددها أو في شدتها أي درجتها أو توجهها أي مدتها ولا يقتصر اقترانها بالتالي على الفضيلة»

وقد انطلق الشاعر مصطفى النجار في تجربته الشعرية من مبدأ الإشادة باللذة من كونها مفتاحاً مهماً يصل بنا إلى الخير الأقصى الذي أشاد به أفلاطون ففي قصيدة نوافذ الأسرار يقول:

تتألق الكلمات في عينيك يوم تألق البسمات/في عينين ساحرتين مثل تراقص النجمات فوق ملاعب الأشجار/لا تغمضي عينيك في وجهي إذاً/لا تغلقي نوافذ الأسرار

ما أكثر قربه من مبدأ البحث عن اللذة والابتعاد عن الألم الذي تحدث عنه المفكر جيرمي بنتام فهو رأى أن المنفعة هي مبدأ السعادة العظمى، ويشير الشاعر في قصيدته لغطٌ حولها إلى امتزاج التساؤل بروح الغنائية والرؤية المستقبلية للعالم الذي تشكل المرأة فيه حلقات من أسئلة وألغاز حيث يقول:

هل أنت يا ورقاء عمري/في هبوب الريح في غدر السراب قرنفلة/هل أنت جمر تطلع الأشواق عين السنبلة/أم أنت ردهات عصرٍ قادمٍ بعض اشتهاء المقصلة/

يختلف عنه الشاعر وفيق سليطين في رؤيته للتساؤل فهو يقول بقصيدته «ما أشكل في كتاب النحاس»:

سألقي السلام على الأرض/ألقي عليها المحبة حتى تنوء/وأعطي المفاتيح للكائنات/أقول: هل الرمل أنشودة لا تجاهر مثلي بحبٍّ/ولا تتكشَّف عن لوعةٍ مشتهاة/

وهنا نكشف فارق التساؤل بين الشاعرين فالتساؤل لدى الشاعر مصطفى النجار يعتمد على التأمل للبعيد حيث يظهر الاغتراب في حيّزِ مشع بالذاكرة المتقصية التي تتمثل بمناجاة الشاعر للمرأة التي يستشفُّ فيها أنساً دافئاً لعصرٍ قادم، أما التساؤل لدى الشاعر وفيق سليطين فرؤيته قائمة على إزالة قناع الشؤم عن الأرض الزائلة التي تندثر باندثار الكائنات

وللشاعر مصطفى النجار طريقة في تحويل التساؤلات إلى إيقاع موظف في إحداث ثنائيات متقابلة تتسم بالحوارية والإيقاعية الهادئة من مثل:

هل أنت ميقات جديد/أم أنت زنبقة القبَل/هل أنت في هذا الصقيع

وأيضاً في موضع آخر يقول:

ومن قال إني قطعت الجذور؟/ومن قال إني هجوت زمان البراءة/ومن قال إني؟؟

أيضاً يعتمد المناجاة التي تخلق جودة الاقتصاد اللغوي القائم على الومضة والتكثيف حين

يقول:

يابنتُ يا أمسي الذي أحياه في حلم الغدِ

الذاكرة لدى الشاعر تختزل الأمس والغد عبر لحظات جميلة تستجدي رؤية الشاعر الفلسفية المنمقة بالتصوير الذي يحاكي الداخل الإنساني كما في مشهد المطر حين يقول بتأمل:

الله ما أحلى المطر/الله ما أصفى المطر/هو دائميٌّ في الصدور/هو دائميٌّ لان من إيقاعه حتى الحجر/

إنها ترنمات طفولية في حضرة المطر وتجسيدٌ لجوقة الولادة ومثال ذلك ما قاله الرافعي الذي رأى أن الحبَّ جزءٌ من الطفولة وكذلك الحبيبة هي جزء من

المحب ويؤكده الشاعر في موضع آخر يقول:

الحزن يا حبيبتي/الحزن في خريطة الوجود/في سلالة الورود/في نقاوة الحليب/في تشرد الشريد/

وللذاكرة في طور الطفولة عودة حتمية في مسيرة الشاعر الذي يبحث عن الطفولة بين العصافير والفراشات حين يقول:

العصافير امتدادٌ لرؤاي/والفراشات ابتداء لتلاوين خيالي/لا فلا توقظ شياطين شقاي/

مما يذكرنا بجبران خليل جبران حين يقول:

هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب/ والعناقيد تدلت كثريات الذهب

وأخيراً فهذه الدراسة عبورٌ سريع حول بعض أقل الجوانب إثارة على أطلال الذاكرة واضطرام التساؤلات فالشاعر مصطفى النجار جسد القلق الإنساني بدقة بإنشائه لجسور وتقاطعات لكل متقصٍ للكلمة ومتأمل لفلسفة السعي في مجاهل الحرف وإسقاطات الرمز ومسعى لكل متلق متأهب للبحث عن الجمال من خلال الدلالة دون الوصول فالسعي إلى الدلالات أكثر رحابة وحضوراً من النتائج

دراسة حول قصة الطوفان الأسود للقاص مامد شيخو

القصة:

لم تشرق الشمس منذ أيام طويلة، وكأنها غادرت هذه السموات التي لم تعد فيها سوى سحب فاحمة ترشق وجه الأرض مطرا أسود يصبغ كل الأشياء باللون القاتم. هذا المطر القاتل للزرع والثمر، وحتى للأعشاب الملتصقة بالصخور، ينهمر منذ أيام لذا انتشرت في أزقة القرية المتعرجة رائحة العفونة، ورائحة روث البقر، وبعر الماعز، لتطغى على رائحة البشر. أقفرت الحقول والدروب، من الناس، ولاذت الحشرات إلى شقوقها، ولم تعد تسمع زقزقة عصفور أو صدى ضحكة تخرج من إحدى زوايا القرية. الكل قلق على مصير بذاره في جوف الأرض، أو ثمار أشجاره التي انتظرها مدى عام، وبهائمه التي قارب علفها على النفاد. في كل صباح يستيقظ العجائز على أمل أن تكون السماء قد ابتسمت لهم أخيرا، لكن سرعان ما يشيحون بوجوههم، ويعقدون ما بين حواجبهم، فيختفي الأمل. القرويون البسطاء كانوا ينظرون بعيون غائبة في الحزن إلى مصير قريتهم» أم صخر » وهي تتهاوى في الهلاك، وكانت قد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مكانها المتموضع أسفل صخرة كبيرة على منحدر بين جبلين، لقد فقدت ثوبها الأخضر، وإطلالتها الجميلة وتقلقل نبض الحياة شيئا فشيئا في أوردتها، راح القلق ينخر عقول أهلها بشدة:

إلى متى.. ؟

والآخر يقول بحسرة:

حتى مياه النبعة تلوثت.. إنها نهايتنا !

ويتابع الذي بجانبه دون أن يرفع بصره:

يبدو أنها نهاية سوداء.

لكن » أبو طلحت » هو أشد المغتاظين لأنه أكثرهم أملاكا، لذا فهو يطلب حلا سريعا، ولايهمه إن كانت معجزة، لتنتشل أملاكه من الضياع، أما الحاج » أ بو ياسين « الذي كان يحاور المختار مباشرة لأنه اعتاد الجلوس على يمينه دائما لكبر سنه فقد كان يقول:

. إنها مصيبة وحلت على رؤوسنا يامختار، ففي كل يوم يزداد الأمر سوءاً، وأيامنا باتت على وتيرة واحدة، تبعث الهم والأسى والقلق من القادم، بصراحة فقدنا الأمل.

هنا همهم الجميع:

فقدنا الأمل! نعم..

بهكذا كلمات كانوا يصوّرون عجزهم ومأساتهم كل مرة في مضافة المختار "أبو أيوب" تحت تهديد المطر المستمر الذي ينقر على النوافذ ينذر، ويتوعد، والمختار يرفع رأسه بين الفينة والأخرى ليقول:

حسبنا الله ونعم الوكيل! والأمور مختلطة في رأسه. وفي كل مرة أيضا، كانت تنشب مشادّات، وملاسنات، ونقاشات حادة، تكاد تتطور إلى تلاكم بالأيدي، بين الشيخ عبد الجليل إمام مسجد القرية وجماعته، وبين الأستاذ نادر، معلم أولاد القرية الوحيد وجماعته من الشبان المتحمسين لأفكار الكتب، التي يأتي بها الأستاذ من المدينة

كان الشيخ يجزم بأن هذا المطر القاتل هو لعنة من السماء، أما الأستاذ فهو يصرُّ على أنه تلوث بيئي، ومن هذين المنطلقين، كانت تمتد وتتفرع حوارات ساخنة، وكل متحدث من الطرفين كان يُرغي، ويُزبد، وهو يدافع عن مبدئه، وحدقتا عينيه تتوسعان، والشرر يتطاير منهما، والقرويون صامتون، يتأملون من

كل هذا خيرا مفضيا إلى حل. ذات صباح استيقظوا على صوت بكاء، ونواح يصدر من أحد بيوت القرية، فهرعوا مستطلعين. كان الصوت ينبعث من بيت «أبو إبراهيم" وزوجته تضع رأس ابنها « سليمان «ذا السنوات العشر على ركبتها، وتبكي، والطفل يئن و يصارع آلامه و أبو إبراهيم يجلس على عتبة بيته يمتص سيجارته، وينفث دخانها بمرارة، محملقاً إلى السماء، وكأنه يحاورها، وعند الظهيرة كان الطفل يحتضر على الرغم من كل محاولات الإنقاذ له فتح الطفل عينيه، ونظر إلى أمه، حاول أن يقول شيئا، لكن خيطا من الدم تدفق من فمه، وانطفأت عيناه، و سكنت أطرافه، ومات. علا نواح الأم، وبكى أبوه، والغضب يخنقه، وهو يلعن المطر الأسود، الذي اصطحب معه الجوع والوباء، و سلبه فلذة كبده. بعدها كثرت اجتماعات أعيان القرية، وازدادت الخسائر، كما ازدادت الملاسنات، والمشاحنات بين الشيخ عبد الجليل، والأستاذ نادر، بل قيل:

إن شابا من جماعة الأستاذ قد حاول شد لحية الشيخ والنيل من هيبتها لولا تدخل المختار، والآخرين، فطرده الأستاذ لأنه على حسب رأيه خرج عن سلوكهم الذي يدعو إلى الحوار. جرى كل هذا على مرمى نظر "أبو إبراهيم" الذي لم يتمالك نفسه، فإذا به يقفز كالملدوغ، ويركض نحو الباب، وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة، وماهي إلا لحظات حتى جاءهم خبر عن نيته الرحيل عن القرية، وبالفعل عند وصولهم إلى بيته كان الرجل وأبناؤه ينقلون الأثاث خارجا وعلى الفور تدخل المختار:

إلى أين يا "أبو إبراهيم؟"

إلى حيث لا يوجد هذا المطر.. ولا الشيخ ولا الأستاذ !

قال ذلك وهو يتابع حمل الأثاث.

ثم تابع دون أن يكلّف نفسه الاستماع لأي كلام:

تباً للقيل والقال.. تباً للكتب والشعارات

ثم توقف وكأنه وجد الكلمات المناسبة التي يودُّ قو لها: تبا للنظريات والمبادئ، يا أخي هاتوا حلا، ثم قولوا ما يحلو لكم، نحن لا نفقه شيئا مما تتفوهون به، ولكن كنا نأمل خيرا، أما الآن فأنا لست مستعدا لأخسر المزيد من أفراد أسرتي، سوف أرحل تاركا لكم كل القرية. وبعد وعود من المختار، وحلف الإيمانات، عدل عن رأيه، شرط أن يفيها المختار في أقرب وقت. ومنذ ذلك اليوم، ظهرت جماعة جديدة في القرية يترأسها أبو إبراهيم شعارها **إما الحلول السريعة، وإما الرحيل عن القرية، لكن النزاعات بقيت على حالها في المضافة، سوى أن كل فريق يحاول أن يكسب أبو إبراهيم إلى صفه. وفي إحدى الصباحات بينما القرية تستيقظ وهي ما تزال تترنح تحت غطائها الأسود، والموت يلفها من كل جانب، ارتفع صراخ أحدهم من الجهة العلوية من صوب الجبال، وهو يدخل أزقة القرية، فبرزت الرؤوس من الأبواب هنا وهناك، ونبح كلب، وصدر من إحدى الحظائر خوار بقر ة تحتضر، والصوت يقترب مفجوعا يصرخ بجنون:

. يا أهالي القرية.. يا مختار.. إنه الموت.. استيقظوا!

جفلت أرواحهم، ركضوا إليه بينما كان الراعي النحيل متوجها إلى المختار:

. إنها نهايتنا.. الموت خلفي تماما.

أحاطوا به أمام بيت المختار، وكان قلبه يغلي، ونفسه تفيض بالذعر، والكلمات تقف في حلقه، والزبد يتطاير من فمه، اجتاز المختار الواقفين بخطوات سريعة، وانتصب أمام الراعي يتأرجح:

. هدئ من روعك يابني، وحدثنا عن هذا الموت الجديد الذي تصطحب أخباره معك.

لكن الشاب كانت ماتزال أحشاؤه تتلوى من هول مارآه، وفراديس وجهه لا

تُفسر تحت الصبغة السوداء، يبدو أنه قد بقي تحت المطر طويلا.

صمت الجميع و ساد السكون قليلا، اللهم إلا لهاث الراعي« هو شان »وصوت المطر الذي يرتطم بالأرض.

كانت قلوب القرويين قد بلغت حناجرهم، وأجسادهم ترتعش، وكأنها تعلن عدم احتمالها المزيد

مزق صوت المختار السكون:

. تكلم.. هات ماعندك.

وبدأ هوشان الكلام:

. يامختار إنه الموت بعينه، بشرفي الموت الأكيد، يجب أن نرحل، أن نترك هذه القرية الملعونة، وإلا أصبحت قبرا جماعيا يبتلعنا جميعا.

أخذ نفسا عميقا، واستدار نحو القرويين:

. الصخرة.. الصخرة الكبيرة، تلك التي هناك بين الجبلين.

وأشار بيده نحو الهناك، فاقشعرت الأبدان، وطارت الأبصار نحو الجبلين، فو قهم، وكاد هوشان ينفجر بالبكاء، ليعبر بالدموع عما شاهده:

. الصخرة.. إنها تحبس وراءها بحيرة عظيمة من المياه، بشرفي إنها لن تقاوم دفعها لو استمر سقوط الأمطار أكثر، لأني كنت هناك، وسمعت بأذني قرقعتها، وهي تتقهقر.

وسقط على الأرض وكأنه يقول بذلك إني بلغت وعليكم العمل

توقفت القلوب عن الخفقان، والحناجر عن الكلام، والأجساد تسمّرت و فارقتها الحركة، ونهضت في العيون صورة قرية جائعة متفسخة يلتهمها طوفان أسود، يسحقها بلا رحمة.

وعلى الفور خرَّ الشيخ عبد الجليل ساجدا يبكي، ويرفع يديه إلى السماء:

. العناية.. العناية.. إننا ضعفاء.

لكنها لطخت وجهه بالصبغة السوداء، جلس المختار القرفصاء ممسكا رأسه براحتيه، يحوقل في خيوط المياه وهي تنساب بين الوحول صامتا، واستند العجوز أبو ياسين إلى جدار المضافة، كانت أسنانه تصطك، وشفتاه ترتجفان، وأنفاسه متقطعة، يبدو عليه أنه يقاوم كي يظل واقفا.

واحتارت نظرات القرويين بين الصخرة، وبين الأعيان، وخلف صفوف الرجال كادت النساء يغشى عليهن، والأطفال يتعلقون بأطراف أثوابهن، ازداد نحيب الشيخ، و علا نشيجه، وراح يمّرغ وجهه بالوحل، انتفخت عروق رقبته، وصاح في الجميع:

. اسجدوا أيها العصاة، أقسم إنها لعنة، حلّت عليكم عقابا لكم.

وتمرغ الجميع بالطين، وكل منهم يعدد في سره أخطاءه، ويعتقد أنه هو المسؤول عما يحلّ بالقرية.

وتدخل الأستاذ من جديد:

. أيها الجاهل أنت تسلّمهم قرابين للموت، ألا تخجل من نفسك، الآن وقت العمل

هيا أيها الأخوة، لندعّم الصخرة، ونرمّم شقوقها، ونفتح لها مسارب من الجانب الآخر.

أعجب القرويون بهذا الرأي، فنهضوا.

عندما شاهد الشيخ ذلك، حشد جماعته مرة أخرى، وبدأ يدافع عن موقفه بحزم، واندلع النزاع مجددا، وراحوا يتراشقون النعوت والشتائم، ولكن هذه المرة لم يكتف أبو إبراهيم بالمشاهدة والمراقبة عن بعد. بل انقض عليهم مع جماعته، واشتعل العراك، وراحت الهراوات الغليظة، ترتفع وتنزل، والمختار ما يزال يتنهد:

. حسبنا الله ونعم الوكيل !

لكن ذلك لم يدم طويلا، فلقد سمع الجميع دوي انفجار كبير من الجهة العلوية من صوب الجبال

***الدراسة:**

هذه الدراسة تتضمن قصة مثيرة تنحاز للمنهج الانتقادي وتعبر عن نقد مجتمع الوجود من خلال انموذج القرية ومشهد المطر الأسود الذي يتساقط باستمرار على القرية، ليخرب الأرض والمحصول وليؤدي بالتالي إلى احتضار الماشية والدواب واحتضار بعض السكان، حيث نتأمل شخوص هذه القصة لنجد الكاتب مامد شيخو قد غلفها بتساؤلات فكرية جمة تخص الصراع الكبير الذي يتصاعد بقوة على حساب الوجود وتصدعاته وتلوثه، وإلى نظرة الإنسان المتقمص الثابت السلبي للعقيدة المنغمسة في إطار الجامد الخادش لتوازن الفكر، فالصراع الأزلي بين قوى المعرفة المتمثلة بشخص الأستاذ نادر وقوى الجهالة المتمثلة بالشيخ عبد الجليل يتجسد في إطار إيجاد الحل من منطلق المبادئ المنحازة للأصالة أو المعاصرة، أو الثابت والمتحول، للتلوث الذي شارف على إنهاء الوجود المتمثل بالقرية وما العالم سوى قرية صغيرة. في عصر الإنترنيت والخطوط الجوية.. الكاتب مامد شيخو يتحدث عن هذه الظاهرة الكونية على نحو جاد وعميق وبأسلوب قصصي تتوفر فيه كافة مقومات القصة القصيرة، يوغل في الشخوص ويعمد عن طريق الحبكة الحوارية، إلى التحدث عن معضلة التناقض في خضم وجود ينازع في ظل العنف والاحتجاج المعرفي عليه وتجسيده بمثابة التنقيب عن الحل من عرض لطرائق البشر وتصادم اللاشعور الفردي بالجمعي، الذي عم القرية، فالوصول إلى الحل في ظل الكارثة الطبيعية لا يجد نفعاً، فلا يمكن عندها لقوى التغيير من تفادي الخطر، حيث يكون الوجود

عبارة عن سفينة مثقوبة توشك على الغرق وغرق من فيها وهذا ماسيؤول إليه الوجود والبشر إثر حروبهم العبثية وانقساماتهم وتصارعهم الذي جعل الوجود يتجه نحو الخراب، والمطر الأسود الذي داهم القرية هو بمثابة العلامة الكبرى لبداية النهاية والانفجار هو بمثابة النهاية المعلنة، حيث نلحظ شخصية هوشمان من منحى من يتمسك بقشة وسط الغرق، لأجل احتمال النجاة في حين أن المعضلة الكونية أكبر من وضع احتمال الخلاص وسط صراع أهل القرية الدموي الذي نتج عن الخلاف الفكري!! هذه الصخرة التي توشك على الانفجار الذي هو النتيجة المعلنة! لكن الصراع الدامي بين جماعة الشيخ عبد الجليل وجماعة الأستاذ نادر يمثل النتيجة عن تراكم أملاك "أبو إبراهيم" الذي يستشعر بفقدانه نتائج الوضع الكارثي الحالي، وعلى ذلك، فجماعة أبو ابراهيم لا تعارك كلتا الجماعتين لسبب فكري يتعلق برأي كل من الشيخ عبد الجليل والأستاذ نادر وإنما بسبب ضياع الاملاك وفقدان الابن نتيجة وباء التلوث الذي أحاق بالقرية، حيث أن هاتين الفئتين المتمثلة بالشيخ والأستاذ تمثل فكرين متضادين لا يوجدان إلا بدعامة المادة ليستمر هذا الصراع الذي قاد بالنهاية إلى الصراع الشامل، وبالتالي يفني البشر بعضهم بعضاً نتيجة أسباب تتعلق بآرائهم وعقائدهم ويبدأ الوجود بالترهل والانتهاء لينتهي كل من على ظهر البسيطة، وهنا إشارة إلى مقاومة المعرفيين لكل دعاة التطرف لأجل صون الوجود وحمايته من خطر التصدع الجيولوجي والتلوث الذي يهدد سائر الكائنات الحية إثر استهتار الإنسان وحروبه العبثية وأنانيته الجشعة التي قوضت قيم المعرفة والحب، فالقاص مامد شيخو يرى أن هذا التصادم بين أصحاب النظريات لا مبرر له إنما هو إضعاف لأعمال المعرفيين على اختلاف ألوانهم، الأمر الذي يجدر لأجله التمسك بالرابطة المعرفية التي تمثل إحياء الحب وسبر المعرفة، والصراع القيمي

بين التيارات كافة ما هو إلا تعجيل لخطر الطبيعة ونهاية العالم، فالكاتب يسعى لبيان هذا الصراع، وتجسيده ليقدم عرضاً حتمياً عميق مستويات هذا الصراع التدميري وتدرجه، بيد أن الصراع الحقيقي يتمثل بإحقاق الأفضل وهو سينتعش بتمثل المعرفيين لرسالتهم في إعمار الوجود وصونه من مخاطر الحروب والكوارث التي أفرزتها أنانية الجشعين

البعد الملحمي في مجموعة (إلا إليك) للشاعر محمد بشير دحدوح

في مجموعة (إلا إليك) تساؤلات ملتاعة بالعديد من الرموز التي تحمل عبق مضامين مستمدة من تجليات دينية تراثية صيغت في حياتنا بطرائق تماهينا معها وهذا ما يجسده الشاعر هنا، حيث يوغل ملياً في شتى تفاصيل الفكر الذي نوظفه في سياقات وأطر موغلة في اتساعها وأدب الشاعر محمد بشير دحدوح انعكاس هادئ وقوي، شعري المستوى، حساس التساؤلات، ينفي كل خلل ينم عن الشبهة، جلي من ناحية المضمون والشكل الجديد المؤثر، يكشف عن هواجس إنسانية فكرية تتحدث عن القيم التي ترتكز على أسس خفية مشبعة بالرموز والمفاهيم الدينية والتراثية وهنا نتأمل في مطلع قصيدة إلا إليك: ص 8

لا تنتمي إلا إليك
فلا تؤافك أصغريك
فخزائن الأسماء مترعة ومشرعة عليك

ينطلق الشاعر من تمثله بشخصية صحابي اسمه حارثة وحارثة رمز موظف يدل من خلاله الشاعر على العديد من التساؤلات التي تعتري مسيرة الإنسان الحر، الباحث عن أفق رحبة، الانتماء الذي تجسد في النص هو انتماء للذات القادرة على أن تكون النموذج المقتدى على حد تعبير الكاتب عبد الفتاح قلعة جي حيث تكمن نزعة الفكر لدى الشاعر في ملامسته لعمق الرموز وفق مدلولات النص عبر إيقاع شعري يحاكي الحالة التأملية لدى المتلقي ويوسع من مدركات تصوراته نلحظ عبارة خزائن الأسماء التي تنم عن حالة الزخم التي يتجلى فيها المعبود في صميم المخلوق، والفضاء التصويري لدى الشاعر مبهم يعكس نظرة تفحصية تتجلى فيها أنماط الأسطورة والحكاية الشعبية وأثرها على الفضاء

المكاني الذي رسمه الشاعر دحدوح عاكساً الطبيعة التي تفيض بغزارة الأفكار والأشكال والقيم الحضارية، إن مسيرة الشاعر تتشكل من خلال كم الاتساع والرحابة في النص المتبلور في إطار وحدة ثقافية معرفية واعية ومعاصرة تجمع بين الأصالة والانزياح التصويري الحداثوي لتقديم لمحات بنائية يرتئيها برؤيته الخاصة ووفقاً لهذا التوصيف نتذكر رؤية الكاتب عبد الفتاح قلعة جي حين يقول:

إن الأسطورة التي تفترق عن الخرافة وعن الحكاية الشعبية، لها دائماً حقيقتها البدئية الخاصة بها كما أن لها تركيبتها ضمن جغرافية مبهمة أو متبدلة، وزمن دائري غامض مرتبط بحركة الفكر والطبيعة وحقيقة الأسطورة والبعد الملحمي متجلية بأبعادها الفنية هنا حيث يقترب الشاعر من خيوط مفصلية تكشف عن حقيقة الإرث الحضاري الديني المتجسد هنا: ص 8

ياحارثة

يا لازباً صلصاله المفتون من حمأٍ يداري عجزه ضوءاً

تقطع من بساط الليل

تقطر من عيون الكبر هذي القطة العمياء

تخمش في جبين الآنفات مزاعماً براقة كالبدر

إن النص هنا يتجلى بالتنقيب حول حقائق دينية تمتاز بالتماس الجذور الكامنة في مفردة المنادى (ياحارثة)، ثمة وقع متكرر لهذه المفردة كونها عقدة حساسة تتضوع حولها الطاقة الشعرية بألق وقوة ومتانة متجلية بكم هائلٍ الرموز التي تنم عن ثقافة معرفية واحتواء المفاهيم القيمية على صعيد الفهم والإدراك والإيمان، ومن خلال مرورنا الهادف في هذه القصيدة نجد أنها متموجة بتمازجات رؤيوية ملحمية خالية من المباشرة والوعظ التعليمي، والحديث في هذه

القصيدة ذو شجن وعمق من ناحية الفكرة وطريقة توظيفها في سياقات مهمة استفادت من طريقة القص القرآني والأقوال التراثية وهي بمثابة محاكاة لدى الشاعر للعمق الهائل المفعم بالولادة والغنى والمفردات لديه تميل إلى المتانة وتنم عن حيوية مفعمة بالتصوير والرقة أحياناً فتكرار الانتماء في مطلع القصيدة وفي منتصفها يشير إلى حدة الحوار وإثارته حيث يعمد الشاعر إلى هذا الزخم في الحوار ليبعد جو الرتابة والبرود عن قصيدته التي تتوسط الغنائية والملحمية ولتعبر عن هذا التوارد والتناص بدراية وفنية دقيقة وعالية حيث يقول هنا ص 9:

يا حارثة

احمل من الأزواج ما يبقي الحياة تضج بالشكوى

وتحفل بالسؤال

واسلك دروب الموج عبر مسارب الضوء الذي يحيي الموات

ويبرئ الخطوات من عرج

إنه يمتلك طاقة سردية متواصلة غير متقطعة تميل إلى الحوار الجذاب لتحقيق الإثارة الفنية على مستوى بيان الفكرة فمفردات "السؤال/الشكوى" تحمل هاجساً معيناً لدى الكاتب وهي حكمة تستدعي منه أن يقف على أطلال حارثة ليسأله ويشكوه، والقطع الشعرية لديه تخلو من المباشرة والسرد الثقيل، يلتمس من خلالها الشعرية الحقة التي لا تخدشها مفاهيم خارجة عن سلطان الشعر والفن الحقيقي، إن الذائقة التي يستمد منها الشاعر متانته وسيطة بين ألوان الحداثة والمتانة التراثية فهو شديد الحذر، عابق بلفظة الكلمة ومغزاها القريب والبعيد يخلق صياغات وتشابيه تعبِّر على سريان الحالة الشعورية بأدق وصف فالصراخ الإيحائي كامن في هذه القصيدة من بدايتها لنهايتها دون برود في النص أو رتابة أو استطراد خارج عن مناخ النص فهو يحقق وحدة القصيدة التي تعبر عن المناخ

الواحد الذي تحدث عنه أرسطو قديماً نلحظ في هذا المقطع سياقات تاريخية بالغة فهو يقول ص 9:

من جذوة ضحكت هناك

تلمس النور الذي يغدو عصا

شقت مداميك الشقاق

الله أكبر

من بحيرات الضلال تلامعت أسماؤها وعناكب

نسجت بعين الليل هيكلها وساخت في التدلي

إن الرؤية المعاصرة لدى الشاعر في هذه القصيدة قائمة على الخلق وإعادة صقل اللغة بحيوية تبعث على الإيقاعية المتأصلة بالقيم الموروثة، نلحظ استخدامه للتعابير المعنوية بخيالٍ حسي ظاهر من مثل بحيرات الضلال، تلامع الأسماء، وهذا يؤكد جمالية المسعى الجمالي الذي ينتهجه الشاعر في رسم معالم قصيدة ملحمية معاصرة تخرج عن أطر وقيود وأساليب الملحميين القدامى، والبعد الديني يتجلى وفق إيقاع التفعيلة الوسيط بين النظم والنثر وفق رؤية تأملية طافحة بالعمق والتناص فهنا إشارة إلى عصا موسى(تلمس النور الذي يغدو عصا شقت مداميك الشقاق)

وهنا إشارة إلى المسيح(في دربك الآلام مترعة تدمي راحتيك) كل هذا يؤكد على حضور المادة المعرفية في نص زاخر بالمفاهيم الحديثة التي تنقل التراث بوعي معاصر وهادئ، ليؤكد على علاقة الذات بالموروث وعلاقة اللغة بالجذور حسب أنموذج بنائي وهذا مايدعونا إلى تمثل مقولة قلعجي حين يقول:

إن وحدة الأسطورة يمكن أن تكون إحدى مقومات الوحدة المؤدية للتقارب بين الأمم والشعوب ونحن نشير أن وحدة المضامين التراثية والميثولوجية

وتماهيها مع النص الشعري كما في تجربة الشاعر محمد دحدوح يخدم الحالة البنائية الفنية الجديدة للنص لأنه يحمل طاقات جديدة تجعل القديم متماهياً وبجمال وفرادة في حضرة الجديد الإبداعي، فاللغة تأخذ مكانتها من مخزونها التراثي الذي يشكل عماداً لأي تشكيل أو ابتكار شعري مؤثر ومتوغل في الغد القادم هذا ماحاولت تجربة الشاعر أن تستخلصه لرصد أطوار جديدة يتماهى فيها المبدع بالأثر وهنا تتحقق الألفة.

دلالات الرمز في أدب الشاعر أدهم الدمشقي

إن رحلة الشاعر هو تحديد ماهيته في إطار الوجود الكلي، فهو يمهد لتقاطعات مجملها البحث في شؤون النفس في تصديها للضحالة، وهو ينجز في نصوصه الشعرية مسارات رحلته في دوامة الانشغال، نراه يسبر الغور في الموت كحقيقة قائمة تبتدي من خلالها الولادة الطبيعية للكائنات، ومن ثم لترتيب رغبات الحياة في شخص الكائن المؤثر والفاعل، فأدب الشاعر أدهم الدمشقي هو أدب الدلالة وفقاً للرؤى والمنهجية التي يستدل من خلالها للإبداع وفقاً لقراءتنا لمجمل نصوصه التي هي دعوة لاختلاط وتمازج الفنون الأدبية بعضها ببعض من شعر وقصة وخاطرة في إطار تعامل مع نص مفتوح يحرك الانشداه في مخيلة المتلقي والناقد المتتبع، بعيداً عن الانطباع المجاني الذي يرتكز على ثيمة التذوق الخارجي للابداع دون ملامسته عمقاً وإيغالاً، نجد أن النص الذي يقدمه الشاعر نص ملغوم بالدلالات الرمزية التي تعكس ألواناً من القلق والإدراك والتهكم والاغتراب، ضمن دراما فنية تعكس مشوار الحياة الإنسانية في ذات الأديب الباحث عن الصفاء الكلي في وجود متشابك مجهول البداية والنهاية، فليس الغاية من بلوغ ذروة الفن أو الأدب هو خرق المألوف بقدر ما تتجسد منتهى الحالة الإبداعية الشعرية في جعل الفكرة تتصدر قمة التساؤل في طبيعة المتأثر، فالرموز ليست جديدة بمقدار كيفية استخدامها وتوظيفها المتقن ولا معنى لمنظومة اللغة من دون إيغالها لأبعاد وملامح التجربة الإنسانية برمتها لخلق التأثير والإحساس العميق وهنا تتجسد عظمة اللغة وتتضح معالم ذاكرة جديدة وحقيقية، وهذه علامة تحول في مشوار الأدب الخالد، في سياق اللغة ففي قصيدة "سكون" يقول الشاعر: ص 20

دائرة مقفلة مثقوبة في الوسط

باسمها يجتمع نقيضان

نحمل أعمارنا، نمشي كعميانٍ على حدود الدائرة

ويسقط واحدنا تلو الآخر في الثقب الفارغ

دلالة الرمز في الثقب الفارغ تفصح عن قلق داخلي في هيئة ثقب محسوس، وهذه الحيرة مختمرة عن وعي بماهية تلك الدائرة التي يتحدث عنها الشاعر الدمشقي ويعتبرها مقفلة، وهذه الدائرة هي الكون والخارطة وتعقيدات البيئة وانعكاسها للفوضى المنكمشة في ذات الأديب في عالم صخبٍ زائف، فحين يتجلى الرمز في دلالة الدائرة التي يحمل فيها البشر أعمارهم هو بمثابة تعريف للانسان الذي يحاول تحقيق هاجس الحلم لكن أعباء الحياة تتراكم في هيئة الدائرة التي تفضي بالإنسان إلى الخواء ومن هنا أخذ الشاعر هاجساً من نوع آخر، يتساءل: ص 26

هل يدري أنه محظور عن التجول في الأماكن المقفرة

وأن الخوف الذي يحوطه، صار دربه إلى الطرقات العامة

حيث أنه عارٍ أمام نظرات الناس وانتقاداتهم

إنه غريب في تصرفاته، مألوفٌ في نبذه؟

إن دلالة الخوف هنا تأكيد على حضور المكان في ذات المتصور القائم كروح خالقة مبتكرة كهذا التجول والمسير نحو المعنى وليس القفز على وتر الغرابة التي تنتهي للعبث، فالسائر عبر الطرقات يكتشف ببصيرة المتأمل هذا العالم الذي يتناقض ويتبدل في تداعياته حيث أن النفس المبدعة لدى الشاعر أدهم الدمشقي طامحة لاستكشاف الدلالة الداخلية من خلال تجربته في ظلال الخوف وحصاره، هنا الشاعر يفصل بين ذاته كعلة وبين الوجود كمعلول داخلي يراود

الإنسان المتفجر شظايا مواهب وإمكانات، تتضوع القيم الشعورية في الحالة الإبداعية لتؤلف كلاً لا ينفصل ولا ينفصم في إطار الزمان والمكان لنتأمل أيضاً هنا: ص 36

خلت الغرفة لبعلها، علت أصوات الفحشاءتحت عباءة الليل

جيرانه الذين اشتكوا منه، معظمهم أدمنوا التنصت إلى هذه السيمفونية اليومية بلذة

دلالة الفحشاء في هذا المقطع قائمة على حس الاسترسال بإيذاع الصوت وصداه هنا وبطاقة سردية معلنة يستخدم الشاعر أدهم الدمشقي عبارات قائمة على تفعيل الإحساس بالصورة من جهة وتقديم لوحة مبعثها الألم والخواء الذي يحتج الشاعر على ماهيته في رمزية عباءة الليل، يعكس الشاعر واقعاً اجتماعياً خالياً من دلالات الصفاء والشعور بالتماسك الاجتماعي والتوحد الروحي المادي في بنية منظومة استهلاكية نفعية تتعامل مع المثل كسلع مستهلكة لنتأمل هنا: ص 50

التمثال تفكك.. المشانق عارية، في الهواء تلوح لوحدها، والطلاب ينتعلون أحلامهم

يصعدون على بقايا تمثال. خرجت الحافلة ولم تعد الفتاتان العذراوان حتى ذكرى أنوثة محطمة

تفكك التمثال وتحطم الأنوثة في عالم ضبابي يعيش بين الخيبة والانهيار، هذا نهج قائم على ابتكار دلالة التفكك المفضية للموت، لذا فالمتتبع للشاعر الدمشقي يمكنه أن يبحث في الدلالة على سياق عالم المتلقي ورؤيته الخاصة النسبية ليستخلص أشياء تختلف حسب تفاوت مسألة التفاوت مع النص، والانفجار يمثل لحظة وداع للذاكرة والحياة في وطن يتناقل الخراب، لنتأمل قصيدة

(لأجل الوحدة): 70

لأجل الوحدة قتلت جميع من أحب، عفوت عن ذاكرتي

منعت الآتي عن الآتي، لأجل الوحدة

صرت أكره الموت، لأنهم أقنعوني يوم كنت طفلاً أننا بعد الموت سنلتقي جميعاً

نجد دلالات مختلفة يتهافت عليها الرمز الغنائي، دلالة الوحدة راكنة في قاع قتل الأشياء الجميلة والبعد عن الانصات لأصداء الحياة من منحى تعاطي الذات مع الآخرين، يدعو الشاعر إلى ذاكرة تتأطر مع الجماعات وليس لأجل تجميدها في قالب ضيق لأن الوحدة في دلالة الشاعر الدمشقي تعني الانزواء وانتظار الموت لنرى هنا في نص (علاقة جدية) ص 80

عرفت جميع أنواع الوحدة، أصبحت جميعها تحبني، لكنني حتى اليوم لا أرغب في أن أقيم علاقة جدية مع إحداهن، لأنني أريد أن أظل وحيداً

الوحدة تمثل الكينونة التي يستمدها الشاعر من المرأة التي تشعل في ذات العاشق روح التملك والشعور بالذنب والوحدة كنتيجة، والوحدة الأخرى هي الوحدة القائمة نتيجة حالات الإحباط واليأس الناجمة عن ضعف الروابط الجمعية والإحساس بالحب والحياة وهي نظرة مبعثها الشعور بالاغتراب الفردي الذي يشكل ظاهرة إنسانية عامة تسود المجتمعات الصناعية والمدن الكبرى المتضخمة التي نسميها بمدن المعرفة لنتأمل: ص 102

السماء واسعة والطير نجم أسود في بقعة زرقاء

البحر واسع والزورق نجم أسود في بقعة زرقاء

الكون واسع وأنا نجم أسود في وحدة زرقاء

وهكذا نجد الشاعر يتحد بالزرقة أخيراً كانبلاج من نوع فريد بالصفاء الذي

يستشفه ويجد في ذلك الخلاص من خلال مداراته المتدلية في خضم الكون الواسع والبحر الموغل في الاتساع والسماء الرحبة، وهذه الدائرة التي تقبع في كل صفحة أخذت شكل المجموعة وعنوانها القائم على الدلالة الرمزية، وقد تصدرت قمة التساؤل وهي تؤكد مرارة الوجع الإنساني ومشوار القلق المتواصل لدى الإنسان في سعييه وصراعه نحو الأفضل والأبهى فدلالة الأنثى لدى الشاعر مقترنة بالوحدة بعقدة التملك تجاه التعلق بالوحدة من خلال الحب، ورائحة المرأة تدلنا على رمزية الأسى في صفحات الإنسان ومعالمه الضائعة ومشوار الوقت يعكس الرغبة في الطموح نحو انتزاع المجهول باتجاه إدراك المعرفة والفن

رمزية اللغة في أدب الشاعرة مرشدة جاويش

تكتب الشاعرة مرشدة جاويش بتماه مع الأشياء الجميلة المحيطة حولها، لسان حالها شكوى الطبيعة والروائح العبقة، ورحلة البحث في أدبها هي في إطار البحث عن الذات الساعية وراء حب الآخر الذي ينصهر في بوتقة الأحاسيس التي تتضوع في القصيدة التي لم تكتب بعد، فهي العقدة التي تلتف حولها الأحلام وتتسع لهول تلك الأحلام حدقات القلب، أدب الشاعرة مرشدة جاويش هو تنقيب جمالي مكثف باللغة، عميق في الإيغال بالحاضر سعياً إلى اكتشاف الأغاني العذبة، حتى لو كان الحلم متأخراً، بذلك فرؤية الشاعرة للكون والأنوثة والحب رؤية متماهية وواحدة تأبى التبعثر والتشظي وفعل الرؤية لديها قائم بكثافة الأشعة الضوئية التي تكسر في النهاية قيود العتمة، في مجموعتها هواجس الحنايا تسعى الشاعرة إلى استحضار الغياب وفق مكنونها الروحي الداخلي لتعبر عن مدى تماهيها بألوان البحر والسماء حيث تجمعهما الأنوثة المتسربلة بفوضى العاشقين عبر نمط من الموسيقى مختلفة ومؤتلفة وفق معيار التناقض الجميل لنتأمل هنا: ص 5

كان ما يؤرق غرابتنا
صوتك وهو بصداه
يمسك ألوان قيامتي
ويرشقها
كان على الجدار المقابل لحنيني
نجم يتسربل بفوضى العاشقين

إنها تستخرج مفرداتها الحنينية من بين براثن القطيعة والغرابة، والغرابة تستشعرها الشاعرة من خلال المفاجأة التي تحملها الحياة إليها، إن هذا التماهي مع الرجل ضمن اتصال كامل يأخذ أبعاداً تضج بألوان القيامة وفق هذا التشكيل المادي الروحي، تعتمد الشاعرة رصد البعد المكاني والعاطفي من خلال الشخصية التي توغل الشاعرة في تأملها وفق رؤية شفافة عميقة ومنسابة في التفاصيل المكانية – الجدار المقابل للحنين – هنا ألفة الإنسان مع المكان فالجدار يصل بنا للحنين وهذا تجسيد راقٍ وعميق لرمزية الجدار في وجدان الإنسان العاشق، لنتأمل هنا: ص 7

هل ندمن الفراق ونبتكر له أعياداً
أم نشعل ألف شمعة لعودة النوارس
أراهن أن زمناً للازورد
سيرتكب ما غاب من اللغة عنّا

التساؤل لدى الشاعرة مبهم ومتصل برمزية الفراق وحلوله في ذات الإنسان المتوغل في الحرائق والأحاسيس المنتهكة، لقد اعتمدت الشاعرة مرشدة جاويش الرمز، ابتداع الغرابة، التكثيف التصويري ضمن وحدة النص المتعدد المناخات القائم بتآلفه، لتنسج نصاً عابقاً بمتانة اللغة في توغلها للأشياء وهنا ماذا نعني بالإيغال، يعني أن أدباً برمته يستخلص أزمات الإنسان ونفسه القلقة من خلال تنقيب الشاعرة عن ذلك هاجساً وروحاً وتأملاً، إنها تجتر الكآبات المتقطعة من أجل عودة النوارس، النوارس الجامحة بين الزرقة، زرقة السماء والبحر، إن الطبيعة متأصلة بقوة داخل كينونة الشاعرة وهذا ما يجعل القصيدة بين أناملها تتضوع بعبق اللغة وجمالية التساؤل، إنها تأخذنا لأبعاد وأماكن مجهولة ومستعصية على المرء اللجوج، لأننا هنا نتأمل الحالة التي تستجدي التأني،

والتأمل للنص هو إحساس به، وتواصل مع إيماءاته وتماه مع حالته، إن فضاء المناجاة لدى الشاعرة مرشدة جاويش قصي ومليئ بالأحاجي والمفاجآت فهي هنا أنثى تقتات المستحيل لأجل رؤية بناء باسق ومتناسق لنتأمل هنا: ص 23

أيا فسحة لذاك الذي يحمل المستحيل

هنيئاً لنا وأنت أتيت وردنا

باسقاً باسقاً

ثم نامت على عطرنا جوقة النار

أو جوقة الخصب

أو ما يسمى العناق الجليل

النص الشعري هنا يحمل طاقة من الحوار الذكي القائم مع المستحيل، هنا الرجل يحمل مزايا التفوق العاطفي الذي يحتوي الهناء المفعم بالراحة، وهذا تجسيد لمتطلبات داخلية لها اتصال بالمونولوج الأنثوي الذي يبعث على الغرابة والافتتان، إنها تأتي حيناً بصيغة الجماعة حين تقول:

– أتيت وردنا – وما الورد سوى تعبير عن الجمال العميق الذي يتجلى بأبهى مفاتنه من خلال العطر، والطبيعة الحية في ذائقة الشاعرة مرشدة جاويش مدعاة لتأمل عنفوان الحالة العشقية في تصاعدها وتوترها نحو الذروة وتشظيها في كون يحمل يحمل جوقة الخصوبة، أدب الشاعرة جاويش منبعه من إيماءات الطبيعة الخارجية ومدى قدرتها على أن تكون انعكاساً للنفسية الاجتماعية التي تحمل هموم المجتمعات الساعية نحو وحدتها الروحية من خلال تعبير التوق الأخير المتجلي في العناق الجليل، وجلالة العناق تعبير يحمل طاقة مضاعفة من التوحد بما يمكن أن نسميه بالوجود الواحد القائم على التوازن الجمالي والعمق الفلسفي الذي نستخلصه من أبعاد التفكير لدى الإنسان المتكامل، إن نصاً قائماً

بفوضى الومض وتداعياته لجلي وجذاب يروق للنفسية الساعية إلى استنباط الدلالات الحية في تجربة الشاعرة مرشدة جاويش وقدرتها المفعمة على عقد تقابلات شتى بين الشخصية الباحثة والآخر الغائب والتفصيلات المنبثقة على الفضائين المكاني والزماني جعلا من النص الشعري غاية في التأصل والتألق بأزمات النفس الإنسانية التي تتوق للانعتاق من الاغتراب المزمن لنتأمل هنا طريقة الشاعرة في تجسيد فكرتها وتمريرها وفق هاجس ساحر متوغل في الرمز بتعبير شاف:

هو الحزن يا سيد العارفين
يؤرجح نخلي
و مازلت حتى هبوب النشيد
ورحلة ظني
أمسد جسم الكواكب فيك..

التعبير هنا مختلف يرصد إرهاصات مختلفة، يبرر عظمة الجرح من خلال الحزن الذي يزيل خيارات إيقاظ الأناشيد، فحيث يستدعي الحزن الظن يكمن الإصرار على خلق الجميل دائماً وهذه دلالة على جسامة الحزن وقدرته على أن يزيد الحياة ظنوناً وهواجس ومشقة، رغم ذلك فالشاعرة تجد الحل لهذا التعقيد الذي يفتعله الحزن في طريقها إلى ذاك الرجل، الذي يتصف باليقين والمعرفة والفهم لما يعتري المسافة من مشقة ومطبات وبذلك فهي تؤسس لعشق خام ناضج ومتين، لننتقل إلى مجموعة الشاعرة وصايا الغيم سنستشعر فضاء آخر، يتصف بتجاوزه الحالات المرهصة، تتآلف هذه المجموعة مع الروح المتكاملة الجوانب التي تتوج الأحاسيس المختلفة لأجل بناء آخر يتسع للتشكيلات والرؤى كافة، وحيث أن الشعرية الحقة هو اتصال الرؤى بقيم الحياة، ضمن مزيج

متآلف ينم عن اليقين والإدراك في الوجود، تعمد الشاعرة أخيراً إلى تحقيق ذروة شعريتها بنماذج جديدة تتسم بالجاذبية في تناولها للحالة والغرابة في تجسيدها للحدث الفني، والانزياح في جعل اللغة سريالية غريبة تبتدع داخل كينونتها اللغة الشعرية التي هي سليلة اللغة المحكية واللفظية ضمن اللغة التي توجد داخل اللغة القائمة، هذا ما يحققه التوتر الشعري بخاصة إذا كان دراماياً يعكس التجريب، تجريب كافة الأطوار المختلفة للوصول إلى لغة خاصة وأثيرية، هذا التنوع الشعري القائم في مجموعة وصايا الغيم يكشف عن خطا تجربة جديدة لها العديد من الخصوصية على المستوى الفني والجمالي والفلسفي من خلال تنوع التشكيل اللغوي التكثيفي والرصد الطبيعي، حيث أن جمالية الخلق في الشعر هو غاية ما استخلصته التجربة المعاصرة، اعتمادها على اللغة والاستفادة من تقنيات الصعود، هذا كله شكل ما يسمى بالكينونة المعاصرة التي أكدتها الشاعرة في لفتة لها في غلاف مجموعتها وصايا الغيم، ما يلفت النظر هنا في هذه المجموعة ترتيب عناوين القصائد وفقاً لإيقاعيات شعرية متناسقة ومتراصة، فمن التجلي الذي يعكس البحث الخلاق عن لذات القرنفل، التجلي الذي يخط مساره إلى وصايا الغيم وإحدى وصاياه مجسدة في النشيد الذي ظل ينأى، حيث تعتمد الشاعرة في أسلوبها المؤثر السائر نحو اللغة الوسيطة بين الواضح والفاضح، تجنح أحياناً إلى التحليق بين النار لتصلي في محراب الدم، تنسج ألوان الفتنة في بساتين الغبار، وتعدو نحو ذاك الحبيب لتستشف فيه آيات الروح وتمحو أوهام السلام وما تلبث أن تصغي بهدوء لإيقاعان لأسطورة المطر، وهنا نتساءل هل المطر أسطورة، أسطورة قد تجسد حالات مختلفة عن التساقط والدخول لأيقونة السر الذي يوجز الحديث عن الخيانة وعن الوقت، والهيمان المعتم وأخيراً تنهي الشاعرة مجموعتها بالحصار ولعل الحصار هو إحدى أهم المفاجآت التي

تحيط طبائع البشر وطموحاتهم منذ بداية انطلاق التجمعات البشرية لننظر هنا: ص 71

لديك.. أنا..

وأنت هناك

هل ظلي يموت هنا

سألتك عن مدينتنا

وعن حلم تغرب بي

فأنزلت الطيور من الوضوح إلى الغموض

ودرت في الكلمات

ثنائية الأنا والأنت، إنها ثنائية لا تزال الشاعرة تجسدها في لحظات يكون فيها للموت الكلمة الفصل، والموت يمثل القفلة التي لا تحتمل التأخر والتأجيل، وبذلك فالمدينة التي تجسدها الشاعرة هنا هي عنوان للحظات مرت كالحلم الذي اغترب، وحديث الشاعرة هنا ذو شجون وحساسية، لقد أزالت الشاعرة قيود الرتابة هنا في نص يحمل طاقة الحوار والخطاب والتآلف مع النص بجمالية تدعو إلى مزيد من الخلق والتآلف، وإلى ذاك الإشراق المتوهج في نص يحمل الغرابة والنشوة معاً، وفق ثنائية الأنا والمخاطب، إشارة إلى المدينة التي تبدو للإنسان الهاجس الأكبر على مسرح الذاكرة والحياة والزمن الذي لا يتوقف، المدينة هي الأسرار التي تتمركز طويلاً في الداخل الإنساني، العشق في وصايا الغيم يأخذ أبعاداً ذات خفايا وشجون يكشف في البعيد الموغل في الجذور لغاية تحقيق التصاعد في إطلاق الطاقة الشعورية كما في قصائد في الأيقونة لنرَ هنا: ص 73

جسدي أنداء الروح

وروحي بشهيات النار

تقول: أحبك

هنا في هذه الومضة القصيرة جل الطاقة العاطفية المتوقدة تستعر في هضبات النار التي تتجسد في السحر الأنثوي والجسد الذي يعج بأسرار الجمال وخفايا الخصوبة ولوعة الإثارة، لذلك تخرج الشاعرة من غمار هذا الوصف المكثف لتجعل من كلمة أحبك الذروة المكملة لهذا الجمال ولتلك الإثارة حيث تقول في موضع آخر بقصيدة "وطنٌ أنا للزرع":

هو لاذعٌ كالجمر أو كالخمر

كم نادى على عطري

وكم في شاطئي

تاهت رؤوس العشب في دمه

وكم يده الشفيفة غاصنت حلمي

وشعت في حريري

الوطن في نص الشاعرة يحمل السؤال اللاذع فتارة يكون الوطن مؤنسناً بظل رجل، رجل تتماهى به الشاعرة بمنتهى الإيقاعية، تتداخل فيه عطراً وشاطئاً متماوجاً، الوطن لديها متجسد بالفتنة، الرجل الذي تحمل يده الشفيفة العديد من الآمال والأحلام، تجربة الشاعرة في خضم مجموعة وصايا الغيم العابقة الغائرة بالجرح بالذكرى بالفواجع والأحلام الشفيفة والأخيلة المفعمة بعناصر القوة والجمال والأنوثة المتوهجة المتجسدة بالطبيعة والبحر والسماء والغيوم، ولعل في تجربة الشاعرة مرشدة جاويش في مجموعتها ماء الضياء انقلاب شبه واضح وتجديد آخر يعتمد الإنجاز والبناء، دعوة لتحرير الإنسان من قيود العتمة والاغتراب الداخلي، فمسيرة الشاعرة في ماء الضياء تتجلى بأبعاد جديدة وخلفيات

فريدة فهي ترتدي النص الشعري من رأسه حتى أخمص قدميه وتبشر بولادات جديدة وخلفيات فريدة فهي ترسل احتجاجاتها وفق إيقاعيات متقطعة ففي أقانيم الوقت تتجلى الشاعرة من منحى آخر يبعث على السؤال عن الوقت عن حضور ذاك الإنسان المنفعل المتخبط في هواه القديم، المتشظي لحظة انبلاج الوقت فهي تقول:

كان مثل القصيدة

مثل دمي نافراً بالظلال

وكان بسيطاً..

يخبئ في لحظة الانفعال

طيور السؤال

حضور الشاعرة في هذه المقطوعة دليل امتزاج في الرؤية التي تجمع الظلال النافرة بلحظة الانفعال، إنها في بعض من الحالات تكرر هيمانها وأحياناً تؤرخ تفاصيل لأماكن تقيم من خلالها رؤيتها المختلفة لنتأمل هنا أيضاً: ص 19

أين الذي كان يداهمني

كنوارس النعاس

ويرتشفني جرعة جرعة

حين تدنو إلي السماء

هنا تتساءل الشاعرة عن شيء ذهب كالومض من حياتها وبذلك فتهويمات الشاعرة كانت بدافع هذيان شعري متناسق وممتع متأصل بالأشياء وغارق بالعديد من الرموز والفوضى المنتظمة، إنها تؤسس لحالة فنية راقية حين تقول: ص 27

إنني والمجاز الذي لا يحد

إلى المحو يمضي
وما أدركته رياحي
أحاول أن أتهجى الذي يتحسس جسم صباحي
وفي لوعة يحتضنني
أحاول أن أسترد من الفقد ضوء جناحي

والعبرة تكمن في محاولة الشاعرة لإيجاد البديل عن ذلك الوجع الرابض والحيرة الصاخبة، فالموجود الشاعري موجود مسالم، تقوده الهواجس والأفكار حين تتحسس الصباح من خلال استحضار الذات المقابلة تلك التي تغوص في رياح المشاعر وتوغل في الضوء لكي تسترد شهوة التحليق فالشاعرة وفق ماء الضياء دائمة البوح عما يعتري مسيرة الأنثى في الحياة الزائلة التي تجسد الزيف والوقت المسرع، والصباح في عرف الشاعرة وطقوسها تمثل الرؤية الكامنة للحقيقة الشعرية الماثلة في محاكاة أطوار الإبداع وجمالية الخلق والابتكار وروعة الاكتشاف بعد تأن وطول إبحار، تجربة الشاعرة عموماً تنطلق من الرمزية المتعددة الأطوار والألوان التي يذهب فيض منها إلى الثقافة الدينية والقيم التراثية والرمز الذي نتناوله هنا ليس إشارة إلى القيم الأخرى بمقدار ما رأته الشاعرة تعبيراً كافياً عن شيء مبهم، وهنا ننتهي ببيان القول أن تجربة الشاعرة تطمح لتكوين لغة خاصة تؤسس لعالم لا معقول غريب ومألوف وواضح وضوح الغموض في إحجامه عن المعنى بعاديته وبذلك فخطا الشاعرة باتجاه رؤية حداثة يتناولها الرمز الذي يدخل في فلك الانزياح اللغوي لأجل صياغة العالم البديل عن العالم المعيش وفق أنموذج شعري حافل بالخيبات والمعاناة الإنسانية بعيداً عن التجسيم لأن المعاناة هي برمتها معاناة الإنسان وليس المرأة فقط ونظرة الشاعرة للوجود برمته هو نظرة إلى سبل البحث عن طرائق وحلول

تساعد الإنسان إلى التواصل مع الشبكات الاجتماعية التي يستقي الفرد منها عوالمه الشعورية والإدراكية ومن هنا فالشاعرة تتطرق إلى الحياة عموماً بروح تميل إلى الجنوح نحو الطبيعة والتصوير والخيال والابتكار الذي يوسع من مدركات الخيال وإلى نقل حصيلة التجارب الإنسانية بصورة واعية تتخطى قيود العقل المجرد ونعتقد كما يبدو لنا أن الرسالة قد وصلت..

عذوبة النص الشعري في أدب الشاعرة غزال ابراهيم خضر

تكتب الشاعرة غزال ابراهيم خضر، بأسلوب شيق وسلس، دون تكلّف أو تعقيد، أو إيغال في متاهات الغموض، تخاطب المشاعر بطريقة أنثوية تصويرية باذخة بالأحاسيس والصور، المتناعمتين بشكل متقارب ومتكامل ومتسق، شعرها لسان حال الطبيعة والإنسان، تمتهن الشعر كما تمتهن عازفة القيثارة تمايل الأنامل ضمن الأوتار ثملاً وسحراً، لدرجة تذهل النفس وتحيّرها، ولعل أثر البيئة الخصبة الغنية بالتحولات، أسهمت في خلق اللغة المحبوكة بجماليات المكان وقصص أحزانه، حيث أن تناولنا لعموم تجربة الشاعرة غزال لأمرٌ لا تستطيع الدراسات النقدية القصيرة إيفاءها غرضاً وحقاً، إذ نشير في معرض دراستنا هذه لمنحى خاص، نسلط فيه الضوء على عذوبة النص الشعري الذي يحتفي باللغة الشعرية وذوقها في صياغة أجمل اللوحات الشعرية، بإسلوب يتخلله الأمل والألم والمعاناة وروح العاطفة الأنثوية الجياشة التي تجعل القصيدة حينها، قصيدة إمتاع وتأمل نحو البعيد، إذ تقول الشاعرة في قصيدة بعنوان: (شابة أنفلوا خطيبها)

كفى صمتاً، تعال
وقل إذا ظهرت في السماء
كالملاك في هذا العالم
المملوء بالفقدان مرة أخرى
فأمواج رغباتي الطائشة
حائرة لا تدري
تحتضن أية بحيرة من عينيك

عينك اليمنى أم عينك اليسرى؟

ثمة عمق هائل، وطاقة شعرية رقيقة، مضمخة بعفوية هادئة ومدركة، تدور في فلك شاعرية حزينة متخمة بالألم والمناجاة، رغم أن الشاعرة الكردستانية تكتب بالكردية إلا أن كلماتها حينما تُرجمت للعربية لم تنقص تلك الشاعرية بل زادتها شجناً، حيث أن أشعارها المترجمة في غاية الإتقان، نظراً لبساطة الأسلوب الذي تمتهنه شاعرتنا المعرفية وعفوية المشاعر، حيث قلما نجد شعراً مترجماً قد حافظ على حرارته وعذوبته حين ترجمته لعدة لغات بينما حقيقة العذوبة الشعرية لدى الشاعرة غزال كامنة من عفويتها وبساطتها والرمزية الواضحة التي تعكس حرارة العشق في مكنون قصائدها، تلك الخصوبة التي تمنحها الأنثى المبدعة لتصبغ به الأشياء كافة، من إبداع وتجليات روحها، إذ تقول هنا:

كلما غسل الثلج ألوانكم بالأبيض

ونثر أخطاءه عليكم بالأبيض

وما اكترث لوجع الأجساد والزهور والأشجار والأوراق

ساعتها أغادر حياتي

عنوة ولا أحدث أحداً

عن هذا في الأشعار

تكتب عن علاقة المبدع بالآخر، لتجسد لنا مقولة سارتر «الجحيم هو الآخر» الذي تدور في فلكه تساؤلات الحياة ورحلة البدايات وقرب النهايات، حيث للشعر مساحة خاصة لدى الشاعرة، مساحة تبوح فيه بأشياء خارج البعد والغياب والعتاب حين تقول هنا في قصيدة (شعر ونغمة البلبل البيضاء):

عندما تأتي وتجلس على الكرسي

يصبح الكرسي عرشاً لك

وأمامك أحس بالخجل

وعندما تعلق وردة على صدري

وأنا أزرعها على حافة روحي

ودوماً أشمها

وعندما تقرّب فمك لتقبّلني

وتراقصني كي أشرب من عطشك

وألا أتدارك شيئاً وأذوب أمامك..

وأخيراً لا يسعنا سوى أن نؤكد على سلاسة اللغة وإيقاعيتها العذبة وعمقها لدى الشاعرة المعرفية غزال ابراهيم خضر، وقدرتها على جذب المتلقي بيسر وسهولة، ويرهن ذلك إلى قربها للمعاصرة والتجديد في قصيدة النثر على نحو حقيقي ومعطاء، فالشعر برمته تجسيد للقيم الطبيعية النابعة من تعلق الإنسان المعرفي المبدع بالطبيعة والمحيط، وهذا ما ارتأته إليه الشاعرة لإيصاله للناس بمختلف شرائحهم الثقافية والاجتماعية

منهج الحكمة عند الأديبين"لقمان محمود" و "وحيد راغب"

مقارنة نقدية

بلا شك فإن جوانب الحكمة ورؤية الإنسان للعالم والأشياء والآخرين لا تنفكُّ عن الفنون والعلوم الإنسانية، حتى قيل قديماً «إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً» مما يعني أن الفكر لا ينفصل أبداً عن الشعر والصورة الفنية عموماً وهذا ما دعا أرسطو للقول بأن الشعر طريقة تفكير، لذلك فدراستنا، تتناول منهج الحكمة لكل من الشاعر – لقمان محمود – والشاعر – وحيد راغب – حول أوجه التباين والتقارب في منهجهما ورؤيتهما للعالم، وقد اخترنا قراءة ديوان (الجودي) للشاعر وحيد راغب وديوان (وسيلة لفهم المنافي) للشاعر لقمان محمود، ولنتأمل الآن الحالة التي باتت تستحضر مشهدية الصراع الدائر في قلب وفكر الشاعر لقمان محمود حين راح يقول:

تحت رحمة الحرب

السلاح وحده سعيد

لأنه يمنح السلام

للمنتصر

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون حين قال بأن التاريخ يكتبه المنتصرون، فالسلام لدى الشاعر – لقمان محمود – حكرٌ للمنتصر، سلام القوي على الضعيف، سلام الدول المنتصرة في الحرب العالمية الاولى على الدول المهزومة والتي تجسدت في معاهدة (فراساي)، بينما نجد الشاعر – وحيد راغب – ينهج التأمل ليصل لحكمة يبتغيها في حياة تضجُّ بالمفاجآت والمآسي حين يقول:

لا تجعل أنامك تتوسل لخدودها

إنما جُعلت للعزف

فإذا نفرت فأنت مخيَّر.

أن تروَّضَ

أو تتركها للبراري..

فيختار الشاعر وحيد راغب، مسلك الاختيار فتارة تعزف الأنامل نشيد الرغبة بالأمن والسلام، وتارة تغرق بالأنين والتوسلات من خلال انتظار الأمل، وهكذا نحن أمام مقاربتين، تنسجان عباءة للاستغراق والاصطفاء بالكون وحروبه، فالشاعر لقمان محمود يخوض جلجلة الحرب، ويجد في السلام خديعة المنتصر، وسعادته التي تتحقق بالسلاح وحده، بينما يتخذ الشاعر وحيد راغب من المدارة، مداراة الجرح ملاذاً للمتعة، ويقول هنا الشاعر:

–لقمان محمود – في ومضة عنوانها (نداء):

رضيعٌ يُذبح على صدر أمه

يكفي لإغراق البشرية

في نقطة دم

ويقول في ومضة أخرى عنوانها (حقيقة القناع):

توحش الإنسان

عندما اخترع اللباس

نحن أمام ومضتين تضعاننا أمام مفترق نهاية منحدر الألم ما بين دمٍ يراق وتوحش يرتكب من خلال قناع، وما أمرّ الوصف!، بينما الشاعر "وحيد راغب" يتخذ رؤية مناقضة مفادها التحلي بالحكمة والطاعة والشجاعة حينما راح يستغرق متأملاً دورة الزمن قائلاً:

إذا وقع على بساطك التاريخ

فأنت لديك قاطنو الكهوف و"البوسيدوا"[1]:

ويقول أيضاً في ومضة أخرى:

ألم تشعر بصراخ الخشب

حين تدقُّ المسمار

نعود هنا للمقاربة والمقارنة بين ألم حاضر ما زال مقيماً في ذاكرة الشاعر "لقمان محمود"، فهو يتخذ من سبر الألم عصا يهشُّ بها على جراحه المتوطِّنة بين الجبال، بينما الشاعر "وحيد راغب" يجد في التأمل والاستجداء بالشجاعة والحكمة سبيلاً لدرء المخاطر، فلغة الشاعر "لقمان محمود" لغة تضجُّ بالانفعال والتوتر الشعري على مدار فكره وإرهاصات الداخل ومقارباتها مع الواقع الذي يعيد نفسه في هيئة الحلم القديم والآلام الناشبة في بقاع الأرض.. ولنتأمل الشاعر "وحيد راغب" هنا يقول:

إنهم أصحاب (معصرة الرب)

من يجنِّدون الإله في جيوشهم

ليشرب الدماء

ويقطع رؤوس النخيل

يضعون له الطعام

ويطلقونه في البراري

لنقارن هذه الومضة مع ومضة يجسدها الشاعر "لقمان محمود" قائلاً:

حين انجلت الحرب

بعد ألف عام ونيّف

---

1 - آلهة الحكمة والطاعة والشجاعة باليابانية.

عن الغالب والمغلوب

كان الموت متنكّراً

في ثياب الإسلام

فالشاعر "وحيد راغب" يتحدث عن الحروب التي كان يشنها السلطويون باسم الرب، وهو الأمر ذاته الذي جسده واستدعاه الشاعر "لقمان محمود"، الذي وجد الموت مجدّداً يلتحف عباءة الدين لينشر الدمار والإرهاب. ففي رؤية الشاعر "لقمان محمود" تتجسد دلالات الحياة بصفاتها حيث أبرز الشيء ونقيضه في علاقة التضاد، فيرينا مشاهد البربرية والقتل ويعطي مشهدية أخرى تنطلي على جانب من الفكر والإدراك فيرى الثورة متجسدة أكثر في الخبز، حين يقول:

قام القمح بثورته الأولى

فكان التنُّور

ثم تناسلت الثورات

فكانت الأفران

ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن

يُعتبر الرغيف من أهم المنجزات

فالثورة في فكر الشاعر "لقمان محمود" هي في تحقيق شروط الحياة ورفاهيتها، لا لإعلان القتل وتدمير القيم باسم الاديان، وهنا يقول الشاعر "وحيد راغب" مكمِّلاً اللوحة ومضيفاً إليها لوناً جديداً فيقول:

في طابور الخبز

كان المسيح يقدِّم نفسه

ترنّم في وضح الجمال أنشودة

سمك المائدة كلوا منه

لتعبروا الفتنة

حيث يجسِّد ثوب الأمن والسلام والرحمة خلاصاً من الفتنة والجشع الذي يستولي الإنسان من خلال الأنانية، حيث يؤمن كلا الشاعرين بالتطلع للخلاص والأمن، حيث يعتمد الشاعر "وحيد راغب" على رصيد الثقافة الدينية والتراثية المجتمعية التي تذهب منحى الفطرة الطبيعية، بينما يذهب الشاعر لقمان محمود بالاتجاه البعد التجريدي ليخاطب عقل الإنسان وإدراكه بطريقة تعتمد المكاشفة والإشارة، وكلاهما يرى في الخبز المنجز السلمي الذي يبرز حقيقة المجتمع المعرفي السلمي القائم على الابتكار وتقلد الجمال، ونوجز أخيراً بأن المسعى الرؤيوي لكلا الشاعرين قد تحقق بتكامل في بث منهج الحكمة الذي أسهب في مسائل تخص الحرية والقيم ومذهب السلم، بتباين وفق مؤثرات الجغرافيا والمكان على أدبهما، وفي تلك مغزى يدلنا إلى البنية القيمية لحقيقة الإنسان المعرفي وتنديده للتوحش والصراع من خلال استنهاضه للحضارة الإنسانية..

مسارات رؤيوية لفهم (الوحش الذي بداخلي)

تمهيد:

الوحش قبيح المنظر والهيئة، غطى العالم بآثاره، ورسخ حضوره في كل مناحي الحياة، في حقلي السلطة والمجتمع، في الغابات الموحشة أثناء الليل، وفي صميم فكر الإنسان، على تباين فهمه ووعيه ومواقع عمله ، لهذا بات اليوم وجه رواية عميقة الكنه، تفتح أذرعها لسبر فطن، يخلصها من الغموض ليأخذها للتجلي حيث يتربع النقد كسيد في ذرا المشهد الفني، ليبعث على الإبداع الموضوع نكهة أخرى، وبعداً آخر، حيث ينتقل الوحش عن هيئته الأسطورية ليتجسد في معنى الحياة المضطربة، والنفوس التي تخاف وتتصدر مشهد الرهبة والانغماس فيه طول حياتها وتعدد أطوار نموها وانتقالها، ليدل الوحش على كساد الحياة وعبثيتها، وانحسار الجمال في متونها، إن تلاشي الأمان والطمأنينة لدى الإنسان إلى جانب ضمور الأمل والتفاؤل، عزز من هالة وجود الوحش في الحياة المعيشة، وخنق كل نهوض من الممكن أن يحسن الحياة ويبعث فيها الحركة المتقنة، إذ لطالما زخرت قصص الأدب العالمي بأشكال الوحش ، حيث للتوحش مكاناً عظيماً في داخل المرء، فبتعويد الإنسان على العنف المبرح، فإن ذلك سيحيي الوحش الذي بداخله ويجعله شرساً على الدوام الوحش والظلام الذي يستشعره المرء ، ويخاف منه، ويتجلى في إذكاء العنف وممارسته على الضعفاء ، لإنتاج الوحوش على الدوام ، وما نعمد إليه في مشوار هذا البحث هو تجريب كافة المسارات ، وإحداث رؤى متعددة متشابكة تجعلنا نفهم حقيقة تطويع الوحش في الرواية للتعبير عن أثر الاستبداد في صناعة الفرد، الوحش بات في عناوين كثيرة في حياتنا المعيشة، وهو يرتدي قسوة الحياة وصعوبات فهم المرء

للآخر، فعلى المشهد السياسي تغيرت العلائق الإنسانية لتصبح مصنفة بين الولاءات ، ولتكون القيمة الطبيعية للتواصل الطبيعي ضئيلة أمام التودد السلطوي والتفاف الأتباع حول بعضهم البعض، إن هذا التغير، والتقلب في المزاج ، عزز من الاستعداد الوحشي للإنسان المندفع من تلقاء نفسه لعبادة الغضب ،باتت العلاقات النفعية سائدة محل العلاقات الطبيعية، وتعددت وجوه الإنسان المادية ، وبات أصعب مما كان عليه في زمن بساطة حياته البدائية، بات ينقاد لواقع قائم على السطوة وتمجيدها، لتكون بمثابة المرآة أو المعيار لفهم الجودة والسعي إليها، فالوحش هنا يسيطر ويستقوي على الإرادات، ويكسيها بمظاهر التفاخر والقوة، ليكون البهاء والجمال والأناقة مظهراً ناعماً من وحشية الحياة العصرية، التي تقنع بها الغالب من البشر بذريعة عصرنة الحياة والقيم، هذا يشكل بروزاً باتجاه الاستشراس في المنافسة والصراع وكذلك الاحتكار،حيث جمع المعتقلين في السجن واستقبالهم عبر ابتداع نوع من التعذيب يسمى حفلة الاستقبال، يعتبر أحد إشارات توسع معامل صناعة الوحش، تحويل الإنسان إلى مخلوق غامض الأفعال، غامض التصرفات، يقتلع الأخضر واليابس، يتشبه بالدمار، من خلال إيذاقه مر العذاب، عبر بوابة القهر والانتقام، فما ظاهرة المعتقل السياسي بطبيعتها إلا تعبير عن صناعة الوحش تضخم الرعب في حياة الأفراد يقودهم بالتدريج إلى حتفهم، وينقلهم لعالم ضيق ممتلئ بالنقمة والحركة غير المنظمة ، تعبئتهم بروح التخبط والمرض، حقنهم عبر الدين بوصفات من الإيمان الأعمى المنغمس في أوحال العنف وفهم الإيمان على نحو يشبه تعاطي المدمنين للمخدرات

- الوحش بوصفه تمثالاً راسخاً للخوف

يعبر الكاتب عن التشويق في مستهل دخوله للرواية كاشفاً النقاب عن مدى نجاعة العنصر الفني وإثارة التشويق كباعث على الجذب وفهم الهالات المحيطة لرموزه التي بلا شك تتصدر كافة المرامي المتجسدة على ساحة السرد من بدايته لنهايته، وكون ذلك يعد مثار تساؤل وفهم ، ندرك بتجلي حاجة العقل للفرار من قيود الرتابة للتوغل بعمق للمعنى الماورائي لإبراز المشاهد والتفنن في رسم طرائق التفكير وصناعة الحدث تبعاً للفكرة الباعثة على الانشداه والتحول عن طور التلقي العادي لقبول الفكرة ومناقشتها من ثم خلق سجال حولها، هذا ما يقوم به النقد حينما يعمد إلى الكشف والإيضاح لكل ما هو ملتبس وغامض، فهم الداخل وما يعتريه من قلق دائم من الموت أو التلاشي ، وانحسار القوة بغتة، بعد عهود عزة وجلد، لهذا لا نجد في المشهد الرؤيوي إلا جانباً مركزياً لفهم إرهاصات الرواية وعمقها وكذلك رموزها منها ما يخص جانب التأويل، ومنها ما يتناول أفكاراً محضة تتعلق بتلك التقاطعات ما بين الرواية والفكر، لكون إشادة الجسور بين الفكر والفن مطلباً قديماً وحديثاً للنقد يجدر الوقوف عنده ملياً حيث نجد حليم يوسف يتحدث في البداية عن ولادة سالار وعلى نحو مفاجئ له من الهالة الفنية ما يبعث على الذهول، حيث يبدأ في عرض ولادة طفل يتحول إلى طائر أسود حينما يستطيل ظل ذلك التمثال ويتمدد وإذ بالطفل يحلق طائراً في الجو، من حينها كانت علامات النبوغ ترتسم في محياه وتتألق بحجم تلك الأسئلة التي راح يخرجها من داخله الصافي مما جعل الأم تحملق في ولدها وتنتشي قلقاً فحقيقة التمثال ومشهد ولادة عسيرة رافقت صيحة الآذان ،جعل المشهد يكتظ بصراع عميق الكنه بين رموز السلطة والدين وحالات الولادة العسيرة التي تتوجت

بولادة سالار تلك، هل كان ذلك مبعث تساؤل مختلف، مثاره حقيقة ذلك الاتحاد التاريخي بين رجل الدين والسلطة هذا الاتحاد أفرز العديد من العلل الوحشية الطابع ، عزز من الخوف بكونه مدرسة وعلم صناعة الإنسان في شقيه المتدين وشديد الخوف من الحاكم ،عبّد الطرق نحو بروز أنظمة قوية وعنيدة تتمتع بخبرات عديدة في ضبط فوران الجماهير ،وطد دعائم ثقافة شمولية دينية تستقي مزاياها من الميثولوجيا والأوهام التي استنبطت منهاج الحياة التقويمي المفروض على التلاميذ منذ طفولتهم، قاد النخب الشابة للتفكير بكل شيء عبثي عدا الخوض في مواضيع التغيير والدمقرطة الجوهرية

ومما لا شك فيه فإن بناء الأنموذج المعرفي لدى الفرد في ظل هذا الواقع ، يحتاج لبروز مراكز تنويرية كبيرة تتواصل مع الجماهير من خلال الفن والأدب والفكر ، وذلك يحتاج لمؤسسات قوية تعمق حواراتها مع السلطة السياسية بل وتتشارك في صناعة القرار والذوق العام، دون ذلك لن تتحقق الثورة المعرفية التي تتميز بكونها لا عنفية وسلمية وتتحلق حول الصالح العام وتنبذ بطبيعتها الفساد، إن السلطة السياسية تعتبر حالة راسخة بطبيعتها، أما العقلية السلطوية فيمكن تذليلها فكرياً عبر إتاحة الفرص لكل المعرفيين والمعرفيات بالانخراط في قاعدتها من أعلى هرمها لأسفلها، ذلك يحول دون بروز التوحش، وهو ما نسميه بالبديل الناجع، حيث لا تكسر العقلية الشمولية إلا بالتدرج وعبر التركيز على تنمية العقل الإبداعي لدى الفرد ، كي يتمرس بأصول وفنون الإدارة منذ طفولته.

-متاهة السلطة والمجتمع المغترب

التفكير خارج التمجيد والإذعان للسلطة بات شيئاً صعباً ، حيث يظل العقل الإبداعي للمعرفية والمعرفي منشغلاً في طرق التخلص من أورام السلطة ورواسبها على الذهن، لا انفكاك جلي عن أزمة التفكير الحادة والتي يعيشها الإنسان المنعزل في مداراة تساؤلاته والحد من تسربها للكوامن لتكون دافعاً خصباً للتمرد والانتفاضة فيما بعد، حيث التشاؤم والكآبة يمثلان الوجه العام للحياة، مما يفرز عن خضمها ضياع الإنسان الشرق أوسطي في بوتقة التجهيل، والاستسلام فيما بعد لنمطية فكرية مبتذلة تنم عن كسل روحي وذهني لا يتم تخطيه إلا بصعوبة، فالربط بين الأديان والاستبداد منطقي جداً ويعبر عن توأمية فيما بينهما أراد حليم يوسف بيانها هنا: ص 28: حدقت الأم في عيني المرتبكتين غاضبة، وهي تلقي نظرة باتجاه أبي لكي يلفت نظره إلى الأسئلة المحيرة والخطيرة التي تشغل بال ابنه غريب الأطوار: – ,, ألم تنتهِ بعد من أسئلتك العجيبة سالارو؟" رددت عليها بحدة أفصحت عن جديتي في طرح مثل هذه الأسئلة ، على عكس ما كانت تتوقف، في ما إذا كان الرئيس أيضاً يذهب مثلنا كلنا إلى المرحاض، وهل في هذا السؤال ما يريب؟ يمكنك الإجابة بنعم أو بلا ، بدل الزعيق والصراخ، وعندما احتدت المناقشة بيننا، نفد صبر أبي وتدخل بيننا محاولاً إنهاء الأزمة التي تستفحل بيننا كلما طرحت

,,. أسئلة تتعلق بالله أو بالرئيس

إن استنطاق النصوص الأدبية فكرياً يعد بمثابة مسار رؤيوي أكثر فعالية في الحديث عن ذلك الرهاب السلطوي المفروض على المجتمع والأفراد منذ نشأتهم، إن الولوج للأطوار الأولى يساعد في فهم أساليب الإخضاع وبرمجة العقول على الانفعال والاستياء لأي فكرة تسعى للذهن بعفوية، إن علاقة الاستبداد والدين

علاقة توأمية حيث هنالك تقاطعات عديدة وحوادث يرويها التاريخ العابر للمفاهيم والقارات ، يخبرنا عن أطوار التمزق العائلي تبعاً لمفرزات السلطة الأبوية ، وميراث الذكورية هائل ولا يمكن التنصل منه بسهولة، ناهيك من أن المرأة الآن في الشرق الأوسط منقسمة لقسمين، فئة تصون ميراث الذكورة وتتعصب له أكثر من الرجل ذاته ، ومثاله المتدينات المتصلات بإرث التعاليم السماوية، ناهيك عن أديان أخرى اعتبرت الرجل المخلوق الأكثر تجلي وكمال، الفئة الأخرى والتي يمكن تسميتها بالفامينية وهي قوة ناشئة وتعتبر أقلية في صناعة الرأي الأنثوي المعاصر والذي بإمكانه أن يهيأ المناخ لاتحاد وشراكة نوعية مع الرجل، إزاء ذلك الاضطراب العالمي، لا نجد سوى غبناً يمارس على المرأة يؤثر سلباً على الرجل في آن ، ويضعه بمواجهة الضغط الاحتكاري وكذلك يقوده لحروب عسكرية وأزمات اقتصادية شتىإن احتدام الجدل بين الرجل والمرأة في الأوساط المحتقنة سياسياً واقتصادياً ، قاد إلى إفلاس إنساني على صعيد العلاقة التشاركية، ووطد من دعائم مقولة (1)سارتر : " الجحيم هو الآخر" لقد بتنا نشهد جحيماً في هذا التواصل، أشار إليه حليم يوسف في روايته الوحش الذي بداخلي، حيث تطرق إلى الشق المتعلق بالعيش داخل النظام الشمولي ، الذي يعتبر الحزب قائداً للدولة والمجتمع، وقد تعرض للشق الأوروبي المتعلق بنمط الحياة الأوروبية، فالرفاهية الاقتصادية ، قادت العلاقة التشاركية إلى نوع من الخواء وانعدام التآلف، بسبب سيطرة العقل المادي على نمط الحياة الإنسانية،إن تفعيل الخطاب المعرفي المستند على التوافق الروحي المادي ، يعتمد على الحب والمعرفة ليحل بديلاً عن الخطابات الدينية وكذلك الشمولية بشقيها القوموي أو اليساري، هو الحل الذي لابد من التسليم بمقتضيات العمل به، وهو الطريق الأسلم لمواجهة هذا الكساد الروحي الذي قاد المرء إلى الكآبة والتبعثر في ميدان الحياة

محورية الذات أمام متغيرات المحيط

إن النقد لدى حليم يوسف كائن حي ومحوري في النظر للنظام الاستبدادي البعثي كشر أعمى، لهذا نجده يعمد لتقديم دلالات لكفاح الجماهير ومراحل نمو انتفاضتها ووقوفها بوجه هذا التشويه الحاصل، الذات المتأملة هي الواقفة بمظهر المنقب والمدرك لطبيعة الحياة وطرائق تفكير الناس وأمزجتها ، كذلك نواياها، حيث تقدم الرواية تساؤلات ذاتية ، وتظهر البطل على أنه المحور، والغاية في ذلك تسليط الضوء من بوابة الذات المتبصرة على مشكلات العالم ومعضلات التأقلم، لإيجاد شخصية قادرة على فهم الوجود كونه مساحة تحتاج لبراعة نشدان الحياة وممارستها بصورة جيدة ومتشبثة بقيم الجمال والأصالة، في هذا ينسج الكاتب العالم الموضوعي بفنية ذاتية تأملية، حيث يعتبر الحراك النقدي بمثابة ردة فعل على طبيعة النظم الشمولية بشقيها الأممي والقومي، حيث رواية الوحش الذي بداخلي تسير وفق مسار نقدي محض يعمد لكشف العلل والعيوب التي أربكت حيوية المجتمع وزعزعت أمن العائلة وجعلتها في حالة فزعإن خنق النقد عبر تربية ذهنية السلطة واحتقار الإنسان، منهج فساد دأب نظام البعث السوري على تربيته طوال عقود في الجماهير، ورعت الأفراد من خلال أدلجة المناهج ، جعل النمطية بمثابة الخبز الرئيسي للحياة، حيث ميزة المواجهة ومصارحة المرء بالحقائق الكامنة في الداخل يعد ثيمة أساسية يقوم عليها نسيج الرواية النقدية ، استعباد الأفراد باسم المثل والثورة وتغيير المجتمع، أسهم في خلق الاضطراب بصورة بائسة، وباتت المناهضة المضادة أشبه بدوران في ذات المكان، السبب افتقاد الجماهير للحركة الواعية والمنظمة، وتحولها عن

وجهتها في نقد مرؤوسيها إلى تمجيدهم وجعل قيمتهم بقيمة الوطن، هذا التحوير للانتماء شوه الحياة الفكرية أيضاً ورسخت الاغتراب في الأدب، فيما لو نظرنا للرواية بكونها الوعاء النموذجي للمتناقضات الاجتماعية.ثمة فريق استسلم لإملاءات السلطة ، وبات بوقها الرصين، ينضوي تحت تلك السلطة جمهور متملق من الأدباء والفنانين والحرفيين ، حيث أسسوا لمنظومة فكر وأدب تلك السلطة ولم يحيدوا عنها قيد أنملة، مقابل تلك الفئة التي لم تقبل أو تخضع لضغط ومغريات تلك السلطة، فنجد أنهم قدموا شيئاً مختلفاً عن ما قدمه الفريق الآخر على الضفة المقابلة، حيث لا يمكن نسيان ذلك الفرق في الاتجاهات التي منها ما هو مؤيد وداعم لبقاء واستقرار نظام سلطوي معين من اتجاه آخر يناهضها، إن لذلك دوراً في تسوية وتنمية الأفكار والادعاءات، وتعمل على تغذية خيال الجماهير ، من هنا نجد التباين بين نظرة الموالي للسلطة للدين والمعارض لها ، فنشهد ربما منهجين أو أكثر، ذلك ما ينطبق على مفهوم الأمة والوعي القومي، إن هذا التقسيم وضعته السلطات لتمييز مصالحها ومنافعها عن الفئة التي تتقاطع معها وهكذا

فيما لا شك فيه فإن الآداب والفنون تتأثر بعملية التصادم السلطوي ، هنا يمكن القول أن المعرفيين يقفون بعيداً عن إملاءات السلطات وضغوطها، ولا يبتعدون تماماً عن المشهد إلا على نحو لا يخدش نزوعهم المجرد والمحايد باتجاه تنمية الأفكار الجديدة سواء اجتمعت مع السلطة أم ناهضتها, هنا يمكن تمييز المبدع الصالح من الطالح ، فالمعرفي الحر يدخل في الصراعات بعينه لا بعين السلطة أي الممول،ويبحث دوماً عن خيارات تدافع عن الجماهير والأجيال.

إن ممارسة الفلسفة ليست ضرباً من ضروب الاعتقاد بممارسة الخيال وما ينبغي أن يكون فحسب ، وإنما هي مراجعة لتقاليد السلطات في حكم المجتمعات، وتعمد

إلى الفحص والتنقيب والمراجعة استناداً لطبيعة الصراع الطبيعي وضغط الطبقات وتصادم الفئات الاحتكارية التي تحاول احتكار المنافع وتقدم على فعل كل الأضرار في سبيل بقاء نفوذها حيث أبدع الكاتب في رصد الجوانب النفسية في حديثه عن المكان ، الزمان، وملامح القامعين للجماهير عبر بث الخوف ، متخذين من القائد الرمز ، وثناً فاعلاً، قادراً على إيجاد شرائح نمطية لا تعي شيئاً خارج التسليم بعبقرية الفرد السلطوي، طالما سلاح الخوف بيديه، إذن لتذهب الإرادات المعرفية للجحيم، هذا لسان حال الماثلين في حضرة التحقيق، والخائفين من حفلات التعذيب والتي يتمتع بظلها معتقلو الرأي بمزايا مستثناة عن المجرمين وأصحاب الجنح ، في أن نصيبهم من العقاب أكثر فظاعة، يلعب تجسيد سحنات الأشخاص دوراً محورياً في تحريك مستويات الأفكار لدى المتلقي، حيث المسدسات السوداء ، والممشطي الشعر، لديهم ذات أساليب الاقتحام والمداهمة وخلق زوابع الفوضى، الكارهين للكتب ومن يقرأها ويقترب منها، ممن يبرعون أيضاً بالسباب والإهانة والصفع، وما إلى ذلك من أساليب تخرج الوحش الذي في الداخل عنوة، لقد عززت السلطات الشمولية من منظومة الظلام ، حيث أنها خنقت لدى الفرد مواهبه ومدركاته ، وجعلت أنظاره تتجه فقط للتمجيد وعبادة الخوف والرهبة، وكذلك الركون لممارسة نوع من السلطة المصغرة داخل منزله لنتأمل هنا : ص 41 " كسر المعلم حجر الصمت الثقيل بسؤاله:

" لماذا تربون أبناءكم على كره هذا الرئيس الذي تعيشون بفضله ، وعلى العداء لهذا الوطن الذي يأويكم ياحجي كلب؟ هل لديك تفسير لهذه الخيانة ؟-"

جاوبه الحاج بانكسار متمتماً:

" نحن لا نكره الرئيس والعياذ بالله يا سيدي" ؟

:واستشاط المعلم غاضباً

ولماذا لم يحضر ابنك المسيرة، رغم أن مدير المدرسة، نبّه الجميع على أن الحضور إجباري وأن من لا يأتي سيعاقب وتوجه إليّ، أنا المقهور والمرتجف خوفاً من المعلم مرة ومن غضب والدي مرة أخرى أحسست بنفسي عارياً ونادماً على استهتاري بأوامر المدير وبتبعات أفعالي على أهلي :

– لماذا غبت عن المسيرة يا حيوان؟

السؤال هنا هل يمكن إزالة مفاهيم السلطة في اللاشعور الجمعي، بمجرد ظهور إدارة أخرى ، وهل يحل المسألة بروز تنظير إيديولوجي بديل عن السلطة السابقة، أم أن تلك السلطة الجديدة لابد وأن تبقي على عوائد السلطة السالفة كون النفوس تستسيغ نمطاً من الحكم يصعب الفكاك منه، إلا بعد سنوات من التدريب والتأهيل، ثم أن ثمة سؤال أكبر، أي سلطة يمكنها تحقيق الرفاهية في الحياة لمجتمع خرج بالأمس من سيطرة النظام القومي، هنا يجيب حليم يوسف ، مشخصاً الحالة انطلاقاً من عقم المعرفة الذي سببه نظام البعث وفكره الصلف، المحقق ينظر للأب ، الحاج محمود ، والحاج محمود ينظر بحنق للابن ، كونه لم يذهب للمسيرة، لنتأمل هذا التسلسل الهرمي الذي نجح الكاتب في بيانه ليؤكد على قدم العلاقة بين نظام السلطة السياسية ونظام العائلة، في أنهما صنوان يبثان الاستبداد والتعسف في صميم حياة الأفراد،المتطلعين للحريات والرفاهية والتمتع بالكرامة التي تعني التبحر في الحياة ، معرفة وأخلاق،وجهداً في سبيل بلوغ التفوق.

الوحش يستقدم تعزيزات في دواخل التلاميذ وهم يقابلون لعلعة صوت مدرب الفتوة بالضحك ، وقد رمز الوحش على طرفي النقيضين الجانب المخيف، فالسلطوي يرى من يناهضه وحشاً والمعارض له يراه الوحش القائم، التمرد وسؤال الآخر، أسئلة عصية على الإجابة مرده نداء الوحش الكامن في الداخل ، سبب اعتقال

آلان تعامله مع الوحوش، والمراد بهم قوى تعمل على تغيير الواقع المتردي، اختفاء آلان ، سببه الوحوش الذين أخذوه بعيداً، زوجة المعلم آلان يبان في ملامحها القسوة فيما تقول أن الوحوش كانوا سبباً في اختفاء زوجها، اختناق الدجاج داخل حقيبة سالار، يمثل خيانته لأمه التي تصل الليل بالنهار لخدمة أولادها، استماتة حارس التمثال بالدفاع عن قوته جراء حراسته ، واستعداده لقتل كل من يحاول الاقتراب من التمثال بهدف تدنيسه، حتى لو كان ذلك كلباً، لقد أحاط حليم يوسف بدلالات الوحش بصورة مركبة ومتداخلة ، ليبين فداحة الأفكار في محاكاتها لواقع مجتمع محاصر بالعنف والخوف، غاية ذلك تحقيق التمرد الفكري وتهيئة الأجواء له، فالمجتمع في حركته وإيغاله في عيش القهر ، يلجأ لأساليب دفاعية لبيان حاجته للتغيير ، فحينما لا يتم دفع الصخرة الواقفة باستعصاء، فإن قطرات الماء المتسربة ببطء قادرة على إحداث فتق في نصف الصخرة ، على المدى غير المنظور، مما يمكن معرفة أن المجتمع على الرغم من تفاديه للصدام المباشر غير المتكافىء، يعمد إلى المخاتلة والمواربة ، بغية فتح ثغرات وفجوات يمكن عبرها التحرك ضمن مراعاة الوقت والمكان ، يطلق اسم الوحش هنا على دلالتين متناقضتين ، الوحش الذي يمثل السلطة الاستبدادية ، والوحش المقابل منه ونعني به التمرد المناهض وكلاهما في عرف الكاتب يعتبر خروجاً عن جادة الهدوء، فالتمرد والقمع صنوان وهما مجاوران عبر الزمن لبعضهما، حيث يتحطم نظام قائم على يد حركة تدعي أنها البديل الأفضل، وفي النهاية يمارس الإنسان التوحش دون وازع، وتختلف المبررات الجمة لممارسته ، ولا يدخر أي خطاب يعزز شعبيته وتأثيره على تلك الوقود الجماهيرية ، فهي المادة الرئيسية لكسر رهبة السلطة ، وثمة نقطة جلية يمكن بيانها بهذا الصدد ويتعلق بطرق الاستشراف لبروز هذا الوحش "الثورة" حيث استشرف فولتير (2)

الفرنسي ما قبل وفاته 1787 عن قيام ثورة ما حينما قال : ,, إن الشباب سيكونون أسعد حالاً لأنهم سيشهدون أشياء بديعة جميلة، الفرنسيون يأتون متأخرين دائماً، لكنهم يأتون في النهاية" نجد أن معنى التوحش مجازي هنا في الرواية ، إذ يشير إلى حالة الصراع ، حيث اختفاء المعلم آلان ، ومجيء بديل عنيف وهو استاذ آخر يتصف بالعنف تجاه التلاميذ بمثابة عامل مستفز يشير إلى حتمية الاستعداد والتأهب لمواجهة خطر الاستبداد الذي يعتبر الوحش الأكبر ، الرواية تنال من ممارسات السلطة، تعريها ، تسلبها بريقها وأبهتها ، تكشف الإشكالات لتبين إمكانية مناهضتها ومواجهتها بمنطق الجماعة المنظمة لا الفرد المتحمس لصناعة المصير الجديد، لهذا نستطيع التنقيب عن روح الأفراد في كيفية مواجهتهم للسلطة الاستبدادية.

نلحظ تحدث حليم يوسف عن أفرع السلطة الممارسة في الأقبية الأمنية ، المدارس "حصة التربية العسكرية" تعامل الأساتذة عبر العنف مع الطلبة ، وكذلك تعامل العائلة مع الأبناء،حيث أن ميداني التربية والتعليم باتا بمثابة السلطة الأقل فاعلية والنقطة الأضعف مقابل هيمنة السلطة الأمنية، هنا يبدو الفرد منذ طفولته محاطاً بقوقعة كروية تحيطها السلطات في كل مكان ، نجد متانة الجهاز القمعي للدولة القومية ، بمقدار ما نجد في الآن ذاته ثغرات عديدة ، تتمثل في رحابة صلاحيات قمع الناس من قبل المسؤولين الكبار ممن يمسكون بزمام الأمور، حيث ينشؤون ولاءات خاصة بهم ورجال يقومون بالتغطية على سلوكياتهم وموبقاتهم ، والنقطة الأهم التي ارتأى حليم يوسف في بيانها متعلقة بكراهية رجال الدولة للشخصية المعرفية المتجسدة في المعلم آلان واللجوء لاعتقاله واقتياده للمجهول على الفور، وهذا لا يعني أن رجل السلطة على علاقة قطعية مع الفئة المعرفية الخاصة بتنفيذ مآربه، ممن يمكنه من حظر

المعرفة على الجماهير ، حيث في عرف السلطة ثمة معارف تتيح لها عبرها زيادة الهيمنة على الناس ومعارف تجعل الناس تتحسس عظم مصائبها وفواجعها، ثم تقوم بالتحرك محاولة انتزاع حقوقها، حيث نتأمل تخلف الإعلام لدرجة منع "الستلايت" في التسعينيات لغاية أواخرها، في عهد الرئيس السوري حافظ الأسد، وكذلك لا يزال ذلك محظوراً في عدد من الدول الإسلامية كإيران،وظلت وسائل التواصل الاجتماعي كالفيسبوك واليوتيوب محظورة في سوريا ما قبل 2011، وعلى الرغم من كونها مباحة راهناً، إلا أنها لا تزال قيد رقابة مشددة في سوريا وتركيا وإيران وغالب الدول إسلامية التوجه ، حيث ممارسة الفرد لحياته الافتراضية على الانترنيت مثل تحدياً للسلطة الشمولية القومية والدينية ، حيث جعلت الشباب يفكرون بالجنس كموضوع إدماني ترويجي عبر زجهم في بوتقة اللهو والعبث وإلهاءهم عما يتصل بموضوعات الحياة شديدة التأثير والتي تتعلق بالطبالة والمنهاج الدراسي والضرائب وما شابه ذلك من مواضيع ساخنة، نجد أن الرقابة على الكتاب أيضاً، جعلت الكتّاب في حالة من خوف دائمة عبر عجزهم عن قول ما يريدون ، إن للسلطة القامعة أثراً سلبياً على تطور الأدب والفكر ، حيث ينجم عن ذلك القمع المتواصل نشوء فرق زهدية تعتكف بصمت في الأروقة الخالية ، محاولة الاستمرار في صمتها المطبق وتصريحها الخجول في نعت السلطة بالوباء، هذه الحالة من الزهد عمت جموع المعرفيات والمعرفيين ، إذ لا يجدون عزاء نفسياً يساعدهم على قبول الواقع والتعامل معه بما هو متاح، فيغوص الشعراء في الشعر الرمزي، ويغوص الفلاسفة بما هو بعيد عن واقع مجتمعاتهم بعيداً عنها ليقوموا بإنشاء مناخات لا يمكنها أن تردع الألم المعاش على نحو مباشر ، حتماً في ظل السلطة البعثية لن نجد سوى فريقين متناقضين ، أحدهما غارق في الإرتهان بمغازلة السلطة

ومديحها والأخرى تعيش في حالة من الجنوح باتجاه تناسي حقيقة الحياة وما يتضمنها من سكوت عميق واستماتات كثيرة في كي الجرح

تنمو قصة الحب ما بين سالار ومريم لتحيل انتظار مريم لزوجها آلان إلى سراب في إشارة إلى استمرارية الحياة ومجابهة الطغيان عبر الحب وما قبل السفر كان سالار على موعد مع الحب ، أساريره مبتهجة ، وروحه تسرح في فضاء العشق، أراد الكاتب أن يفتح مساراً جديداً يخلص كل من مريم وسالار، من حالة الوهن والإحباط التي سيطرت عليهما، وقد استطاع البطل هنا التحرر من تردده وخوفه، وبادر إلى طرق باب قلب مريم من خلال رسالته التي دستها الأخيرة في جيبها بكل لطف.

- لغز تمثال الرئيس

حقيقة التمثال ، رمزيته مبعث تساؤل بلا ريب ، ففي رواية خوف بلا أسنان نجد التمثال في أوج شموخه وبعثه للرهبة في النفوس ، إلا أنه هنا يعتبر مناهضاً للفنون والموسيقا والاجتماعات العفوية بين الأصدقاء، إن الفنون في ظاهرها تشكل عماد بقاء الإنسان في صفاء وتأمل وفي باطنها تجسد تحدٍ لوهم الخوف الذي تفرضه السلطة الشمولية في العقل الباطن للجماهير، فالحقائق المعرفية وليدة الفرضيات الخيالية ، إعمالهما في مواجهة الرعب والعنف يوطدان الثقة بالكيان لدى الغالب المسحوق ، لهذا أمكن لنا تعريف النهضة المعرفية بكونها سلاح الفكر الحقيقي ، تنظيم جهود المعرفيات والمعرفيين يعود ريعه للجماهير بكافة شرائحها واتجاهاتها ، لكن لا بد من إيلاء المبدعات والمبدعين مكانة خاصة تتمايز عن سواهم كونهم يشكلون بديلاً طبيعياً وحتمياً لكل الوصوليين ممن استخدموا الفساد والبطش كوسيلة بقاء ، فكسر رهبة التمثال ، عملية لابد من القيام بها أفراداً وجماعات، ، فاتحاد المعرفيات والمعرفيين الكبير يمكّن

الناس من الثقة بنفسها وقدرتها على الانتظام وتكريس جهودها المدروسة والهادفة إلى تغيير الحياة وتأهيل الذين لا يتوانون عن تشويه منجزات الإنسان العاقل، وحيث أن اللغة الموضوعية تتجه دوماً لمخاطبة الذكور دون النساء ، وجب التأكيد أبداً من أن الإتحاد المعرفي لا يتشكل أو يتكلل بالنجاح دون وحدة النبوغ الفكري الذي ترفع بنيانه المرأة إلى جانب الرجل، دون التفرد بالخطاب الذكوري المتجسد في أساليب اللغة، وأدواتها الاشتقاقية التي تتوجه للرجل بكونه المهيمن العضلي، فالأهم في هذا الصدد أن ننظر بأن تثبيت منجزات الإنسان العاقل في كل ميدان سيسبقه أو يليه محاولات التأهيل الفكرية للفئات العنيفة أو التي ارتكبت أفعالاً إجرامية أو المغرر بها دينياً أو قومياً ونعني بهم الجنسين، عالم الرجال والنساء على حد سواء، حيث أن انحسار تنظيم الدولة الإسلامية كمثال قريب خلّف الآلاف من الأسرى، أخصهن النساء اللاتي يعتبرن المركز الإشكالي والقادر على نقل إرث التطرف للإطفال وبأمانة، لهذا بات ضرورياً تأهيلهن تربوياً وفكرياً وعبر مراحل، لغاية مرحلة التشافي، فانتقال التمثال من حالة لأخرى ومن سلطة لأخرى ، من منهج مستبد إلى آخر متطرف لا تتوقف وتستمر ، وبالمعرفة وحدها تتحقق الغايات الأولى لمسيرة الإنسان الحضاري والمرأة المعرفية في تحقيق نظام تنموي تشاركي عماده إحياء الإبداع في الحياة، والتوزيع الأفضل للموارد عبر مؤسسات عمادها سلطة النخب المعرفية المتحققة باتحاد جنسوي واعد بمستقبل أفضل.

إن الثورة عمادها الحب، وتتم عبر مراحل يتشارك فيها الجنسان صنع مفهومها وفكرها، أراد حليم يوسف أن يبين عبر الحب الذي أخذ ينشأ بين زوجة المعتقل آلان وبين سالار، وحبس الأرواح داخل السجن ليس بالأمر الصواب، إذ لابد من الاستمرار بالتحدي، العاطفة وإحياءها تمثل شكلاً متميزاً من الأمل، يدفع الإنسان

لاستكمال حياته، بصورة أكثر حيوية ونشاط، لا حل خارج معادلة التشارك هكذا يمكن نشدان الاتحاد الجنسوي كخيار معرفي بمواجهة قوى السلطة وحربها التجهيلية ضد المجتمع، حيث تمثل السلطة في مظهرها العبودية في أقصى حالاتها، وأن الدفع بالحركة المعرفية قدماً يتم بتشاركية الجنسين في ظل الحب، لمحاربة الفحولة السلطوية المتمركزة في صلب العادات والتقاليد والمؤسسات الأمنية، أدرك حليم يوسف أن الوحشية السلطوية والوحشية العائلية في جوهرها واحد، وإن أي مواجهة مع السلطة لا تتم على نحو أفراد أو بقرارات أحادية محدودة وإنما تتم من خلال تمكن الإنسان من تجاوز الصدمات والتعايش مع الأمر الواقع، التفكير بمناهضة هذا الظلم وتأسيس بذور تآلف حقيقي ودافئ يدفع الأفراد المستنيرين للانطلاقة الحرة والمدروسة، فالذكورة بحاجة إلى ربطها الرمزي بمفهوم النبل، أكثر من ربطها بمفهوم الفحولة، حيث الذكورة المبتغاة معرفياً تعني اللطف والوداعة في الإقبال على الجنس الآخر، والأنوثة المعرفية تعني الإستجابة الواضحة لإيحاءات الحب ودعواته للتشارك الحقيقي الذي سيقضي بدوره على بذور نظام السلطة الشمولية ويمحي آثارها السلبية المتجسدة في جملة تقاليد وعادات مرتبطة حكماً بالإسلام السياسي.

إن التشاركية المعرفية حسب "الحب وجود والوجود معرفة" تقف على النقيض من خيار الحركة الفامينية، وإنما تسعى أبداً لبث البذور القوية لإنتاج نهضة تتحقق باتحاد الجنسين، دعا حليم يوسف إليها في أكثر من موقف في رواياه، حيث ظل سليمان في سوبارتو يسعى لنشدان علاقة ناجحة مع توأم روحه بلقيس، وظل خيار ماسي مع برفين هو نشدان لعلاقة طبيعية صافية لا تنضب وغايتها تحرير الوطن بتحرير المجتمع، كما ظل خيار آزاد أبداً في مد الجسور ومحو ما يتصل بسوء الفهم في رواية 99 خرزة مبعثرة، هكذا يمكن فهم الكفاح المعرفي في

روايات حليم يوسف أنها مساعٍ لا تتوقف في خلق التشاركية الجنسوية بين الرجل والمرأة ، للحد من الهيمنة السلطوية المستمدة في الأصل من هذا التعاقد المشين ما بين رجل الدين والسلطة بمباركة من رب المال، فبوصول النخب المعرفية القوية إلى الحكم، نستطيع أن نقول بوجوب توطيد معالم نظام حر يقضي بصرامة على أنظمة الحكم المذهبية ذات الصبغة القومية ، عبر إحياء مجتمع المعرفة القادر على ألا يبرح أجهزة الإدارة بل يلازمها ويصحح نواقصها ، حيث تعتبر اللوبيات المجتمعية شكلاً متمماً من إدارات المركز، ولازماً ضرورياً لتطويرها حسب مقتضيات مصالح الجماهير ومنافعها.

يتابع سالار معزوفته العاشقة ، رغم تبدلات الأمزجة واختفاء البهجة وقد استطاع أن يجعل من المقبرة مكاناً مثالياً يليق بالحب ، حينما التقى بمريم وأخذ يقبلها بنشوة استيقظت منها مريم على حين غرة، ولم يك تراجعها إلا تفاجئاً بعقار الحب الذي راح يسد ثغرات الانتظار ، فالحب يمثل الأمل في محيط عزف عن الحب وانشغل بمحاولاته اليائسة في ترويض وحش الكراهية في النفوس ، لكن عبثاً فحرب السلطات ضد روحانية الشعوب ومحاولتها الفاشلة في ترميم ما يتهدم باستمرار ، أربك كل دعائم الاستقرار والأمان ، وجعل الفئات المدركة لفداحة الواقع تذهب باتجاه خيارات عقيمة ومتعبة ، إما المقاومة أو الهروب، أي الخروج القسري، وبذلك تتعمق الهوة بين الجماهير والمنظومة السياسية والتي بدورها تسطو على ميادين الحياة ، وتسرع في إشادة نهج الفوضى والذعر بين الفئات المهددة بأمنها واستقرارها النفسي ، فالعالم النمطي هو المبتغى من فكرة القمع المتصادعة ، خلق حياة راكدة جامدة ، من غايات الذهنية الشمولية ، حيث تفسخ البنى الانتمائية للناس يمثل عامل ديمومة للسلطة وضمانة لرسوخها، حينما تتحول كافة الشرائح المتنفذة إلى قوات محلية تخدم روح

العنصرية وضمانة لرسوخها، حينما تتحول كافة الشرائح المتنفذة إلى قوات محلية تخدم روح العنصرية والشوفينية التي تنتجها السلطة ، حيث تمثل تلك الشرائح نواة بائسة تعيد إنتاج ذات السلطة، لهذا حرص حليم يوسف على فهم الوحش، لأنه يخشى من المتنورين والعاشقين على حد سواء، لأنه أنموذج يتناقض مع نظام العبودية والإذعان وبدوره يسهم في خلق بيئة مغايرة ، حيث كل مشوه يستمد سطوة ولوجه للأعماق من خلال السلطة الاستبدادية.

إرهاب الدولة ودورها في صناعة المجتمع الخائف

رسم الكاتب الخطوط العريضة لإرهاب الدولة وأثره على المجتمع، وذلك الخوف الكبير من الحديث خارج سياق تمجيد القائد الفرد، بث الرهبة في أعماق الفرد، وإخماد صوت الحرية في داخله، تحويله إلى فرد معاق، فكما أن البشرية قد شهدت منذ القدم عهود القتل والنهب والرقيق، فإن الدولة تقوم بذلك عبر نظامها وتمجيدها للقائد السارق بوصفه نبيلاً عظيماً ومفكراً ، فالحرب بهذه الطريقة تتم على المجتمع، وتنصبّ في نقطة زعزعة مواضع الثقة بين الأفراد، لقد زرعت الدولة البعثية أجسامها السامة بين المجتمع، وزرعت مناهجها في عقول الأطفال، وبهذا فإن من ربيوا عبر سنوات على دعاية البعث وفكره المتعالي، لن يكون بوسعهم قيادة ثورة ضدها، ، وإنما يلزمهم أولاً الخلاص من التعالي القومي أولاً وتشرُّب قيم المدنية المعاصرة والتي تلزمهم بخلق أجواء الرفاهية والتعددية العرقية والدينية، وهذا لم يعد متاحاً وممكناً في ظل الفوضى التي بعثرت كل شيء وخلقت بيئة خصبة للإرهابيين والمرتزقة الذين تجمعوا من كل صقع ليبثوا أفكار الإسلام السياسي الواهنة مكان سلطة البعث الحاكم، فقد اكتسبت السلطة البعثية كل مهارات التعذيب في سحق ثورة المعتقل السياسي ومحاولاته في التغيير واستمدت كل تلك الوسائل من هذا النسق التاريخي في قمع النظم السياسية للجماهير والتحكم برباطة جأشها وصبرها، فيتحدث حليم يوسف عن تظاهر الناس بالحزن خوفاً إبان رحيل حافظ الأسد، حيث الأعلام السوداء في كل منزل تعلو، تظاهراً بالفجيعة، وحرصاً على الأفراد من عيون الدولة التي لا تغمض أجفانها عن الناس، وتدأب على مراقبتها عن كثب لخطوات المتحركين

لغاية البحث عن البدائل وفي كثير من الأحيان يلتقي الظالم والمظلوم في فرد مناهض، فيلجأ إلى تبرير إرهابه من خلال شرعنة حركته الاحتجاجية المفتقدة لمنهجية تتسم بالرحابة واحتواء الانتماءات المتعددة، فميل السلطة القمعية لإماتة الحياة في ذائقة الجماهير يعبر عن تصالحها مع التاريخ الوحشي لدرجة بالغة الخطورة، حينما تحيي جانباً متصلاً بالتاريخ القديم في تأليه القائد وتنصيب تماثيل له في الأروقة والساحات العامة ،فالعديد من الصور والأقاويل المكتوبة على الجدران لن تستطيع جعل القائد صرحاً تنويرياً وإنما لطخة سوداء في تاريخ البشرية ، حيث ذلك الاستبداد الذهني الممارس يومياً يجعل الثقة بالمدارك والعقول صعبة إثر الخوف ، إذ لا حاجة أن يفكر الفرد بحضور القائد وبقاءه وكيلاً على الفن والفكر والجمال، فتربية النوازع العدوانية وتغذيتها بأسباب التذمر والنفور يعتبر من عمل السلطات الشمولية حين تبتر ما يتعلق بالتفكير النقدي لصالح التسليم بأصالة وسمو القائد الملهم، لتحيل كل غرس أخضر إلى يباب، فالعنف يلبس الحركة دوماً ويستدعيه بالمقابل عنف مضاد، إذ يتصل العنف بكل شيء وأحد أرقى أشكاله هو القانون الملزم، حيث يتصف القانون بصرامته وبوجوب قوة تفرضه وتدين من خلاله المقصرين والمتجاوزين له ، فالرهبة متداخلة في طبيعة العلاقة بين الأفراد والمنظومة المديرة للمؤسسات إلى جانب التفكك الروحي للجماهير والتي قادت الجموع نحو الفوضى، فالسلطة الشمولية خلقت في أوساطها مدّاحين ، يكيلون المديح خوفاً من القائد أو تمنياً من أن يسقط تمثاله بين أقدامهم، حيث بدت الحالة الكوردستانية في ظل النظم المحتلة لكوردستان تبعث على الذهول والإحباط، حيث قاد القمع التنظيمات المعارضة للتنازل عن حلم إقامة كيان حر ومستقل إلى مطلب السماح بالتحدث باللغة الأم، أو التخفيف عن عزلة أصحاب الرأي وليس العمل على إخراجهم من أسوار

المعتقلات ، كل ذلك نتيجة تحجر تلك السلطة التنظيمية وارتهانها للنظم الإقليمية ، فحيثما يتواجد المغفلون ، يتواجد المستغلون، إذ لا شيء يحبط الإرادة الجمعية والفردية سوى شيئين وهما الفساد والتعنت، حيث نحد بهذا الصدد أن المناهضة الفكرية لسلبيات وسلوكيات الجماهير أفضل من الوقوع في فخ الندية والعراك الانفعالي، في ظل خطورة الجدل نسبة لوجود تقاليد سلطوية أشبه بالنظام القمعي الدولتي، تكبل الأفراد وتعمل على إقصاء مبدعيهم ومبدعاتهم، فلا يمكن مجادلة رجل دين شرق أوسطي أو متحزب شمولي، لا ير أبعد من إيديولوجية حزبه، إنهما يسيران على خط واحد وهو المحافظة على التصوف، حيث أن رجل الدين والحزب الشمولي قضيا حياتيهما في المحافظة على روح الأبوية العائلية، وأسهما بتحوير ذائقة المجتمعات وإخصاءهما عبر التاريخ، وقد استطاعا في كثير من المواقف تحويل الجماهير إلى مصفقين بحكم الخوف أو العادة، وثمة معرفيات ومعرفيين قضوا في كنف الدين والحزب ردحاً من الزمن وخرجا بحقائق وأسس احتجاجية ناجعة كخيار بديل لفهم الحياة خارج مزاريب مفهوم إن لم تكن مع فأنت ضدي أو إنك متآمر مأجور في كل الأحوال، ولا شك أن المعرفي ساعٍ لمعرفة كل شيء الواضح منها والخفي في آن، ولا يحسن خداع نفسه والآخر ، كونه غير انتفاعي ولا يعني أن رجل الدين أو الحزب جاهل، كلاهما في المراتب العليا للقيادة يدركان ما يفعلان وعملهما دؤوب يصب في إطالة عمر التجهيل الممنهج ، فالنص الديني المقدس أجاد في رفع سوية الحالة الروحانية للجماهير التي تعاني من سطوة الخرافة ، فقد أتى التقديس الديني من خلال أنسنة الله وتأليه نائبه "النبي" أو نائب المسيح "البابا" ونائب النبي "الشيخ ، أمير المؤمنين وجاءت الاشتراكية المشيدة، وجموع الأحزاب الشرق أوسطية " الكوردستانية" لتستفيد من التقاليد الدينية في منشأها وتمزجه بخليط الفكر اليساري بشقيه "

الماركسي" أو "القومي الاشتراكي" وتمت تصفية وإبعاد العديد من المعرفيات والمعرفيين الساعين للتغيير ، وقد أنشأوا نظام علاقات تعتمد على تربية التصوف والمحسوبية وتقوية الجاسوسية في أوساط أتباعها، وقد وجدوا في وضع الهالة على مؤسس المجموعة إسلوباً يزيد من ارتباط الجماهير التصوفي بها، حيث أن ثالوث تأليه القائد وتهميش الجندي واستغباء القطيع رسم تقاليداً راسخة باتت إرثاً عقائدياً سميكاً كهالة تأثير الدين على النفوس، عبّر حليم يوسف عنه في رواياته ، وإن كان يتطرق في هذه الرواية لموضوع عميق الكنف وهو الخوض في دلالة الوحش.

إن الأخلاق موجودة بالغريزة داخل الكائن الحي قبل وجود الأديان، والوطن هو الأرضية الخصبة لإنتاج الحياة وارتباط القائد بالشعب والعكس أربك من إيمان الناس بالرقعة الجغرافية وثمة شواهد كثيرة عبر التاريخ ، تبين حقيقة الحروب الأهلية والثورات نتيجة احتكار السلطة للوطنية وجعل القادة أوطاناً والأوطان مسارح تعذيب واعتقال وقتل، حيث لا يناهض المعرفيون التحزبية المؤسساتية ، فهي منظومة عمل وإنتاج ، ولكن دحض المتألهين أعداء التغيير ، يصب في خدمة المجتمع وتماسكه، وهو واجب حضاري، لصون ملكات الفكر والجمال والإبداع وكذلك تطوير أساليب الخطاب بروح تعتمد النقد والمصارحة الفكرية، وبالنظر لرواية الوحش الذي بداخلي يمكن فهم الحالة الكورديانية على أنها في كثير من الأحايين ونتيجة ذلك التعاقد المشترك بين السلطة الحاكمة والتنظيم المناهض، أي التشابه في الأدوات وأساليب الطرح نجدها أكثر ميلاً وذهاباً باتجاه منحى الانصهار الطوعي بالتركياتية والعروبة والتفريس، والانسياق دون وعي للتقولب الشمولي في متاهة عبادة الفرد وهذه من علامات تجهيل وإخصاء الجماهير ، وهذا القول لا يلغي المزايا الحاصلة صدفة داخل تلك المؤسستين

الدينية والحزبية الشمولية التي كانت استجابة عفوية لحالات الضياع والعبودية الحاصلة على أشدها وذلك إبان تأسيسها وفق ضرورات المرحلة، كما في حقب بدايات القرن العشرين في قارات العالم القديم ، فنجد أن الفكر القومي الإلغاءي والإسلام السياسي المذهبي قد قوض معالم الحياة الديمقراطية لدى شعوب الشرق الأوسط لهذا وجب التعامل مع القضايا كحقائق وأرقام ومكاشفات وهو الأنجع لكسب ثقة الجماهير بقياداتها وتنظيماتها، حيث أن إحياء خطاب الثمانينات الثوري ومحاولة تجديده أشبه بمحاولة إحياء جثة متعفنة ، فالجماهير المثارة إثر خطاب السلطة القومي أو المذهبي أكثر خطورة على بعضها بعضاً من تلك السلطة نفسها، كون اعتقاد القائد أنه إله أو نبي مرسل هو بعكس مقولة الفيلسوف الانكليزي جون لوك(3) الذي قال " الرئيس أجير لدى الشعب ويحق للجماهير عزله إن تجاوز صلاحياته" فما يفسر سرعة الانقياد خلف الشائعات والتهويل الإعلامي هو ضيق أفق الخطاب الكوردستاني العاطفي والذي يفتقد للموضوعية والواقعية السياسية.

السجن الأكبر الذي أحاط الجماهير على طول رقعة البلد، جعل العيون تتعايش مع مشاهد الرهبة والدموع، في ذلك الواقع أمور تتعلق بطبيعة المجتمع المتأقلم على نمط مجفف للعيش ، وانتظار القادم المجهول الملوح في الأفق، خيبات تتوزع في سحنات الناس، التقطتها كاميرا حليم يوسف ، لتنقب عن جمالية المساعي والمحاولات للانعتاق مع فوضى الخوف وما أفرزته من آلام وإجهاضات للتغيير والعمل السياسي المناهض للحكم القائم، أعباء الاعتقال القسري وطول فتراته حتّم على الحياة أن تسير في منحى درامي مأساوي، فالعيون المراقبة للحظة خروج إنسان من المعتقل كانت تروي زمناً صعباً متخماً بالاستبداد وتردي حقوق الإنسان، بتأملنا للغة الوجدانية في هذه الرواية نجدها تتمايز بالهدوء

والروية في سرد الحدث، حيث يتركز الضوء على تحول الخوف لنظام حياة وأخذت توغل في نفسية الناس في تفاصيل حياتها، أخذ ذلك التأثير يطغى على العقول والأذهان، وستقدّم بعد ذلك منظومة سيكولوجية محددة يتصف أفرادها بخوفهم من الثقة بالنفس وباستلاب شخصيتهم، لتغدوا وجوه المستلبين إلى هيئة تماثيل رخامية لا حياة فيها، يتشابهون في الهموم والهواجس ، ويبقى شغلهم الشاغل الحفاظ على أنفسهم من الوقوع في قبضة الأجهزة الأمنية والسجون العرفية وحياة الطوارئ التي لا يعلمون متى ستنتهي ، لقاء العاشقين في المقبرة يعمق من مفهوم الرغبة في الحياة الآمنة، والموتى هنا يشكلون الطوق الآمن بالنسبة لسالار ومريم، الإقبال الكبير على صنع التمثال بعد موت حافظ الأسد، وعيون المخابرات المنتشرة في الأروقة والمحلات، صعّد من موجات التأثير والجاذبية في الرواية، وجعل المشهد المكاني يتجسد داخل المتلقي على نحو خاطف، السجن ترسخ في الحياة، وبات لسان حال الأفراد، إحصاء أخطاء السلطة وموبقاتها بحق الناس، الجرائم السياسية تتفاقم ، والرواية تسلط الضوء على ما يوده المؤلف، ويشغل اهتمامه سواء وصف المراميز المكانية وعلاقتها بتموضع الأفراد وعمل الشخوص في إنضاج الرسائل والمواقف وتقديمها للمتلقي بوصفه كائناً حساساً ومرهفاً ويود معرفة تاريخ الحقبة المؤلمة التي عاشتها الجماهير، وبات في مخيلتها الخوف والتعذيب، فالاغتيال بوصفه أداة لجم شديدة التأثير ، توغل في نفسية الفرد، فتحيله إلى كتلة من تشاؤم، كيف يتم التعامل مع الإحباط حينما يتسلل لدواخل المرء ويربكه، يجعله طريح دوامة لا تكاد تنتهي يمعن حليم يوسف في تجسيد المكان انعكاساً لخراب الروح وأفول الأمل، يدني الشمعة إلى جوانب معتمة في حياة المعتقلين والمكبلين بسلاسل التماثيل والحياة الباردة والممتلئة بالجمود، فالابتكار في نحت التمثال إشارة إلى ارتهان الإبداع

واحتضاره على مسرح العبث به، وقدرة سالار على تبصر الوجع ومحاولة إخفاءه عبر الحب، كان الطابع المتفاءل الوحيد على مسرح رواية تعج بالحركة والشخوص الذين يتحركون حول خيال الخلاص ويتحلقون عبره ، بغية الوصول لطرف الخيط الرفيع.

يمارس الإرهاب الدولي على نحو مقنّن ، ولا يتدخل الرأي العام العالمي بما يحدث من انتهاكات داخل دولة ، تمارس فيه السلطات قمعاً لا محدوداً، فأحوال حقوق الإنسان في خطر، وألوف المعتقلين يعانون، ولا أحد يتحدث عن أحوالهم، فلا من قوة تدين إرهاب الدولة على الأفراد الخارجين عن نظامها والمناهضين لها، فالمصالح ألغت المبادئ وجعلت الأخلاق التعاملية موجودة حسب مجموع المنافع التي تجمع الأنظمة بعضها ببعض عبر تحالفات واتحادات سياسية تمت لعالم المصالح الاقتصادية، فلا أحد يأبه بالإنسان وكرامته، الانتهاكات داخل السجون البعثية السورية كما التركية ، الإيرانية والعراقية ومن على شاكلتها، وما من جهة تأبه لذلك أو تقيم وزناً، ولم يكن رهان التغير يوماً منصباً حول تحسين هذا الملف، إنما ميزان المصالح يعد الأكثر تداولاً من أي مفصل أو جانب متعلق بالحالة الأخلاقية، حيث تتغير النظم وتنهار الاقتصادات بفعل التناقضات الربحية لا أكثر، فالعنف هو خبز الدولة الشمولية المركزية وأساس لانتعاشها ورسوخها، فالإرهاب الذي يعنيه حليم يوسف في روايته، الجانب الغريزي للفرد، فالإنسان كائن إرهابي، يثير الرهبة، حينما يتم إذلاله وتعذيبه وتغذيته بأسباب الظلم والمعاناة، ليتحول إلى وحش كما أن الحيوان يمكن تدجينه ليصبح أليفاً ومسالماً، فإنه في الآن ذاته يمكن جعله أكثر شراسة وضراوة حين يتم ضربه وتجويعه، فداخل كل كائن إنساني أو حيواني وحش رابض في الداخل وعمل السلطة القمعية إخراج الوحش داخل الإنسان وإطلاق العنان له، لينتفض ويقتلع كل

أخضر ويابس، حيث يتم تطويع الإرهاب ليكون وسيلة لترسيخ النفوذ المادي عبر ثبات السلطة في مكانها وتفعيل منظومتها الثقافية داخل النخب الإبداعية من كتاب سلطويين وفنانين مرتهنين، يقدمون الولاء مقابل الامتيازات الوقتية التي تمنحها السلطة لهم، حيث تغتصب السلطة مقومات الإبداع، وتسلب الطاقات الواعدة وتحيلها إلى رماد، وتسهم في خلق بذور الغرور والتسلط لدى مثقفي السلطة المنتفعين، ممن تركوا الابتكار وعززوا دافع الاحتكار المادي واللهث وراء ما تلقيه لهم السلطة من بهارج خادعة تتعلق بالشهرة والأضواء، فالسلطات تقدم الفوضى بديلاً عن نظامها وتهدد به، كي تبقى وكيلة على مصالحها باسم الشعب عبر إضاءة الكاتب لبعض من جوانب عيش الناس والشباب على نحو خاص يود ترك الكثير من المراميز الملخصة لتصرفات السلطة والأجهزة الأمنية ، كي يتمكن الناقد الحصيف من إخراج مافي الجعبة من تأويلات هامة تلخص جدية إرتباط الأدب بالفكر، هكذا تنطلق الرواية الواقعية في تدشين آفاق رحبة من الجمال المرتبط بوصف الواقع المعاش وما يتضمنه من إرهاصات ومخاضات تتسم

. بدلالتها النفسية والفكرية المتصلة بحاجات المجتمع للانعتاق والرفاهية لماذا يلجأ المعرفي للعزلة دون الانغماس والإيغال في صلب الحركة وممارسة مهامه الحثيثة في مناهضة القوالب وسوءات التفكير المتمخضة عن علاقة السلطة القمعية بالمجتمع؟

هنا سؤال يطرح نفسه في سياق بحثنا عن معضلة التوحش المستشرية تحت تأثير ضغط أجهزة الأمن على المجتمع بكامله، والتي أشار لها الكاتب حليم يوسف ، بكونها أداة تبلع الإنسان داخل المعتقل وتسلبه كل أسباب البقاء، الحياة الأسيرة بيد المنظومة ، تفقد المرء كل دوافع العمل داخل المنظومة أو

خارجها ، كون الحراك قاصر ولا يحقق أثراً في لجم الخوف وصنّاعه،إننا امام أزمة ضآلة إنتاج الافكار الجديدة ، حيث طغيان العلة لن تخلق الأفراد ذوي التفكير الجديد، وإنما سينصب عملهم حول متاهة فرضتها تلك السلطة، مثالاً : نجد أن المفكر الشرق أوسطي يخوض ملياً في موضوع تأليه القائد، ويكرر كثيراً خوفه ، معاناته ، من تفاقم مرض القطيع ، ويظل يخوض تلك الدوامة دون إنتاج شيء ذي معنى، هذا يجعلنا ندرك مدى فعالية جهاز السلطة في جعل مناهضيها يسقطون في عزلتهم الفكرية أكثر فأكثر ، كونهم ظلوا أسيري مناهضتهم لشيء لم يتقلص ، إن إمكانية جهاز القمع السلطوي في تجهيل الجماهير أكبر من إمكانية ذلك المفكر ، أو تلك المفكرة الساعية لإنبات زهرة الإبداع في عقول الأطفال.

إن الوقوع في شرك النظري جعل العقل في محنة والإنسان في عزلة وانفصام ، فتلامذة الشيخ ، وأتباع القادة الملهمون يخوضون نشوة الحلم ، ويبتعدون عن حقيقة أن السياسي قد يكذب فكيف يتم تأليهه، والشيخ صاحب الطريقة قد يخون الله في سره ، فكيف يهبه الناس الهبات والأعطيات، لقد نادوا من قبل بموضوع فصل الدين عن السياسة وبقي الإشكال قائماً فلا نعتقد أن سيتم فصل القائد عن الشعب،

. باعتبار القائد وثن ، والشعب حقيقة

إن استماتة قوى السلطة في السيطرة على الموارد والامتيازات ووضع اليد على مناحي الحياة ، قاد الحياة إلى نمط من الجمود، جعل التصحر الفكري هو القدر الجامع الذي تستظل تحت فيئه فئات المجتمع، والسيطرة يلزمها جهاز رقابي دقيق ، يعتبر كل مناهض عدواً أولاً، هذه حال الشرق الأوسط في ظل سقوط أنظمة ومجيء أخرى، حيث لعبة تبديل الأدوار وإحداث بعض التعديلات لن تسهم

في أي تغيير جوهري يفتح المجال أمام اصحاب المواهب والمدركات الحرة ، إنها منطقة غنية من حيث الموارد، وتخضع لسلطة أوروبية أمريكية عن بعد وبوكلاء سذج ، ينشرون التجهيل والتصوف ، وإخضاع العقل عبر حقن
. الدين المذهبي ، والقومية التفاخرية و الديمقراطية الواهنة

لقد حددت المنظومة السياسية البعثية طبيعة المجتمع وأدوار فئاته، ورسمت معالم اغتراب أفراده، من خلال عزلة محكمة بسلاسل الرهبة، وأسلاك الحذر، وقد جعل حليم يوسف عبر رصده للجوانب النفسية للبطل شكلاً تجسيدياً لحياة القلق المسيطرة على الناس، حيث أودعتهم لحالة من القلق إزاء الحاضر المعاش والمستقبل المنتظر، لنتأمل هذا النص ص 149 :" كلما داهمتني الكآبة، كانت ذقني النابتة تساعدني على تحمل تلك اللزوجة الثقيلة التي تتركها الحياة اليومية خلفها، ربما كان ذلك وهماً، لكنني بإطالة ذقني كنت أحس بأن الكآبة تسرب من داخلي عبر مسامات الجلد إلى تلك الشعيرات الكثيفة التي تغطي وجهي، وكنت أختبأ خلف تلك الشعيرات الدقيقة التي تخبأ فضيحة الحزن المستقر في ملامح وجهي، وأشعر بالسكينة في روحي القلقة" فاللذقن رمزية باهتة تتعلق بالحزن ، حيث نجد حليم يوسف يرصد محدداً وقع تلك الخطا المراقبة لخطوات سالار كما في سياق توهم موسى لوقع خطوات وراءه وفق رواية خوف بلا أسنان ، فما بين الحالتين رابط مشترك يتعلق بالخوف والرغبة المستمرة في الانقضاض عليه، الإحباط مقيم في المكان والزمان ، رغبة العديد في الهجرة تكاد تصبح الوجه العام لتلك الأحاديث التي يتبادلها سالار مع أصدقاءه، حالات الفزع من وجود رجال أمن وجواسيس يتبعون الناس، ويسألونهم عن كل شيء ، جو العزلة والانكماش الذي جسده حليم يوسف يثير التساؤل ويجعل قلمنا يسير باتجاه التعريف المكثف لطرائق عزل السلطة القمعية للمجتمع، إن تلك العزلة

الاجتماعية ولدت مفاهيماً مضطربة تشربها الأفراد عبر تقاليدهم وعاداتهم ، لنتأمل ما قاله الكاتب الكوردستاني يحيى سلو (4) في كتابه لغة الجبل ص 18 : "الفرد الذي لا يستخدم قدراته الذاتية والإبداعية يتحول مع الزمن إلى مجرد أداة تنفيذ، يتم تدريب وتعليم الفرد في مثل تلك الظروف على أن تتقلص دور مشاعره الإنسانية وتحكمه

". غرائزه التي بدورها تفتقر إلى الأحاسيس والعواطف وقوة العقل والتفكير السلطة الاستبدادية أعاقت تلك القدرات الذاتية لدى الإنسان ، حاربت المعرفيات والمعرفيين، بكافة الوسائل الناعمة والقسرية، فتتبع الأفراد وتحري شؤونهم اليومية هو لتذكيرهم بحقيقة سوداء، وهي أنهم في السجن ، سجن كبير اسمه الوطن ، وطن أفراده يمتهنون تكرار ما سوقته السلطة من حياة غير واثقة، ملامح الذات المنكسرة ما هي إلا عبارة عن تفاصيل غامضة تبوح بها علامات الوجه ، تفتيت الفرد عبر مراقبة حركاته، وتتبعه بشكل دائم عرقل المناخات الإيجابية فيما بينه والناس، في ظل الكابوس الكبير الذي عم تلك الرقعة السياسية الناشئة إثر اتفاقية استعمارية اسمها(5) سايكس بيكو

باتت النظم فيها طائفية محكومة بالفشل والإخفاق، تتربص أجهزة أمنها بالنفوس والعقول لتقودهم إلى مستقبل مظلم

تعتبر مجاورة الموت تعبيراً رمزياً لطلب السكينة والراحة ، والتحرر من القلق بوصفه عاملاً يشل حركة النفس، يلزمها على الركود والتقوقع في دوامة ساكنة ، لهذا استدل الكاتب من خلالها لنشدان الإنسان المقموع لحياة رحبة خالية من المعاناة الذاتية، حيث تفكك المجتمع وتفتته ، جعل الفرد يشعر بعزلته الخانقة ، قصة الحب معلنة في ساحة هادئة ساكنة، حيث القبور تهب الحكمة، كما تفتح الأفق نحو معرفة النفس وما يجري في القلب من سجالات وجدانية، عالم الأحياء

مخيف ويبعث على الرهبة ، ولاسيما أن الأحياء المتنفذون ، المتحكمون بالناس وأقدارهم وضعوا نظام الموت في الحياة وأسسوا للكراهية لتبقى لأمد غير معلوم، وهكذا انتهى حال سالار لتأمل تلك القبور حيث نجد حبوره باتجاه نظره المسلط للأمام ، فنجد هنا صمتاً خانقاً معبأ بالحسرة : ص 164 "تناولت المفتاح من يدي بعد تردد ، خبأته في جيبها وهمّت بالمغادرة، شعرت بأن لدي الكثير مما سأقوله لها ، لكن الكلمات لم تكن تخرج من الفم، كان هناك شيء ما يتحرك في داخلي وأعجز عن وصفه ، راقبتها حتى خرجت من القبور، وبدأت أتذكر شيئاً فشيئاً ما أود أن أصارحه به، لكن الوقت كان متأخراً لإسماعها أي شيء، وبقيت أفواه مئات الحيوانات الجائعة عاجزة في داخلي تبحث عن لقمة حب صغيرة تسد جوعها المزمن في وسط هذه المقبرة الممندة على امتداد هذا العالم الموحش تلك العلاقة المبهمة تشي بالكثير من الدلالات النفسية للعاشق في ظل منظومة الخوف منها:

-حاجة الفرد للاستقرار، المفتاح هنا يمثل حلاً منطقياً للخروج من بلاد تفتقر للحب وتطلع واعٍ للحريةعبر بوابة الهروب من الوطن

-فهم الحياة الوجدانية بزهدية عالية تبعث على التساؤل وتحاول الإيغال في صفاء العلاقة لتكون نموذجية وغير محصورة في بهارج شكلية جوفاء

- الغموض الذي يكتنف الوجدان في ساعات البوح والخلود إلى الصمت كوسيلة لإعادة ومراجعة الحسابات الداخلية

وقد أوجد الكاتب هذا الفضاء ليدفع المتلقي القارئ لفهم طبيعة المجتمع وحاجته الكبيرة للتغيير وعسر إيجاد ذلك ، حيث التفكير بالهجرة أبداً مثّل ذلك الخلاص الوحيد من سوء الحال.

-شهوة السلطة القمعية وتصاعد نمو الشخصية المستلبة

في ظل هرع أصحاب النفوذ والامتيازات السلطوية نحو المنافع والمزيد من المكاسب ، يجدر تنامي القبضة الأمنية وسلوكها المباشر في التحري والمراقبة، لاسيما وأن الإبداع يسعى للبروز عبر الحب، وغاية الفرد من التحرك في بوتقة الوطن المعتقل، هو لأجل إنقاذ الحب من مخالب الخوف، ما السعي إلى الفرار إلا نتيجة عن إفلاس المجتمع روحياً بعد عزله، وتصاعد إنطفاء شعلة الانتماء للأرض فيه لصالح الرغبة المحتدة في عيش الإغتراب الخارجي، فيستغرق حليم يوسف في فكره ملياً حول التمثال، وظله الذي أخذ يطبق على خيال سالار، ويجعله في حالة من خوف أثناء النوم، فالشوارع خالية ، والتمثال يزداد تطاولاً وضخامة ، ولابد من إثرها حصول ذلك التصادم ما بين شخصية مرهفة وأخرى سلطوية، تنهش المخيلة والمستقبل على حد سواء، إنها معركة غير متكافئة بين التمثال الضخم والرجل مكسور الرأس، على الرغم من اختفاء الحب ، يغدو الفرد على أرض الواقع ضحية الظروف القاهرة والموانع القسرية، هنا نجد التخييل يؤدي مهمة فنية في استعراض الفكر بيسر، فعلى الرغم من قسوة الواقع وبطش السلطة في التعامل مع الخصوم والجماهير ، وأخصها الشريحة المطالبة بالتغيير والعاملة لأجل ذلك الهدف ، نشهد تجاسراً واضحاً لبلوغ الأرب، ففي رمزية الرجال ذوي الملامح المتطابقة هو إشارة للنمطية التي رسختها المنظومة الشمولية في حياة الناس التي ما فتأت تربي طاعة ولي النعمة في ذائقتها وهكذا فهي في حالة اعتياد تاريخية لعبادة الأشخاص المتألهين وذلك مستمر وفي تصاعد ، بغض النظر عن طبيعة تلك المناهضة ووسائل تحركها ، بيد أنها تبحث عن مهدي منتظر أو مسيح مخلّص ينقذها مما هي عليه، وسرعان ما يتحول ذلك

المخلّص إلى مستبد، وتعود الجماهير إلى مربعها الأول، كونها تدين بالاستبداد وترعاه في لاشعورها فتصطدم به مراراً ، فيجب أولاً التخلص من التمثال وكاريزما الشخصية المخلِصة واستبدالها بمحاولة إيجاد جيل مخلّص وجماهير واعية تصنع حريتها وطموحها عبر بذل الجهود المشتركة لإيجاد بنية قويمة لمجتمع معرفي يحقق السلم التعايشي.

يشير حليم يوسف إلى معاداة السلطة الساذجة للمتنورين ، كونهم أعداء الاستبداد والفساد فنتأمل هنا : ص 168 „ دخل الرجال الثلاثة ذوو الملامح المتطابقة ، بقي أحدهم متسمراً أمام الباب كمسمار صدئ، وكان أضخمهم ، لفت نظري القصر الفاضح في قامة أحد اللذين قلبا البيت رأساً على عقب، باحثين عن أشياء ممنوعة ، عاد القصير بصيد ثمين ، فرد أمام الرجل الضخم ، ستة كتب : الغثيان لسارتر، العقد الاجتماعي لروسو ، فاوست لغوته، مم وزين لأحمد خاني، شرفنامة للبدليسي والمسخ لكافكا، كانت تلك كتبي المنتقاة، قال الرجل الضخم بلهجة حازمة موجهاً كلامه إلى أبي:

– نأخذ ابنك معنا، المعلم يريده

إن عداء رجال السلطة مع المستنيرين تاريخي وقائم بذاته كحقيقة واضحة غير قابلة للبس ، وإن تطوير الإقصاء والقمع من عملها الكابح للإبداع والابتكار، فأحد غاياتها هو القمع الوحشي وتثبيت الخوف كنظام حياتي، هنا أمكن فهم نضالات المعرفيين على أنها البديل الحضاري والوقائي القائم إلى جانب بطش الإرهاب الدولتي أو الحزبياتي ، وإقامتهما سلطتين كبرى وصغرى، تعملان بالتنسيق فيما بينهما للحد من تطلعات الفرد للإرتقاء، ثمة مقاربة أراد الكاتب إيضاحها في علاقة الحلم باليقظة ، فاعتقال سالار كان وراءه منام محتواه حالة صراع غير متكافئة بين التمثال والرأس المعطوب ، حيث الاصطدام ، فلا بد من

فهم حقيقة أخرى تتعلق بصيرورة كفاح المدركين لحيوية التغيير وهي أن الاستمرارية في سلوك نهج التمرد والمقاومة ، لقيه في كثير من الأحيان ردود قبيحة من نظام السلطة الصغرى، "الحزب المناهض" لغايات تتعلق بالتمايز السلطوي والرغبة بالبروز الانتفاعي الأناني ، لو على حساب المبادئ والمصالح الشعبية ، إن لذلك تأثيراً بالغاً على كفاح المعرفيين لتحقيق التطلعات الجماهيرية في الحرية والاستقلال، هكذا نجد أن الحسابات السلطوية لا تتوافق بتاتاً مع الغايات المثالية بل وتتعارض على نحو فج ومباشر، فتحالف السلطتين الكبرى والصغرى فيما بينهما كان لكبح أداء المعرفيين ودورهم في تنبيه الغافلين، لهذا نشهد تشابهاً مقيتاً بين الأنظمة القامعة المحتلة لكوردستان وتنظيمات كوردستانية سلطوية تكبح من جماح النخبة الشابة الواعية ممن ترفض الارتهان والمساومة على دماء الذين سقطوا لأجل كوردستان، لم نذكر تلك التنظيمات إسمياً وإنما أردنا فهم فداحة الاختراق السلطوي البغيض لتنظيمات اصطفت وراءها جماهير غفيرة متعطشة للحرية والاستقلال، رغم افتقارها لروح التنظيم المعرفي ، تدين بارتباطاتها الروحية والغوغائية بزعامات متألهة مثلت الآغوية المعاصرة

المنظومة الشمولية تجدد نفسها

إن الضغط السلطوي يرمي بثقله لميادين وصعد الحياة كافة، يخلف جيلاً مكبلاً بخوف ممنهج تربوياً ، وقادر على ان يلتف حول مطالبات المعرفيات والمعرفيين ، دعاة التغيير لإحداث قفزة نوعية في مسار العملية السياسية، جيل الزنازين لم يفلح في الخروج من بوتقة الإنكسار التي أحدثها السجن والاعتقال ،

لهذا بقيت مسارات التغيير محدودة محصورة في الأفق، الجماهير دخلت ألعوبة هذه السلطة ومارست دوراً خائباً في السير بخضوع لألاعيب السلطة عبر اختراقها للتنظيمات المناهضة وجعل الجماهير تتفتت عبر عقليتها الانشقاقية، وكرها للخلاص وإن دعت إليه نظرياً، تبين للقاصي والداني أن عداء المنظومة السلطوية القائمة مع قوى التغيير متفاقم ويتصاعد ويتعمق عبر الأجنحة السلطوية المشتقة عن النظام الدولتي الحاكم ، بمباركة استخباراتها ، إنها وراء صنع تنظيمات منبثقة عنها عبر التقاليد وتشابه النظرة ، وعقلية التسلط والتعنت الإيديولوجي، أما عن كيفية الخروج من تأثير خطابات السلطة الشمولية وطبيعة تحركاتها ضد نهضة المجتمع ، فهذا رهين الوقت والتغيرات الإقليميةالمتصلة برغبات ومصالح الدول الكبرى والفاعلة.

لقد كرس حليم يوسف للتنديد بالعقلية الشمولية وقتاً مهماً وشكلت رواياته معبراً سهلاً لقول ما لا تقوله البحوث والدراسات، عبر تسخير شخوص رواياته لتتهكم وتزدري وتعمل ، وما ميله للسوداوية وضياع البوصلة ،إلا تجسيداً لحالة الأفراد في ظل النظام المركزي الشمولي، فشدة القمع وقوته،، حالت دون صناعة التغيير ،، بيد أنه أبرز المرهفين ممن يحملون راية الفن والحب، وأوكلهم لصناعة الحياة على نحو جدير بالعيش، وقد أشار الكاتب إلى قوة تلك السلطة عبر رمزية التمثال الذي يتعملق أمام سالار، ليعبر عن شكل الصراع ورجحان كفة الأقوى، هذه السلطة ملكت صكوك التخوين وإعطاء أوسمة الوطنية لمن تريد، وعمقت الهوة بين فئات الشعب وأعراقه وانتماءاته، فالفوضى التي خلفتها باتت حجر عثرة بطريق الأفراد المدركين ، فعززت تلك العثرة انبلاج المجتمع التصادمي غير المتجانس والمتميز بعداءه للتجانس والتعايش ، مفرق مقسم ، ويعيش حالة من الغبن والتكاسل والاعتماد على الغيب وخليط الأفكار الدينية والبدع الميتافيزيقية،

هذا النمط من الحياة سبب عطالة في الفكر وبطالة في الذهن، خلف أمماً متهالكة تكره القراءة والمطالعة ، وتنغمس في السياسة على نحو مراهق وعاطفي، وفي الآن ذاته ونظراً لكونهامحرومة من ممارسة السياسة بمعناه الهادف، فإنها تنزوي في أوحال الشعارات وتمجيد أولياء النعم.

الحديث عن مجريات الذهاب إلى فرع الأمن للتحقيق ، يشكل باعثاً وجدانياً مرتبطاً أشد الإرتباط بعلاقة المنظومة السياسية مع الأفراد، لغة البطش وبث الخوف لابديل لها وهي بمثابة الطوق الأمني الذي يحافظ على هيبة الدولة وجبروتها، يلزم الأفراد قسراً على الانصياع وقبول الدولة كحقيقة لا تقبل اللبس أو الشك، دولة البعث التي لا وجود فيها سوى لعرق واحد متعالٍ على بقية الأعراق والملل والانتماءات وضمن تلك الدولة حكم طائفة الرئيس وأقاربه ومن لف طائفته، حكم طائفي قومي فئوي وجد ليخدم أصحاب الجيوب الفضفاضة المشاركة في قمع الفرد وملاحقة لقمته قبل أن تنزل لمعدته الخاوية، هكذا وفي ظل هذا الجو المضطرب، يحتضر المرهف والمعرفي والمبدع، إذ أمامه طريق عسيرة للخروج من الأسلاك والعثرات ومواجهتها بمنطق المخاتلة أو بمنطق المجازفة، لحظة المسير إلى التحقيق نجدها مفعمة بسيول الأفكار والهواجس، ينجح الكاتب في تحقيق التجانس ما بين سحنات الموجودين المتحلقين حول سالار والمكان، لنتأمل هنا ص 176 ,,كان من المعروف عن المغني الأعمى أنه يغني ويسمع كل ما يقال، لذلك غيّر أغنيته لنفسه: –دخان دخان دخان يغطي العالم " وأراد تنظيف المرسم عن بكرة أبيه، قدم إلي سورو معتذراً عن ملاحقته لي في الشوارع وإخافتي، أفهمته أن ما فعله لم يكن سوى مزحة عدت على خير ولا تستحق أي اعتذار، الوحيد الذي كان شديد التأثر بوضعي ذلك المساء هو المعلم آرام ، كان يبحث عن حل سريع ينقذني مما أنا فيه، وهذا ما كنت بحاجة

ماسة إليه، إلا أنني فوجئت بمدى علو جبال العجز في عينيه الضيقتين، وخفت عليه في تلك اللحظات أكثر من خوفي على نفسي"

الرهافة أمام غرور الآلة الباطشة، يقيم الكاتب عالم من المتناقضات ، بين فن يحارب وسلطة تقارع الإبداع، وحب البقاء والإرادة التي تدين للحياة، حيث يخوض العقل الإبداعي عدة صراعات داخلية وخارجية مع السلطة الكابحة لطاقاته، وعلى الرغم من أن مصير سالار مهدد في ظل استدعاء الأمن له للتحقيق، إلا أنه يواجه ويأخذ زمام المبادرة في الحد من حالة الرهبة المزروعة بداخله عبر الاجتماع بأصدقاءه ، ليلقي نظرات حميمة على المكان ، غناء الأعمى، مرسم سليمو، مرح وظرْف سورو، كل تلك الطقوس الجميلة المشبعة بالحياة إلى جانب الخوف من القادم ، وسّع من دائرة التصادم، حيث المعلم آرام يحاول بشتى الوسائل مساعدة سالار وتخليصه من هذه الورطة، حياة تستمر وأفكار تقبع في زاوية الذهن كمد وجزر لايهدأ ، أوجد الكاتب لهذه المعاناة الرابضة قيمة جمالية تجسدت بصخب المكان وألفة الصداقة وروح تعانق الإنسان مع الحياة بكافة ألوانها وصورها.

توحش الأمن وحيونة القطيع

يبدو حليم يوسف في معمان تصويره لقصة دخول سالار لغرفة التحقيق يود عقد صلات بين الإنسان والحيوان ومدى تشابههما في الملامح، إذ ثمة حيوانات أليفة وشرسة والإنسان أيضاً ما بين آخر أليف وهادئ، وآخر شرس أو لئيم، ويميل لارتكاب الموبقات، يشير الكاتب إلى تغير الإنسان حينما يقع في قبضة رجال الأمن في دولة بوليسية كالبعث، إذ نتأمل هنا : ص 179 „ ذكرني الرجل

العجوز الأصلع الذي كانت نظارته تستقر على أرنبة إنفه بفأر هرم،يقضم الورق القديم من الملفات المتراكمة أمامه على الطاولة" وهنا تقول الدكتورة البريطانية(6) جين روجرز :" إن البشر يشتركون في 99% من جيناتهم مع الفئران ، بل إن البشر لديهم الجينات التي يمكن أن تؤدي إلى نمو ذيل" استخدام محققي الأمن ورجالهم نعوتاً قميئة ، تشير إلى خروج الإنسان عن جادة الرقي والتحضر، حيث تعبر الشتائم عن حالة من انفعال وتوجس تقيم في النفس مما يدفعها لتبرير الكراهية والنقمة عبر ألفاظ نابية تجسد العنف اللفظي ، حيث يرَى(7) جورج باتريك " إن استخدام الشتائم هو صورة بدائية من الكلام البشري ، حيث نجد صلة الإنسان بالحيوان عبر توظيفه في السباب كما هنا ص 200: ,, –أحضروا لي هذا الحيوان على الفور . أنا أعرف شغلي معه " وهنا أيضاً ص 201 ,,جاوبني يا حيوان ، ألا تسمع ؟" وكذلك ص 202 : ,, ولك ياحمار كنت تقول لنا إنك أطرش " وتداراك الأمر قائلاً لنفسه : ,, والله فعلاً أنا حمار ، كيف رح يرد علي وهو أطرش وأبكم.

حيث يعبر السباب هنا عن الغضب والنقمة ، والاعتياد على ممارسة العنف وحده، التصارع بين جهاز الأمن والمعتقل السياسي وغير السياسي، حيث يبرز الكاتب كم العنف والخروج عن الحالة الإنسانية، إلى الاستشراس الحيواني ، وخروج الإنسان عن المنطق ، عبر إطلاق العنان لشحناته عبر اللاشعور وتدفعها لتعبر عن حالة التوحش تلك ، حيث تسود القوة الباطشة مقابل أصوات خافتة لم تملك قوة مضادة ، نتيجة إحكام سلطة البعث على كافة مفاصل الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والتعليمية، لن نتفاجأ ببروز معارضة هشة ، ضيقة الأفق ، تتشابه مع السلطة المناهضة في كثير من النقاط الجوهرية ، وهذا ما يحاول الكاتب بيانه عبر روايته معاينة المشهد السياسي بحنكة روائية مفعمة

بالدلالات السيكولوجية والنفسية هدفها فهم المرحلة وطابع الحياة السائدة في ظل توغل أجهزة الأمن في مفاصل حياة الأفراد ، ورسوخ العنف كمذهب استعدائي ، يقوض طموحات الناس ، ويرسخ التفتيت والتشرذم ،والضياع بين السلطتين المناهضة والقائمة ، ويتبين ما يلي:

-حجم الصراع السياسي وضراوته، واستماتة السلطة في قمع المعرفيات والمعرفيين لما لهم من خطورة على المنظومة في صميمها.

-حرب سلطة البعث لكل المدركين بضرورة إسقاطها واتخاذهم تدابيراً قاسية في قمع كل حراك.

نجد أن الاعتقال السياسي يعتبر عملاً مثار اهتمام بالغ للسلطة القمعية وإن اهتمامهم بملفها أكبر مقارنة مع الجرائم والجنح الأخرى

كذلك نشهد تواطئ رجل القانون مع رجل السلطة في القمع عبر أجهزتها التي تتعامل مع المعتقلين بمزاجية مفرطة، ففي كثير من الأحيان ، فإنها تطلق سراح المعتقل ، حينما يقوم ذويه بدفع المال مقابل خروجه، وقد كشفت المذبحة السورية ، "الثورة " الخلل البنيوي في طبيعة خطاب المعارضة وتشددها الديني وخضوعها، للأجندات الإقليمية، كما فعلت سلطة البعث، التي راحت تفعل كل شيء وتفتك بكل شيء لأجل بقاءها.

ولاشك إن الكاتب يتدرج عبر رواياته في الحديث عن مراحل تفسخ السلطة وذهاب هيبتها مع الوقت، وتصاعد الجرأة الشعبية في الحراك وتسلط القوى الاقليمية والدولية لتحريك هذا الطوفان الجماهيري بما يتناسب ومصالحها الاستراتيجية، في تلك المنطقة المتحفنة سياسياً والبعيدة عن حالة التعايش والتجانس، والتي عاشت السلطة البعثية فيها فساداً من خلال تأصيلها للشوفينية

القومية في نفوس الجماهير ، وهكذا نجد أن المنطقة المستعرة تنقل أزماتها خارج الحدود مع دول تتشابه معها في عقليتها وكرهها للديمقراطية.

عداء رجل الأمن للمعرفة متأتية من سذاجته وكرهه للفنانين والمبدعين المشاهير ، وهو مرموز يشير أصلاً إلى احتقار سلطة البعث حالها كأي سلطة مخابراتية لكل الذين يشكلون مصدر قلقها وهم أصحاب القلم ممن يمتلكون القدرة على التحريض ومعاينة الأورام الثقيلة المستوطنة روح الناس المتعبة، مع توغل السلطة يصبح تماسكها أضعف وضبطها لتجاوزات الأفرع الأمنية أقل، فيصبح البطش وليس سواه غاية في حد ذاتها ، حيث لا معاينة ولا تمحيص في ماهية من يتم اعتقاله، وإنما تمسي القضية تخويف الناس وترهيبها، فحينما يتصرف المحقق بمزاجية بحتة وسلوكيات مضطربة تنم عن جهله وسذاجته، عندها يمكن القول أن الإنسان في خطر فعلي والقانون قد مات، هذا بدوره ينعكس على نفسية المجتمع وإحباط أفراده، عدم قدرتهم على تجاوز فوبيا الخوف الذي يتضخم باستمرار ، فولاء رجال الأمن والجيش هو لنظام العائلة وطائفتها ، وما البعث سوى عباءة ومنبع وأسلوب عمل يتم عبره الحكم والتصرف كراعٍ أوحد تحت يافطة حماية مكتسبات الثورة والدفاع عن الاشتراكية ، وماشابهها من شعارات، لهذا نشهد مظالماً لا تطاق بحق الناس، وتفنناً في تعذيب المعتقلين وإمعاناً جلياً في خلق تنظيمات وميليشيات لها ذات التوجه وإن لم يكن ذات التوجه فلها ذات العقلية والأسلوب في التعاطي مع الجماهير، حيث احتكار الوطنية لصالح حكم العائلة أو الطائفة يمثل رأس حربة بمواجهة الديمقراطية والتعددية، فاحتكار القيم والموارد يقود أوتوماتيكياً لبناء نظام الاستبداد، وما يحدث في سوريا هو تحول كل حزب عسكري الطابع إلى خلق نظام مشابه لنظام السلطة القائمة، إلى جانب تربية الجماهير على مذهب الخضوع والولاء للحزب

والتوجه الإيديولوجي على حساب الانتماء للوطن والتفكير بنهضته وبناءه ، إن مرحلة الثورات المسماة بالربيع العربي هو حصاد لما زرعته السلطة الإستبدادية من عبوات وألغام موقوتة ، تنفجر على التوالي، ولن يتغير هذا الحال إلا عبر التدرج البطيء وبالتزامن مع عملية رفع الطوق أو العزلة التاريخية عن تلك الجماهير المغيبة عبر الإكثار من بناء من بناء المحافل والمؤسسات الثقافية المربية للعقل وتنميته، وهذا بالضرورة سيتيح المجال لإرساء النقد ويفتح الطريق لمناقشة التابوهات والتقليل من سطوة رجال الدين والحزب الشمولي ، الأمر الذي سيتيح المجال لقيام الثورة المعرفية.

الوحش الذي بداخلي من زاوية علاقة الأدب بالفلسفة:

ينقل لنا حليم يوسف أحداث روايته بمراميز يسقطها على السياسة وطريقة تعايش الأفراد والجماعات وكيفية حياتها ناقلاً المعضلات الفكرية والنفسية والسياسية بطريقة تنم عن ذكاء ودراية بالمجتمع، وقد أخضع حليم يوسف شخوص الرواية أمام مجهر التأويل والتنقيب عن المناخ السائد ، وطبيعة تحركات الأفراد ، إذ أراد الكاتب أن يمارس مختلف الفنون الفكرية في عرض الرواية الشيقة، الكاتب حليم يوسف يحذو حذو كل الأدباء الفلاسفة في إرسال رسالته للآخرين لسان حال المعري وأحمدي خاني وملاي جزيري وإن كان هؤلاء شعراء وهو روائي، ولا عجب في ذلك حيث إن اختلاط الأجناس والفنون هو نتيجة ميل طبيعي من المبدع للتعبير عن أكثر من فكرة وجانب من خلال لون يحدده السرد، لهذا فإنني أرى أن كافة الفنون والأجناس الأدبية في حالة اقتران تامة بتساؤلات الفلسفة ومعضلاتها، لأنها تتحلق حول الوجود وإشكاليات

الإنسان مع الذات والآخر والعالم ككل، وقد ارتأيت في النهج الذي يقول بالعلاقة بين الأدب والفلسفة ، لبيان قيم الفن إلى جانب الفكر، إذ كلما تشعبث الأفكار واتسعت فإننا لا نر سوى الرواية وسيلة لاحتضان الفكر والوجدان في آن، حالة السرد هنا مضمخة بالعقلانية ونقيضها تشبهاً بالحياة وتقلبات الإنسان النفسية ساعة الاعتقال والتعذيب، لغة الكاتب لا تفارق الشعرية كما لا تفارق المناخات الفلسفية ، وهو يشتغل على أكثر من حقل وجانب ، وهذا يعطي للسرد حيويته وسلاسته، فما يجمع الأدب والفكر هما البيان ، جودة الإسلوب وروعة اللغة ، إذ بدونهما لن تسطيع الأفكار أن تجد نفسها على الورق ففي حواريات شخوص الرواية ، أصدقاء سالار ، وتلك الومضات البريئة والقصيرة من غرام سالار بمريم ، نجد حيوية الانتقال السريع بارزة في أشدها، حيث السرد الأدبي دفاق بالصور والانزياحات التي تستمد ألقها وأدواتها من الوجود ، في حين تذهب الفلسفة إلى معاينة هذا الوجود على ما فيه من علات وجماليات، ونجد حليم يوسف مواكباً لتقنيات الحداثة ومحافظاً في آن معاً على المقومات الكلاسيكية لبناء الرواية ، وهكذا نجده توافقياً في مسألة جمع كل شيء في خابية الرواية ، لنجد أنفسنا أمام حقل بهي المنظر، فالكتابة وسيلة لنقل الحياة ، وفهم المرحلة ، وكذلك تسليط مركز على إشكاليات عدم التكيف أو الاغتراب، فلا قيمة للفكر أو الفلسفة إن انسلخ عن الوجدان ، ولا قيمة للأدب إن تعرى من الفكر وبات بذخاً لغوياً وقد نجح الكاتب في اتخاذ خيار التوسط ما بين الوجدان الأدبي والتساؤل الفكري من خلال الوصف والتساؤل ضمن حيز منطقي يحول دون طغيان الفكري على الوجداني أو العكس حيث نجد جان بول سارتر وميلان كونديرا يتصدان بجودة لمسألة إشادة الجسر الصقيل ما بين الرواية بوصفها موضوع للنفس والفلسفة بوصفها تأكيداً على السعي لفهم الوجود بإبداعية حيث يقول الروائي

الفرنسي ميلان كونديرا (8) بصدد فكرة تأسيس الحداثة : ,, مثلما قالت فلسفة الحداثة مع ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود، قال أدب الحداثة أنا أتألم إذن أنا موجود " لهذا فتجسيد آلام الناس في
. الرواية، يعتبر بياناً صادقاً لعظم رسالة الأدب
فحسب كونديرا فأن الروائي يسير في طريق محفوفة بالفلسفة وفق مسار أدبي مفعم بالشاعرية والتنبه لأثر المكان على الإنسان، وكذلك رحلة في تخوم الوجع الإنساني ومحاكاة صريحة لمشكلات الإنسان وأهوائه واضطراباته متعددة الأسباب والنتائج، فالأدب والفلسفة اكتشاف مكمل للعالم ، ومنهج فهم للوجود وهما يؤديان بطبيعة الحال وظيفة مكملة لبعضهما البعض.

التعذيب الجسدي والنفسي للمعتقل ، يستخدم بوصفه رادعاً يحول دون تحقيق الفرد لأهداف مناهضة للسلطة ، ويستخدم كوسيلة للدفاع عن النظام السلطوي إزاء فئة تدحضه وتحاول هدمه مراراً ، وهو عمل رئيس للدولة البعثية الطائفية في أنها تولي أهمية للتعذيب والتفنن به كوسيلة تردع الفرد وتجعله خائفاً بعيداً عن أفكار التغيير والعمل لقلب النظام القائم، بما لاشك فيه أن أصحاب العقائد الدينية والوضعية يستخدمون التعذيب كوسيلة للمحافظة على السلطة والعقيدة والبقاء ، فالإكراه والقسر شائعين في مذهب السلطة ، ولكي يتحقق الرسوخ للنظام ، يجدر أن تحارب المختلفين والمخالفين لها، وقد استخدم التعذيب لمزعم البحث عن الحقيقة ومعرفة المذنب قديماً، في اليونان وفي عهد الإسلام وما قبله ، وكذلك في العصور الوسطى واستخدامه كوسيلة لحماية الكنيسة الكاثوليكية ، حيث في الستينيات من القرن المنصرم قام العالم النفسي ,,ستانلي ملغرام" بإجراء اختبار في جامعة ,,يايل" لفهم ظاهرة التنفيذ الحرفي لعمليات

الهولوكوست والتي قام بها الجنود النازيين في الحرب العالمية الثانية ، وقام عالم النفس الأمريكي فيليب زمباردو ، بإجراء اختبار في سجن ستانفورد ، حيث خَلُصَ زمباردو إلى نتيجة مفادها أن الأشخاص المقدمين على التعذيب معرضون للخضوع للتعليمات كونهم مسلّمون لنظام إيديولوجي يحظى بمكانة اجتماعية ومؤسساتية ، والإنسان بطبيعته ميال للتأقلم غريزياً ضمن المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، فهدف نظام البعث القمعي هو الحد من المبدعين والمفكرين، واستسلامهم فوراً إثر التعذيب والمهانة التي يتعرضون لها، حيث يشير حليم يوسف إلى نمطين من التعذيب يكملان بعضيهما بعضاً لنتأمل هنا : ص 217 ,, ستظل هذه العصا معلقة في الهواء ومستقرة بين مؤخرتك وبين الحائط ,, ولفتت نظري الحفرة الصغيرة في الحائط والمتناسبة مع رأس العصا، شعرت بوجع شديد يجتاح مؤخرتي ، لم أكن أستطيع التقدم ولو قليلاً نحو الأمام أو التحرك، لئلا تسقط العصا ، فتكون العواقب وخيمة ، لم أصمد طويلاً ، سقطت العصا بعد دقائق معدودة ، تخيلتها سنيناً ، جاء إلي صاحب العصا مهدداً ، متوعداً ،بأنه سيريني الويلات ، تدخّل أحد زملائه الذي بدا عليه التعب والإنهاك : ,, اتركه اليوم ، لم تعد لدي رغبة في الاستمرار ، فلدينا الكثير من الوقت للتسلية به لاحقاً ,, كانت الجملة الأخيرة شديدة الوضوح ، وهو أنني سأظل بين أياديهم لسنوات ولديهم الكثير من الوقت لتحطيمي ، فكرت بالانتحار ، ووجدته أيضاً عصياً علي ، أعادوني إلى الحجرة ، كان الألم شديداً في مؤخرتي ، والأفكار متزاحمة في رأسي ، حاولت المستحيل لأنام ، فلم أستطع وعندما كففت عن المحاولة ، غرقت في نوم" أثقل من الموت

لمس العصا للمؤخرة تعكس دلالتين للتعذيب نفسية وتتمثل بالإحساس بالمهانة والذل الشديدين ، وجسدية تشبه ألم الخازوق العثماني ، وقد أراد حليم يوسف

الإشارة إلى أثر التعذيب الجنسي على الفرد ، مجريات التحقيق وتداعياته تنعكس على ذات الشخص المستجوب وتؤثر به لتجعله يتقلب في حساباته، تجعل جوه مشحوباً بالاضطرابات النفسية والتشنجات الكارثية العاصفة في مخيلته، وتدوي صرخات المعذبين والمتوجعين في أعماقه، وهو ينتقل من مكان لآخر، من محقق لآخر، فقد طغى الإرهاب الدولتي على كل إرهاب آخر مضاد، وبات يتصدر مشهد التاريخ بفظاعة ، فلكي تنقذ السلطة نفسها من السقوط ، فإنها تستخدم البطش لأقصى حدوده، تتقاسم صناعة الإرهاب تلك الدول والأحزاب والجماعات الصغيرة ، والجمعيات السرية ، المافيا، العائلة ، كل في حقله ، ، حيث يبدأ الإرهاب من فكرة في الذات سرعان ما تتبلور ، لتصبح مبدأ أو قانوناً، إذ لطالما بدأت المنظومة في تأسيس وجودها انطلاقاً من مساعٍ فردية غير منتظمة لتصبح مع الوقت نظاماً حديث النشأة، إنه الفرار من الموت والتلاشي أو الاختفاء القسري كما جرى للعديد من المعتقلين الذين تم تغييبهم ، وبذلك فإن السيطرة الأمنية التي تفرضها سلطة البعث تعمد إلى بث الخوف وجعله يتحكم بالأفراد، كيلا ينهضوا وإن نهضوا فإنهم سيخرجون من هذا النهوض مكبلي الأقدام بسلاسل غليظة وثقيلة ، حيث نعني بالسلاسل ، تلك العوائق والعثرات التي تجعل من أي حراك مضاد ومناهض مخصياً ، بليداً محكوماً بالفشل وعدم الاستمرار، عبر زرع السلطة لأدواتها وأفكارها ومناهجها، هكذا لا يمكن الصحوة من هالة الغشاوة السميكة التي أحاطت العقل المعتقل وزجته في صدامات نفسية لا تكاد تتوقف، ، فالإرهاب الدولي المفروض على الجماهير ، إرهاب يستمد جذوره التاريخية من عهود حكومات وسلطات قديمة ، حال الأفراد في هذه البلاد السجينة، ينقلها آرام هنا ص 224 : ,, كل ما جرى هنا هو إما ان تهرب كالجبناء أو تسجن كالأذلاء، أو تموت ميتة الكلاب أو تبقى في هذه البلاد

وتعيش على طريقة الحيوانات، وأنا ياحميدو الحيوان البائس الذي في داخلي بدأ يفقد القدرة على التحمل وبدأ يتوحش ويأكل رأسه ، ما أقسى هذا اليأس يا الله " يمتلك آرام روح الإنسان الشاعر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه في مساعدة الآخر ، هذه الرهافة جعلت إحساسه ينطوي على حزن ويأس عميقين، إزاء حال لا تتغير بل تتفاقم معع الوقت، وتحت ضغط هذا الإحباط والظلم الذي ترسخ في ماهية التماثيل المنحوتة، كان القرار الأخير ، وهو الانتحار تعبيراً عن الرفض والتجلي بصورة حرة خارج الحياة ، حيث العدم ، ترك آرام لحميدور رسالة صغيرة مفادها ص 227" لا تبك علي ياحميدو، إذا التقيت بسالار ولو بعد سنوات طويلة ، قل له بأنني كنت أود أن أفعل له شيئاً لكنني لم أستطع، فليسامحني وسامحني أنت أيضاً ، نحن نعيش في بلاد لا قوانين عادلة فيها، لذلك فإنني أردت اليوم أن أكون عادلاً مع نفسي على الأقل، لم أعد أتحمل ، هذا كل ما في الأمر ، وادعاً ."في بلاد لا عدالة فيها ولا قوانين ، يمسي فيها الفرد سجيناً محبطاً يواكب الصدمات الواحدة تلو الأخرى، ولا يجدد في الصمت الطويل عزاء أكيداً ، فيختار طرق باب الموت لضآلة احتمال وجود حياة أفضل، خرج الوحش الذي بداخل آرام بهيئة الموت ، ليتجلى أمام أنظار الأحياء فاتحاً فمه، تتحقق عدالة الفرد اليائس من خلال الانتحار ، وفق تراتبية الأحداث المؤلمة المعاشة هنا، أراد آرام التحرر من روتين المأساة والوقت فانتحر ، أرا د تحدي جبروت الظلم والاستبداد بوضع حد لحياته.

الانتحار بوصفه دعوة للحرية

قصد حليم يوسف المعنى المرموز وراء انتحار آرام وهو الانتفاضة ومواجهة الموت القائم بشراسة ودون توقف ، أراد الوجه المجازي التحريضي المتأت من فعل الانتحار ، حيث أن قرار الانتحار يجيء بعد عدة مرات وأشكال من الموت التي يعايشها الفرد المحبط، حيث الروح يلجها البرد والجليد من كل حدب وصوب ، ومع إحساس الخواء والعبث، يتضاعف الإحساس بوجوب الموت وضرورته، ومع انعدام لحظات السعادة الحقيقية والطويلة، يصبح المرء في حالة من فقدان لأعصابه وتوازنه، ثم تراوده أخيلات هنا وهناك، لم يعد الموت مخيفاً بالنسبة للذين يستعدون لملاقاته، بعد أن وجدوا في وجودهم في الحياة مضيعة للوقت، واقع تزداد فيه المعاناة باطراد، ولاسيما ذلك الموت الذي يستهدف الأفراد والنخب الشابة، تلك التائقة لتلمس التغيير، لكنها تتوج أبداً بالإخفاقة والفشل، نجد ذلك العزم الأكيد لمناهضة سلوك النظام الاستبدادي الذي أخذ يحاصر المجتمع منذ مراحل مرور الإنسان بالطفولة فالشباب والرجولة من ثم الكهولة، ليؤسس له نظام حياة مبهمة وممتزجة بالعزلة والخوف من التطلع للأمام، على الرغم من أن قرار الانتحار هو قرار أناني، لكنه أتى كنتيجة عن إهمال ممنهج ، لقيه الفرد ووجد في التأقلم عملية معقدة في ظل غياب الأمان والرفاهية ، وذلك الحصار المطبق الذي فرضته السلطة المهيمنة على الناس في مختلف ميادين حياتها وعملها بغض النظر عن ذلك التهور والانفعال الذي قد صاحب الانتحار، إلا أن غياب أسباب التمتع بالحياة كامن في قرار إنهاء الحياة والخروج منها، أي الإستقالة ، حيث تتفاقم معدلات الإنتحار في البيئات المعزولة سياسياً، ويصبح

الإحباط عنوان تكل الحياة الأسيرة لقوانين السلطة وتفسخها البنيوي والظاهر والذي يقود النخب المبدعة للهروب والتخلي عن الحياة ، عجزاً ويأساً كون هرم الرعب المفروض من قبل تلك السلطة مهيمن بضراوة ويصعب مناهضته فرادى خروج المعلم آلان من السجن ، تبعه مشهد مشي حميدو خلف جنازة المعلم آرام، وتأنيب شديد أحسه حميدو إزاء تماثيل نحتها بيديه وكانت سبباً ووسيلة في إعدام معلمه ، ساءت الأحوال وتصاعدة أعمدة دخان الأحزان في كل الأروقة والشوارع ، تكشف عن وجه بلاد ليس للإنسان فيها كرامة، أو وزن ، نظام البعث قوّض كل حركة وأربك كل فعالية للفرد ، وجعل الحياة تراجيديا صامتة ، أمام هذه التغييرات الجمة التي تعترض حياة الأفراد، تصبح الحياة في حد ذاتها كابوساً متنقلاً بين ساحات الأمل الهش ، فما بين سعادة غائبة وتعاسة متثائبة يقف الألم، ، وتصبح الحياة أمواجاً ثكلى بأحزان البشر في بقاع كل ما فيها فجائع وأحلام منتهكة ، برمجة الفرد على الخوف معناه أن يترسخ لديه الخضوع على نحو آلي ولا ينظر للأعلى، بل يجب أن ينشغل أبداً بلملمة نفسه وبقاياه بصورة نمطية ومتكررة ، حيث تغذية الفرد على الخوف والألم يولد لديه دوماً رغبتين متناقضتين ، إما الانتقام لحد أن ينقلب الضحية لوحش، يعيث الفساد في كل شيء ولا يتوانى عن نهش كل صالح وطالح ، ليكون نموذجاً عن الوحش الحديث الوليد من رحم الاستبداد، والرغبة الأخرى هو الميل للزهدية والعيش في دوامة من الاغتراب والشعور بالظلم لمدى طويل وهنا يختار هذا الفرد مازوشية حمقاء تحيطه وتكوي أعماقه على مراحل ، ، يسهم الخوف في إنشاء الفرد حسب مقاس السلطة ورغباتها في امتصاص الجرأة في ذوات الجماهير ، فاستفادة السلطة البعثية من وجود تابوهين عقيمين وهما الأصولية القومية المرتبطة بأصولية الإسلام السياسي، في ذهن ولاشعور الجماهير ، جعل النظام

القمعي سهل الجلوس والبقاء طويلاً ، كون بديله يعني الفوضى والتشرذم والانقسام الطائفي والصراع العرقي لا محال ، هكذا تعبث الأنظمة الشمولية في مستقبل شعوبها ، بعد تشربها لإفلاسها ، مما يجعل الغموض شبحاً يخيم على كافة مناحي الحياة ، والتصدي لهذا الخوف والقمع المتصاعد غير جدير بالوقوع عنده ، لضمور آليات المواجهة وكساد فكر دعاتها ومنظريها، خيار الانتحار أوضحه حليم يوسف ، وكذلك لحظة خروج آلان معتقله الغامض بغياب اوختفاء سالار تلميذه وعاشق ابنته، ، شخوص محكومون بالخيبات ، بين يد تبني تماثيلاً ، وآخرون يموتون أو يخرجون بالمصادفة من قبورهم ، لا قوانين منصفة وإنما ثمة أشخاص مهيمنين على كل شيء يشبهون الحيوانات في سحناتهم وأصواتهم، وينشرون العنف والفساد في كل الأرجاء، وقد اصطف السلطويون خلف المقدسات عبر التاريخ وقاموا بتحقيرها، بمنهجية قادت الناس إلى المجهول ، جعلت الألسنة تكرر ما تريده السلطة البعثية ، وحدث أن تم إخصاء الدين وتطويعه قومياً وحسب رغبات الحكم الفئوي ذي النزعة الطائفية

يتحدث حليم يوسف في باب آخر عن تزييف السلطة البعثية للفن وتشويهها للنحت ، ليقتصر ذلك الفن على نحت القائد، وبقاء تماثيله عثرة بوجه كل شيء جميل ، حيث نقرأ هنا ص 233 : ,, كان قد بنى حياة كاملة في هذا المرسم بطريقة لم يتصور حميدو بأنها ستستمر من بعده، واستيقظت في روحه قوة خفية تجسدت على شكل وحش هائج، دخل إلى غرفة التماثيل وبدأ يمعن التحديق فيها وكأنها أجسام حية أمامه، يكرهها، يخافها ، انتابه شعور أم تجاه أولادها الذين ولدوا نتيجة اغتصاب مستديم غطى على كل عمرها ، الحب والكره خاضا صراعاً عنيفاً في داخله، الحب تجاه ما أنتجته يداه والكره تجاه رمز الخراب والخوف والأسى، هذا عدا عن تسببه المباشر في دفع معلمه وقدوته في الحياة

إلى الانتحار والغياب الأبدي. ,, فعلى الرغم من أن الفن يخوض مسلكاً مختلفاً عن السياسة ، إلا أن السلطة تضع يدها عليه بغية تحوير الذائقة والتحكم بالجمهور من خلالها ، لكنه في الآن ذاته يستخدم على الطرف النقيض من أهواء السلطويين ، ليعبر عن الصحوة والامتلاء بحب الحياة والذود عنها قدر المستطاع، حيث يعتبر الفن فرعاً من فروع التفكير ورفع المستوى الجمالي للحياة وفهماً مغايراً للوجود والإنسان، الحرب الجمالية ضد قوى التشويه مجدية ومهمة ، إلا أنها معطوبة منذ البداية ، حينما تحول النحت عن وظيفته إلى تمجيد للطغاة، لقد فهمت سطلة البعث خطورة الفن ، فوضعت رقابة مركزة عليه ، ولاحقت الفنانين واعتقلتهم وشردتهم، كون الفن من أدوات فهم الحياة والدفاع عن الإنسان ، وأمثلة قتل الأنظمة المستبدة للفنانين كثيرة، حيث تم إعدام المعرفي الشاعر الإسباني لوركا (9) في بدايات الحرب الأهلية الاسبانية عام 1936 ، وأيضاً بيكاسو (10) الذي جسد هول الحرب وكانت لوحاته معبرة عن مقاومة المعرفيين للسلطات الترهيبية، حيث يستشعر حميدو الندم الكبير ، حينما سلم فنه لأحضان السلطة ، وكانت التماثيل سبباً غير مباشر لانتحار معلمه آرام ، لم يكن ثمة أدنى تعاقد مبني على احترام الفن ما بين سلطة البعث والفنانين، وإنما هنالك خوف ومحاولة الزج بالفن في الخصومات السياسية والأجندات الحزبوية ، ليتقولب ويتعفن ويصبح نشازاً أو تفاهة ، وقد بدأت صحوة حميدو من خلال كسره لتلك التماثيل التي نحتها بيديه ، وهنا رمز الوحش الذي بداخله إلى الثورة ودك حصون المسترقين المعاصرين والخروج من سبات الخوف القهري، الذي أدى بالنفوس إلى ضياع وانفصال عن الواقع، إذ يدرك الفنان المتسامي بفنه أن ليس من عدو للفن إلا تلك السلطة الشمولية الممتطية لكل جمال وإبداع، والتي أنشئت بدورها نظام العبودية الحديث واكتفت بتهديد دعاة

التغيير والمبدعين إما بمحاولات شرائهم واستعبادهم أو من خلال زجهم بالمعتقلات وممارسة فنون التعذيب بحقهم وهذا يؤلب الوحش الذي في الدواخل لينقض على العدو الأكبر للأصالة والفنون.

يسيطر الخطاب السلطوي المتعالي على ذائقة عموم الجماهير ، ويطغى هذا الخطاب في كافة الأوساط والشرائح ، ليصبح وجه الحياة المعيشة، وقد فرضت السلطات قوانيناً أشبه بكوابيس القضاء على روح المجتمع ونهضة أفكاره، وهذه السلطة عدوة الأخلاق وحامية الفساد ، وصانعة الوحوش في المكامن، لهذا أحسن حليم يوسف في تسمية روايته لأنه يعي جيداً أن السلطة البعثية هي الوجه الواضح للوحش الذي سيدمر كل شيء ، وستفتح الطريق نحو الشروخ والانقسامات الكبيرة داخل المجتمع المحتقن على مراحل ، انحياز حميدو إلى السامي في الفن ، مثّل ذلك الانتفاض والهيجان ضد كل ما يشوه الذات ، ويقتلها جوهراً ، وقد أراد التخلص من العدم وإبداء موقف بطولي ينتصر للأخلاق والواجب ، فحين تبدأ المعاناة في طريقها للنفس فإنها تترفع عن الإيذاء وعن كل مقيت وتتصرف بحكمة المتألم ، لتستقص الجميل في النفس، حيث يرى أرسطو أن المأساة نوع من العلاج الاجتماعي وهو مقدمة للصعود والمضي بخطوات ثابتة نحو الهدف المعلن ، يسمي حليم يوسف الفليان الجماهيري بالتوحش كونه سيسهم بالهبة غير المنتظمة والفوضى الجامحة إثر قمع جامح ومتراكم، حيث يقول(11) ديفيد هيوم : الزمن وحده هو الذي يمنح الاستقرار لحق الحكام ، ومن خلال تكييفه التدريجي لأذهان البشر يصالحهم مع أي سلطة ، بعد أن يجعلها تبدو عادلة ومعقولة " ص 82 ,,الإرهاب المقدس (12) لتيري إيغلتون" إلا أن ديونسيوس يرى أن القوة السياسية مؤسسة على ذاكرة متلاشية والنسيان هو العقار المقوي الذي يسمح للحضارات بأن تعمل بنحو فعال ، كل ذلك يجعلنا

نؤمن بأن إرادة الجماهير الواعية والمصحوبة بإرادات الأفراد المبدعين والنشاطين يسهم في تلاشي الفجائع مع الزمن ويفتح الطريق للأجيال المستنيرة أن تبدل المآسي والفظائع مع الوقت، وما الحرية سوى وحش أخرجته السلطة القامعة من نفوس معتقليها وجماهيرها الغاضية ، حيث تنطوي النفس الغاضبة على حرية وحشية تقتحم المسكوت عنه وتنفث من أحشاءها نيراناً حمراء تحرق كل شيء ، هذا ما ينبه إليه حليم يوسف في معرض هذا الجنون السلطوي في اقتلاع كل شيء في طريقه ، فيقول هيجل في كتاب "فنومينولوجيا الروح" إن غياب الاختلاف مرتبط مع قوة الموت المدمرة ، أو بما يدعوه إرهاب الموت " وهكذا يرسم حليم يوسف مع موت آرام وخروج المعلم آلان وبقاء سالار في السجن بداية مرحلة جديدة تعج بالانتفاضة والصخب ، حيث تتحرك الوحوش من مخابئها وتنهض رويداً رويداً ، الوحش الذي بالداخل يرمز إلى الهدم كما إلى الخلق ، ويمكن أن نصفها بالثورة والتي تحتمل أيضاً المعنى الإيجابي والسلبي ، ويحصد المجتمع ريع انتفاضته، ولا ضمانة من انتقال السلطة من حال لآخر إلا من خلال تحكم المعرفيات والمعرفيين بمفاصل الانتفاضة وإدراتها بما يخدم الأفكار الجديدة وتطويرها بالتزامن مع نبرة الرصاص أي الانتفاضة المسلحة، لنتأمل هنا ص 239 : ,, تبَّلد الإحساس بكل شيء وخاصة الزمن ، لم يعد هناك معنى لليل أو للنهار، لهذا الرقم من السنوات أو لتلك ، فكلها سواء ولطالما أنها تمضي متشابهة رتيبة، لا لون لها ولا طعم، لاشيء يمكن التخطيط له بين تلك الجدران، ولاشيء يمكنه أن يجلب الفرح طالما أن البقاء هناك

" بات قدراً، لذلك فقد مرت تسع سنوات، عشر، إحدى . عشر ، لا أعلم

يتميز الحديث عن تجربة السجن بكونه حديث شفاف ومرهف ينمّ عن قدر هائل من المشاعر النفسية المختلطة، وتصوير الأدب لها يمثل في دلالته معلماً حياً

على مواكبة الكاتب للحدث مهما بلغت حساسيته فالتعبير عن محنة السجين مثّل غوصاً إيجابياً في حياة الإنسان المقهور وتصوراته المليئة بالمغازي والكثير من العبر ، لهذا وجب على المتتبع لحالة المعتقل أن يكون مرهفاً بما فيه الكفاية ومواكباً للتجربة بكل حيثياتها الداخلية النفسية ، حيث عالم السجن المترامي بشحوبه انتقل إلى الورق ليتجسد كوجدان معطوب ومتألم حتى النخاع ، يسلط حليم يوسف الضوء على سعي الجهاز الأمني المشرف على تعذيب المعتقلين إلى تحويلهم لوحوش، يمكن استخدامهم فيما بعد وإطلاقهم ليمارسوا تشددهم الديني وليكونوا من كبار اللاعبين على الساحة المنتفضة على نظام الحكم، تجسيد الممارسات إشارة إلى الغريزة السلطوية المباعدة بين الإنسان وإنسانيته، والمفسحة المجال للتوحش أن يتقمص داخل المرء ويستحوذ عليه ، إن خروج هذا الوحش من الداخل مطلب النظام البعثي المستميت في البقاء حاكماً مطلقاً على جغرافية وطن مصطنع نشأ وليد اتفاقية استعمارية بين الإنكليز والفرنسيين ، فما ترسخ واقعاً إثر ذلك قاد إلى إيجاد تركيبة نظام سلطوي اتخذ البطش بلا حدود كوسيلة للبقاء والديمومة، فأمام ذلك الحيز الزمني الطويل والرتيب للمعتقل ، فإنه يستحضر الكثير من الأحداث المتعلقة بماضية بدقة لا متناهية إلى جانب محاولته لتخيل ما سيكون مستقبلاً ، حيث اعتمد نظام البعث على الاعتقال والمجازر في البقاء لغاية ذلك الانفجاز الحتمي، والذي انبثق عنه خراب آخر لا يقل إجراماً ووحشية عنه ، أراد حليم يوسف التمعن فيه ليؤكد على فكرة رئيسة مفادها سعي النظام الأمني من خلال وحشيته على إخراج الوحش داخل معتقليه ومعارضيه ثم إطلاقهم ليمارسوا ذلك التوحش لاحقاً، الألم المدوي في أعماق الذات تحت رحمة الوقت الذي يمضي ببطء، زمن يتميز بفظاظته وصعوبة مروره كأنه وزن زائد، فالأفكار الناتجة عن فهم الحدث ومواكبته ،

تتميز بواقعيتها وقربها من النفس ، تستحوذ على الذهن بيسر وتشكل القاعدة الأساس لتبني فكرة أو رأي معين ، حيث يقول الكاتب السوري (13)مصطفى خليفة، في روايته القوقعة : ,, أتذكر قولاً لأحد أساتذتي المرموقين : إن لحدث مهما كان صغيراً ، فإن المخرج الجيد يستطيع أن يصنع منه فيلماً جيداً ، الحدث هو الهيكل العظمي وعلى المخرج إكساؤه باللحم والثياب"

فهم الحدث لا يقدم فناً فحسب وإنما يساعد على فهم سلوكيات النفس البشرية ويعمد لاكتشاف التفاصيل المتعلقة بصناعة الخوف والنظام السلطوي الذي فهم تاريخياً أن السبيل لبقاءه هو الإمعان أكثر في البطش والإيذاء، ذلك ينقلنا للتاريخ الذي يعكس جملة من الحوادث المتعلقة بطبيعة الصراع الذي يواجه السلطة الاستبدادية كل حقبة، وأدوار الفرد في خضم الاضطرابات الناشئة عن ذلك الاحتكاك والتصادم المؤلم.

سلطة البعث وحربها ضد الإنسان

إنها تنتقم إن ناهضتها فئة أو جماعة أو فرد، وتجيد اقتناص الإنسان المناهض في الصميم ولا تدخر جهداً في أن تخلق منه فتات لحم متطاير إثر سياط ملتهبة تدع خطوطها على الجسد عميقاً ، لتموت العملية السياسية لصالح تشعب الخوف وتغوله، أجادت الرواية التعبير عن مخرجات الوجدان الإنساني الواقف أمام التعذيب والتغييب، تود السلطة إيجاد الفرد المنطوي ، العصبي النرجسي الغارق في عيشه مع نفسه ومعاناته داخل المعتقل، تريد فرداً يائساً محبطاً بعيداً عن السياسة وقد نجحت سلطة الأسد الأب والإبن في خلق هذا الأنموذج بالتقادم والتدرج، فها هو سالار يلتحق بركب آلان في المكوث معتقلاً ، ليقضي حقبة

الموت الذي يتخلله الوجع والانتهاك للوجدان والكرامة ، وقد استطاعت سلطة البعث السوري كما العراقي الامتطاء على البشر على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم ، ونجحت في تفتيت المجتمع وتأليب بعضه على بعض ، فكان ما يسملا بالوطن معتقلاً كبيراً يتزاحمه الخوف إلا أن غاص في مستنقع الفوضى اللامنتهية والذي عرف بالربيع الدموي ، التوحش الذي تعتني به السلطة الفئوية داخل معتقلاتها ظاهرة ليست بجديدة تاريخياً ، لكن يتم تطويرها مع الزمن عبر ابتداع أساليب التعذيب لحصد ردة الفعل ضمن إطار ممنهج يخدم السلطة نفسها لمواجهة خصومها الألداء، حيث إطلاق سراح الإسلاميين من السجون والمعتقلات ، أجهز على تلك الهبة الشعبية من بداياتها ، عبر شعار الله أكبر وانطلاقة الجموع المنتفضة من المساجد في كل جمعة ، لم يكن ذلك مصادفة وإنما خطة تم الإعداد لها بغية وأد الحراك وإخصاءه، أشار لها حليم يوسف في روايته لنتأمل هنا ص 243 : „ اشتعلت الحروب الصغيرة في كل زاوية من زوايا البلاد، وكشرت الوحوش عن أنيابها وتسابقت على نهش أجساد من تبقى من البشر ، وأبدعت الوحوش في أساليب تعذيب خصومها وقتلهم بطرق مبتكرة ، وعلقت الرؤوس البشرية على عواميد أسيجة المدن وغطت مناظر الصلب والذبح وسلخ الجلد على المشهد، بدأ بعضهم يتحدث عن بطولات أجدادهم الذين كانوا يطبخون رؤوس أعدائهم ويأكلونها ، فأكلوا هم

" أيضاً أكباد البشر وقلوبهم أمام عدسات الكاميرا

فالهتاف العكسري الذي كنا نردده في معسكرات الصاعقة يثير الانتباه ويتعلق بتمجيد الرئيس على وجه الخصوص لنتأمل هذا الهتاف الهستيري : نار نار نار ''كلنا ثوار \ نفدي الوطن """ نفدي العلم "" نفدي الفريق بشار\ سوري سوري سوري

,, ""الجيش العربي السوري "" أسود وحوش """ بشار بشار بعث
في هذا الهتاف نجد أن بناء الإنسان يعتمد على التوحش ، واتخاذ الوطن وثن ، وكذلك اعتبار الوطن وشخص القائد على ذات المرتبة ، والتي يجدر على الجنود أن يفتدوه بأرواحهم، وكذلك فإن هوية الجيش عربية صرفة، وتابعة تماماً لحزب البعث العائد لشخص واحد يحتكر الدولة والمجتمع، وكل شيء ، فعلى الجندي أن يتوحش وأن يكون أسداً ولاشئ خارج هذا الشعار يعنيه، تربية الجند على أن يكونوا وحوشاً هو جزء متمم من التوحش الممنهج الذي يستخدم بوصفه وسيلة لتعطيل القيم وترسيخ سلطة البعث المتمثلة بسلطة القائد الرمز، وبقاءه في الحكم ، أمثلة العنف تم استجلابها من الكتب المقدسة التي تصف الحوادث المتعلقة بمراحل نشوء الدين وترسيخه سياسياً، والظروف التي دعت لتبلور ذلك حياتياً ، حيث عقل الفرد معبأ بمواد الانفجار على الصعيد الأسري والتعليمي، وكذلك عبر اختلاطه بالآخرين ، من الطبيعي أن تنتهز السلطة السياسية ذلك وتستعمل العنف عبر إدخاله في المنهاج التربوي التعليمي الذي تلقفه الطلبة منذ ذهابهم للمدرسة وانخراطهم في التربية والتعليم ، لقد حمى النظام البعثي نفسه حيث أخرج الإسلاميين من المعتقلات ليتم بواسطتهم تدمير الثورة وإزاحة ذوي الكفاءات القادرين على تحريك الشارع والرأي العام ، واستفاد بشكل أو بآخر من صعود الإسلام السياسي في تركيا والذي سخر هذا الأخير الإسلاميين لبلوغ غاياته في الدخول للملف السوري واستخدام الجماعات الإسلامية كوسيلة للهيمنة وكذلك فعلت إيران عبر تجنيدها للجماعات الشيعية وهكذا بدا التوحش عباءة إسلامية طائفية مشبعة بأسباب الحقد والكراهية فبسم إسقاط النظام جرى إسقاط الشعوب وقصف منازلها وقطع رؤوس الناس تحت مسميات وذرائع عديدة ، لهذا باتت الأصولية الإسلامية بمثابة الوحش المعاضر الذي يبقي على

الاستبداد لأمد أطول ، لقد تم تغذيته بأصول القتل التاريخية ، وتطعيمه بالكثير من الأساليب الحديثة للإرهاب، لأن ذلك يسهم في الإبقاء على الهيمنة الأحادية على العالم ، وكذلك التدخل بمصائر الدول من خلال يافطة مكافحة الإرهاب الإسلامي ، حيث يتعارض الإرهاب مع الأخلاق والقانون ، يتعارض مع الحرية والديمقراطية وينتصر للفساد لكونه من مفرزات التفتيت الروحي للمجتمع، فالمفردات النابية والقاسية المحاصرة للمعتقل السياسي، تتعارض مع القيم والوجدان الإنساني وتخلق مآس فردية تظل آثارها زمناً داخل الإنسان ، هذا التدمير المعنوي لابد وأن يقود عبر مراحل لفقدان الحرية والكرامة ، فقد تم الإطاحة بالله تحت بند نشر شريعة الإسلام بالقوة ، وتم الإطاحة بالقانون عبر الدعوة لإسقاط النظام السياسي، إذ لا تتلخص الثورة بردة الفعل إزاء ممارسات سلطة معنية ، وإنما هي مجموع إرادات وأفكار تسعى للولوج داخل المجتمع المقموع لتكون نواة للتغيير وليس مجرد تصفيات حساب سلطوية بين طرف يسعى للهيمنة على السلطة وهدفة إسقاطها، واستبدالها بسلطة لا تختلف عنها، إن تلخيص الثورة بتبديل هرم السلطة بآخر هو تحوير فظيع للحقيقة الاجتماعية ومحاولة خبيثة للقفز على أحلام الناس في العدالة الاجتماعية والتحول الديمقراطي ، هذه الإستماتة في الوصول للسلطة دون التغيير في بنيتها ، جعل الفساد الاجتماعي ينمو ويزداد بإطراد على حساب مكافحة النخبة الواعية الباحثة عن سبيل للتغيير الجوهري وإيجاد مشاريع تنموية قادرة على تبديل الواقع القائم بخلق واقع أفضل، بيد أن الخراب الذي عمّ في كل مكان والتراجع الاقتصادي ودمار البنية التحتية حال دون بلوغ الهدف المبتغى.

التبحر في الحديث عن ما يدور في أروقة المعتقلات يمثل نقطة الركون في متاهة الوجدان الفني ومدى ارتباط الفن بالمأساة ، بخاصة أنها تعمد عن

الكشف عن مصادر القلق لدى المرء من المجهول ، والغد الذي يوقظ في المرء شهوة التساؤل ، حيث تجربة السجن توقظ لدى سالار الرغبة في الصراخ والتعانق مع الحرية من خلال ذلك الخروج المتوثب من الزنزانة للحياة حيث الناس والشوارع الواسعة وصوت الأزقة وما يعتلي ذلك من ضجيج وحياة تبعث على التدبر والخلو إلى النفس واستحضار صور ومشاهد تختزل الماضي بدقائق ، الماضي الذي لا ينفك عن حياة المرء ، بخاصة الحالمين ، ممن يتدفقون أحاسيساً ومعاناة ، ويلتزمون بمبدأ الذود عن أنفسهم مقابل هذه القتامة التي تترصد حياتهم بكامل لحظاتها، حيث يقدم الفن تلك العلائق اليسيرة بين الأحداث المعتمة والقيمة التي تتوارى وراءها وهي تتعلق تماماً بالإرادة ومعنى الغوص في الآلام لصناعة الجمال ، لعل الاعتقال كحدث روائي يستدعي الإنفجار الإبداعي ، الناجم عن معاناة تحيط تواريخ الألم وتقدم تفاصيل تبحر المدرك للكون في عتمة الإنزواء في سجون القهر، فمع بروز القهر السلطوي تستمد الرواية الإنسانية قوتها حسب درجة إدراك الفرد لهول البؤس ومساعيه لدفعها بالقوة ذاته ولكن على نحو مغاير ومتحد بالفن وجمالياته، فهذا الصراع العقيم بين قوى السلطة القائمة والمناهضة ، جعل المجتمع في حالة من استنفار وتأهب ذهنية ، وقاده لميادين الاحتقان ليكون الضحية أبداً، وهذا ما عمق ذائقة الأديب وجعلها هاوية لرصد الفجائع والإلمام بها وتداعياتها، إذ يعتمد المبدع على الذاكرة وكذلك التماهي بالتجارب المعيشة والمفصحة عن تجربة المجتمع في ظل تقهقر النظام الاستبدادي وإرهاصاته، حيث يقدم الاعتقال تجربة مهمة للمعتقل ، وتجعله يمعن في الحياة من زاويتها الحادة المتعلقة بالألم، ويفصح عن استماتة السلطة الشمولية في قتل الإنسان وتدميره بشمولية دون رحمة إمعاناً في تدمير الحياة دون هوادة ، وكذلك طمس معالم الصفح والنظر للاعتقال

السياسي بكونه أحد المعرقلات الكبيرة الحائلة أمام نهضة المجتمع ومساره نحو الديمقراطية ، إذ يتحول كل شيء لغبار ودخان متصاعد إزاء اختناق الكون وحصار النفس الحالمة ، وتخريب الملكات ، حيث يقول نيتشه (14): "نحن لا نتحرّر إلا من خلال التذكّر"، ما يضاعف من دلالات التذكّر داخل السجن الذي تتعطل فيه الحياة. وهكذا يمكن فهم الرواية من زاوية التذكر وفهم المغزى من النهوض بأزمات الإنسان ، والبحث عن حلول وبدائل زاجرة لهذا العنف والتوحش ، حيث يقول ميلان كونديرا: "إن صراع الإنسان في الحياة هو صراع الذاكرة ضد النسيان". وهنا لا بد من فهم سلوك المبدع للتدوين على أنه تحدي للواقع المرير ورغبة منه في إيجاد حلول لهذا الواقع المضني ، حيث يمثل المعتقلون على اختلاف اتجاهاتهم طبيعة ذلك العقد المنفرط بين الدولة والمجتمع، وبقاءهم في الزنازين هو بمثابة خضوع المجتمع بكامله

يتدرج حليم يوسف في الصفحات الأخيرة من روايته في الحديث عن مآلات الأحداث في غربي كوردستان ، بنشوء قوات الحماية الشعبية التي أخذت تسيطر على الوضع هناك، وتنشأ نظاماً وبنية تنظيمية ثابتة أخذت زمام الصعود رويداً رويداً ، فحميدو هنا يستشرف عبر منحوتاته ظهور وحوش متعددة الوجوه ، مختلفة الأحجام ، ستسود الحياة عند نشوب حرب ضروس تدمر كل شيء ، أما عن سليمو فقد انصرف هو الآخر نحو الإعتكاف وقراءة القرآن ، وباتت هيئته غير مألوفة ، فهنا نتأمل ص 258 : „ كدت أموت من الضحك عندما كنت أقارن بين سليمو الغارق في دخان كثيف على الدوام في المرسم آنذاك وبين سليمو الإمام الذي يعتلي المنبر ويحض المصلين على الجهاد " ونجد هنا في الصفحة التالية ، يستكمل حليم يوسف دلالة تصرفات سليمو وتطوارتها ص 299 :" كان سليمو يقود في تلك المنطقة تنظيماً ملتحياً يتسابق الجهاديون من

كل أصقاع العالم على الإلتحاق به وقطع مئات الآلاف من الكيلومترات لخوض تجربة الذبح وسلخ الجلود البشرية وقطع الرؤوس ، كثيرون منهم أصابهم الجنون وهم في طريقهم إلى أرض المعركة ، وقد تضخمت أجسادهم وتحولوا إلى وحوش مهيأة للانقضاض على كل من يقف في طريقهم " فهنا يتحدث الكاتب عن التوحش المتبادل ، حيث القتل والموت والدفاع عن البقاء ، وهو في دلالته الحية والبعيدة توحش متبادل وصراع محتدم ، حيث القوة تستوجب ذات القوة في ردعها ولجمها ، وهكذا يسود العنف العالم الداخلي للمجتمع وتواكبه الرواية التي تستشف حياة بمنتهى الضجيج والقسوة ، إذ يهتم الكاتب بالمجمل بحياة الشخوص ومآلاتهم ، لكنه يحتفي أكثر ببطل الرواية من الناحية الوجدانية وينحاز لها ، إذ يواكب ذلك الحدث الوجداني المتعلق بعلاقة الرجل والمرأة ، وتلك الظروف القاسية المحبطة لعلاقتهما مع مرور الزمن ، يعود بنا إلى علاقة الحب بين سالار ومريم ، وكذلك سعي سالار للبحث عن أخبار حبيبته المتزوجة والمهاجرة إلى ألمانيا، نلحظ تتبع الكاتب لظاهر وباطن تلك العلاقة بما تحمل من أحزان وخيبات نفسية، لعل استقصاء اللغة الدرامية هنا بالأمر الماتع والمليء بالأسرار الفنية والتي لا تنوء الرواية عن حمل مقاليدها ، هذه اللغة الموغلة في قلب المغترب عن عالمه وكونه ومجتمعه ، وهذا العبء الجغرافي الذي يحمله الإنسان الكوردستاني جزء من أزمة سلطوية متفاقمة ، في عموم الشرق الأوسط الرازح تحت هيمنة السلطات القومية والمذهبية، وقد تقصَّد حليم يوسف إيجاد حب في المقبرة ، حب يموت في بدءه ويتعفن في نهايته، ليغدو مصدراً للمشاعر المتناقضة والتي يسودها نقيض من الشوق والألم والغضب لنتأمل هنا أيضاً ص 262 :" فتحت الصندوق ، بدت الأوراق قديمة ، مصفرة مهلهلة كروحي ، لفتت نظري ورقة صغيرة كانت لا تزال تحتفظ بنضارتها ، كانت مريم قد خطت عليها

جملة وحيدة يتيمة :"أحببتك كما لم تحب امرأة رجلاً من قبل ,, تحركت في صدري مشاعر مختلطة ، هي مزيج من الغضب والحزن والخيبة والفرح ، سررت بهذا الإعتراف الصريح وأحزنني الشك بمدى صدقها في هذا القول ، قفز إلى مخيلتي هذا السؤال : إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تنتظر" عودتي ؟

يبقى الحب حاضراً وشريكاً في لعبة البناء والهدم، فالرواية الواقعية لا تنفك عن الرومانسية ، والذاتية لا تستطيع لجم ذاتها حينما يكون التعبير عن الوجدان عارماً، وبطريقة ذكية يتم الولوج لعالم الأفكار والتزواج ما بين الحسي والمعنوي، لتركيب العالم بفنية ، تمزج ما بين الواقع والخيال، لتحقيق قدر بالغ من التأثير على القارئ، ليكتشف الحياة في قالب فني ، ذلك الاقتران الماتع ما بين اللغة الوجدانية والفكرية للكاتب ، يسهل الطريق للمتتبع والمنقب للإحاطة بجوانب الرواية ويدفعه للتساؤل ، فكل التحولات التي يعيشها سالار بعد خروجه من السجن باتت تنصب ضمن دائرة تحوش الناس واغترابهم عن حقيقتهم الاجتماعية شيئاً فشيئاً ، لقد أراد الكاتب نهاية تراجيدية لروايته شبيهة بأحداث ما بعد 2011 وما تلتها من قصص مفجعة إذ تغير شكل الناس وتغيرت نظرتهم للواقع ، اختلفت الحياة واختلطت عبرات الناس وتقاسيم وجوههم بشحوب الحدث ، ودائرة الاغتراب النفسي اتسعت وتشعبت ، وتضاءلت بالمقابل من ذلك فرص العثور على السعادة والطمأنينة.

(–قراءة في النسخة الكوردية لرواية الوحش الذي بداخلي الصادرة عن دار –بيوند)

تأملنا للنسخة الكوردية سيدفعنا لاكتشاف أساليب عرض الفكرة وكذلك التنقيب في حيثيات الفوارق بين النسختين العربية والكوردية ، وفهم البناء الفني تبعاً لتبدل اللغة ، كوننا هنا نمعن في فهم الإسلوب وطرائق تكوين المناخ الروائي وخلق الإنسجام في النص وبلوغه مستويات متباينة من التأثير والإمتاع ، نلحظ أنه بدأ سبر الميثولوجيا لفهم جذور الوحش الضاربة في القدم ، وكذلك سعي الجنرال العسكري في تدجين الوحش والعناية به من خلال القسوة الممنهجة ، ليتم إطلاقه بعد استيفاء مراحل التعليم ، حيث الولاء للبطش والقوة ، منطق تحويل المجتمع إلى كتل من رماد تذورها

: الرياح ، حيث اتخذ الوحش مراميزاً عدة

الوحش بكونه نظام سلطوي تاريخي يتم تحديثه باستمرار ليلبي حاجة الفئة الحاكمة في البقاء متمتعة بالنفوذ والثراء الفاحش والهيبة العسكرية

الوحش الساعي لتجهيل المجتمع وملاحقة المعرفيين ، أصحاب الملكات ودعاة التغيير ، إما عبر اعتقالهم، أو تصفيتهم أو إبعادهم الوحش لما له من جذور ميثولوجية ودينية تتصل بالمقدس الذي يؤمن به الناس على اختلاف شرائحهم .وفئاتهم الوحش المتجسد في خليط العادات والتقاليد الاجتماعية المدينة لولي النعمة والداعية إلى الإمتثال له كون الخضوع للرئيس من الخضوع لله

الوحش هو المرابط الوحيد على جبهات التصدي للدمقرطة الجوهرية والكابوس الجاثم في المؤسسات والدوائر الرقابية وكذلك تجسد في سعي النظام البعثي

للتفنن في تعذيب خصومه على اختلاف اتجاهاتهم اليمينية أو اليسارية أو العمل على ضرب تلك الأوتار بعضها ببعض محدثة ذلك النشاز العظيم والجلي في أحداث ما بعد 2012 عبر عسكرة الانتفاضة الشعبية وإطلاق العنان للجماعات الأصولية في الفتك بالمجتمع، وهكذا استكملت الأنظمة الإقليمية الشبيهة بالبعث فصول هذا التآمر على الشعب في اغتيال جنين الديمقراطية الكامن في رحم المجتمع.

التركيبة المتمردة لسالار بطل الرواية

نظراً لمرحلة الطفولة ، نجد حليم يوسف قد أسبغ على الشخصية بعداً رفيعاً عبر جعل ولادة سالار مصدراً لبروز نقيض السلطة الاستبدادية، وكأنه أراد عبر تجسيد ولادة الأم المتعسرة أن يقرأ طالع البطل البعيد، وما الذي سيؤول إليه حاله مع مرور الوقت، ينبس بكلمات تفوق عمره، وتزرع الهلع في قلب والدته التي تحاول مراراً زجره، لتحول دون أن يستمر في طرح أسئلة تثير الدهشة والخوف ، صوت الآذان وحشرجات الألم المنبعثة ساعة الولادة، إشارة إلى حياة لا تخلو من الصعوبات

والحوادث الجسيمة، نتأمل أسئلته هنا ص 14

- هل القائد يتبول مثلي أمي ؟

-ترى هل الله أكبر أم الرئيس ؟

- أمي هل سيموت الرئيس ؟ ، متى يموت ؟

تمر الأيام وتبقى الأسئلة جافلة في مكانها والدهشة تعقد دبكاتها على الشفاه دون طائل ، فالبطل بالنسبة للكاتب هو الوسيلة الرئيسة لبث الفكرة في السرد

كما ضخ القلب للدم عبر الشرايين والأوردة لكافة أنحاء الجسم ، يستعين الكاتب بلا شك بذكريات الطفولة في مناخ ريفي شجي يعكس البساطة والفطرة الطبيعية، مشهد جلوس طوال القامة من التلاميذ في المقاعد الخلفية، وتأثر سالار بقراءة المعلم آلان للقرآن، كلها مشاهد تحفل بها الذاكرة في الواقع، تختزلها ذاكرة الكاتب بما تحمل من عوالم بريئة وبسيطة تبعث على التدبر والتأمل في الحياة ، حيث أوجد حليم يوسف تلك الصلة الروحية بين سالار ومعلمه آلان ، فهما من جيلين مختلفين يعانيان واقعاً متشابهاً وممتداً ولاسيما أن لهما القدر ذاته وهو الاعتقال والسجن، الاعتقال ينقص الأعمار ويجعل من عقارب الساعة تضطرب داخل أروقة السجن ، دعوى التغيير تحيط الذهن على الرغم من عظم التوحش وتغوله , تحكمه بكافة مفاصل الحياة، ففي ظل طغيان الاستبداد لا يجد آلان من بد سوى أن يعيش بمنطق من يساير ويجازف في آن ، لعل أملاً يلوح في الأفق ، أمام ضغط الحياة المعيشة ، يتضاءل صوت العقل بتصاعد صوت الوجدان ، وتسير الرواية على خطوط التماس ما بين العاطفة الهائجة والواقعية الموضوعية ، ، حيث أمام تعطل الحل وانغماس الإنسان في البحث عن لقمة العيش ، نرى الجماعات لا تفكر وإنما تسعى لتأمين الحد اليسير من الحياة المثلى ، حين يصبح حجم شخص يدير البلد بحجم الوطن أو يزيد، يختنق الإنسان وذلك الوطن ،هذا الولاء المضطرب شكّل حلقة قيد حول عنق ويد ورجل المواطن، في بلاد غارقة في مستنقع الاستبداد والفساد والطائفية المغلفة بخطاب قومي شوفيني متكلس، تقوم بتربية الأفراد على أن يكونوا عبارة عن مخبرين وجواسيس أو أذناب للسلطة أو لمجموعة مضطربين ومغتربين عن واقعهم، يتربص بهم الاكتئاب والحنق إلى مالا نهاية،حيث يتضح لنا أن أهداف الاعتقال السياسي هو لأجل لجم العقل عن التفكير ، ذلك سيتيح للسلطة الفئوية البقاء

أطول أمد في الحكم ، محولة المجتمع إلى قسمين مؤيد ومعارض لها، وكلاهما وقود تدفأ بهما السلطة نفسها وقت الحاجة، فالديكتاتورية تنشأ مجتمعاً على شاكلتها ليكون مضاداً للفئة المقابلة منها، إن من أكثر الأخطار صعوبة في ردعها هو أن يتحول الإستبداد لعقيدة مجتمعية، فباسم حماية الوطن من المؤامرات الخارجية يصطف المجتمع المؤيد بقوة وراء خطاب السلطة الشمولية، ضد الفئة المناهضة والرازحة تحت خيمة الهجرة والنزوح ، هذا التفتيت من شأنه أن يقوض أي جهود فردية لمناهضة النظام السياسي، حيث يعتبر الصراع الإجتماعي بين الفئات والشرائح لأجل مصالحها وبقاءها من الأسباب غير المباشرة لتغول السلطة واستمرارها في الإقصاء وحربها ضد الديمقراطية، حيث نفهم ذلك النهج السياسي بكونه استماتة في احتكار الاقتصاد وتمجيد الفساد كمعبود تاريخي ،ولا ريب أن الديكتاتورية تبرر لنفسها البقاء على ما هي عليه من خلال عدة مسميات وعقائد برّاقة، حالها كحال الشجرة الخضراء غير المثمرة ((15)ديكتاتورية البروليتاريا) (البعث الاشتراكي)القمع الإيديولوجي ثوب برّاق كثوب الراقصات ، وهو ما تستسيغه السلطة البعثية في دغدغة الجماهير وتنويمها ولاشك أن البعث خلّف جراء تحذو حذوها وتعمل على تفخيخ الجماهير من خلال الشعارات و تمتهن اللعب على الحبال أكثر من القردة نفسها، حيث يصور الكاتب أشياء خبرها الأطفال في المدارس الإبتدائية إبان حقبة حافظ الأسد، والمسيرات الإجبارية وكذلك حالة خوف الأهل من ألسنة أطفالهم ، حيث أن ذلك مدعاة هم وقلق كبيرين، يتم ترسيخ التجهيل لإيجاد الشخصية التلقينية ، والممارسة ضدها ذلك التلاعب الإيديولوجي بالواقع، وتحوير الذهن وغسله ، فالذين يهرعون جموعاً لحمل صور القائد وفق تعبير حليم يوسف هنا :ص 20 الشوارع والميادين، الأزقة وأروقة المدينة باتت مكتظة بالناس في ذكرى ميلاد

الحزب السلطوي، اصطفت جموع الناس الآتية من كافة جهات الشارع بشكل مختلط، عند منتصف كل شارع أخذت جموع تلاميذ المرحلة الإبتدائية تتجمع مرتدية صدرياتها الخاكية، وكذلك جموع طلبة الإعدادية ببدلاتهم العسكرية الخضراء والرمادية، مصطفين على نحو فوضوي، حيث هرع كل تلميذ وطالب بحمل صورة الرئيس التي يمد فيها ذراعه باتجاه الأعلى ،حيث ضيعت الصور ملامح الجميع،نلحظ بروز النمطية الساعية لاستبدال الولاء للوطن بالولاء للقائد، وكذلك حالة الجنون الجماعية والإلزامية من تلك السلطة لدفع الجماهير قسراً للإمتثال اطقوس الحزب السلطوي، والطرف النقيض والمناهض للحزب الحاكم قد لا يختلف معه كلياً من حيث الإطار الإيديولوجي العام، وإنما يختلف معه في أنه ليس طرفاً أو شريكاً في إدارة الدولة، فالبعثيون الصداميون تعرضوا للإعتقال والاضطهاد السياسي من البعثيين الأسديين والعكس، على الرغم من اشتراك كلا الجناحين بذات النظرة السلطوية المتعالية إلا أن مصالحهما ورؤيتهما بالتالي للحل تتصادم بعنف، وينتج عن هذا صراع طائفي بلبوس قومي، وهذا ينطبق على كافة الأحزاب المنخرطة في السلطة وأخرى في المعارضة ، تجمعهما ذات المبادئ وذات العقلية وتفرقهما المصالح والمكاسب السياسية سواء كانت توجهاتها عرقية أو مذهبية.

يشير الكاتب إلى نقطة عداء سلطة البعث مع الفن ، كون الفن غطاء تمويهي عن كم الأفكار المناهضة لسياسة الحكم ، وظيفته التأثير على الجماهير على عكس أفعال السلطة الهادفة لتلويث ذائقة المجتمع عبر الترويج لما يمجّد القائد الأوحد، والهدف من إبراز شتائم المحقق والمعذب والسجان وتلك الجوقة ، مثال على نشر التشويه والانحلال الأخلاقي ومعاداة القيم المشتركة للمجتمع وارتباطه النفسي بعضه ببعض، في ظل بيئة تحوي خليطاً منسجماً من العادات والتقاليد

والنظرة للماضي والمستقبل،مشهد ضرب المحقق لوالد سالار، جعله غاضباً ومختنقاً حزناً ، حيث أخذ دموعه تعبّر عن حجم التأسف وتأنيب الضمير، أن يُضرب الأب أمام الإبن ، أمرٌ مؤثر ويبعث على الألم والغيظ في آن ، ثنائية السادية والمازوشية متلازمة السلطة البعثية والمجتمع البائس، إشكالية تطرحها الرواية على قدر عالٍ من الإحساس بالحدث وفعاليته الوجدانية على ذهن القارئ، حيث لا قانون ولا مبدأ لتلك السلطة الباطشة بكل ما هبّ ودب، هدفها الجلي هو حماية النظام العسكرياتي وصون الحكم الطائفي العائلي من كل تحدٍ، حيث لا قيمة للفردية في ظل النظام الشمولي ، ولا قيمة للحياة إلا ضمن نسيج عالم الحزب وفلكه، وهو ما يمكن تعميمه بالتآمر على العقل المعرفي ، وجعله عقلاً هشاً تالفاً فاقداً للإحساس بالمحيط والعالم الخارجي، محكوماً بالعزلة والولوج للموت، فالعنف الثوري سرعان ما يتحول لعنف سلطوي، ويصبح وسيلة تدمير للمجتمع، وتقويض لمدركات ومواهب الفرد في سعيه لحياة أفضل، ونظام يحرص على تحقيق الرفاهية والنهوض بالمجتمع وتنمية موارده، فما دام ثمة أناس يموتون من أجل الفرد المبجل ، فذلك يعني بقاء الإرهاب الدولي كنظام قمعي حقيقة ماثلة، فالإرهاب مرتبط بأولئك الذين جعلوا من أنفسهم قرابيناً للفرد، وجعلوا من أجسادهم ترساً لحماية النظام الذكوري البطرياركي، وقد حقق هذا النظام أهدافه الباطنية،بخلق مجتمع سلطوي منقسم على نفسه ويعاني من انفصام مبرر بأفكار تنشد للمثالية المجردة عن الواقع، فأحلام الدعوة للوحدة العربية جعلت المجتمعات تعتقد لأمد أن البعث هو الأساس للنهوض بالمجتمع العربي ، كما اعتقد البعض ذات حقبة أن الشيوعية هي الخلاص ، أو النازية هي السبيل لعرق صافٍ وقوي، فتكوين الجنون الجماعي تأصيل للإرهاب عبر

التاريخ والقوى الاستبدادية سلاسل كربونية لا تحيد عن غاية وحيدة وهي قطع صلات الفرد بواقعه وجعله إنساناً مجرداً من ذاته.

طبيعة النظام القائمة تقود إلى النزاعات الأهلية، ومدى تقارب ذهنية هذه الأنظمة ومعارضاتها ، يضع الكوردستانيين في تحدي مواجهة هذه السلطات، والحرب التي يشنها المعرفيون حرب نظيفة، تعبِّر عن حدتها بالفنون والآداب، فالرواية تشكل مساراً مضاداً لعقم السلطة، وتتخذ لوناً متمايزاً عن السياسة في أنها تستخدم سحر التخييل والوجدان الجمعي من خلال تشغيل اللغة وتوجيهها للداخل المرهف، إن المسار الروائي يفرض مناخاً متعدد الأحاسيس والمشاعر، إذ تقيم عالماً على أنقاض عالم تتنازعه الأهواء البشرية والمصالح المادية، إذ تعمل الرواية الوطنية جنباً إلى جنب مع الحس السياسي الذي ينشد التغيير، ويحاول إيجاد مناخ إيجابي بين الناس ينزع للخير والحق والجمال ، كمبادئ تستقيم مع الحاضر وتوجهات الإنسان نحو مستقبل أفضل، قراءة العالم وبيان موقف الإنسان من سلوكيات السلطة المقززة، هي أحد أبرز سمات هذه الرواية فهي تفصح عن إمكانية الإنسان في المواجهة حتى لو كانت ضئيلة، فقد أراد حليم يوسف أن تكون شخوصه متينة في التصدي للمؤامرات التي تفرضها السلوكية الوحشية على الأفراد، لتجعلهم ينساقون إلى الظلام والوحدة، ويخوضون في دوامة من الاغتراب بلا هوادة، وقد عرّف الكاتب سوءات النظام الشمولي ومحاولاته في تمجيد الخوف وفرضه كمبدأ معاش في الذاكرة الجمعية ، لهذا تجسد المشهد المقابل الذي ينتصر للجمال كثورة والفن كنهضة ، لم يغب عن الكاتب هذا القتام الهائل من العتمة والضياع في بوتقة الخراب الناشب مخالبه في الأجساد والأذهان والذاكرة، وكذلك موت الحب في ظل طغيان الاستبداد، وانسياق الناس إلى طباع الخشونة والتوحش شيئاً فشيئاً وبروز ذلك الوحش

المروض خارج الأعماق مع بروز الجماعات الإسلامية ومقابلها من قوى شعبية ساعية إلى حماية أمن الناس من مخاطر تداعيات الهبة الشعبية التي قلبت الطاولة على الجميع وبدّلت الكثير من المواقع والأماكن ببروز الخراب والهدم المرافق لعملية التغيير إن باتجاه الإيجابي أو السلبي، ففهم الرواية استناداً للواقع المتغير ضرورة معرفية، وسبيل لفهم ذلك الجسر ما بين الفكر والأدب، أو الأدب والسياسة في مدى تقاطعاتها واتجاهاتها المشتركة في فهم الإنسان وسلوك المجتمع ومواكبة تفاصيله استناداً للحقبة الزمنية والجغرافيا وأنماط التفكير المتباينة.

الكاتب يمعن في تأمل جذور الاحتقان الأهلي الذي رعاه النظام البعثي في ضربه للسلم المجتمعي، وجعل المجتمعات تتفرق سياسياً وتنظر للإنسان الكوردستاني بوصفه الخطر المحدق وهو بذلك يشترك مع الجوار السلطوي التركي أو البعثي العراقي وكذلك الإيراني في ذات النظرة والأسلوب المطبق في وأد الاستقرار الاجتماعي وترسيخ حالة الطوارئ داخل الناس، بتربيتها على الخوف من بعضها بعضاً ناهيك عن ذلك الخوف الجمعي العام من مغبة التفكير بمناهضة النظام السلطوي الممثل للحس القومي العنصري لذلك البلد وصمام أمامه في مواجهة الأخطار الخارجية والتحديات الداخلية الممثلة بالكورد ، عملاء الخارج، وفق تعبير رعته تلك الأنظمة القمعية ورسخته في أذهان مؤيديها، لنجد تلك الفئة السلطوية توافق السلطة في أي مشروع تصفوي عرقي ضد الكورد، وبإمكانها أن تضع خلافاتها مع تلك السلطة جانباً ، إذ كان الثمن تصفية الكوردستانيين وردعهم بشتى السبل ، لهذا بقي خطاب السلطة والمعارضة موحداً وقاسم تلك الأنظمة ومعارضاتها مشترك في صهر الكورد أو تصفيتهم دون أي وزاع أخلاقي أو إنساني، فالرواية الكوردستانية (حليم يوسف أنموذجاً) تتحدث

عن طبيعة هذا العقد الممزق بين الحاكم والمحكوم ، وكذلك بين المؤيد والمعارض ، وفجوة الخطاب السلطوي الذي تقدمه القوتين المعرقلتين للديمقراطية وبروز نظام تعايشي لصالح مجتمعاتها، رواية(الوحش الذي بداخلي) صالحة للقراءة المركزة على طول حقبة الحرب الأهلية السورية والمسماة زوراً بالثورة، والتي تعرت تماماً بانخراط فصائلها لمشروع أردوغان الإبادي ضد الكورد في قضم غربي كوردستان وسوريا على مراحل ،ووضع النظام البعثي نفسه موضع المتفرج حيال هذه الإبادة الجارية ،مروراً بأزمات الشرق الأوسط على اختلاف مساراتها وتحولاتها السياسية و انتهاء للأزمة على المدى غير المنظور ببروز نظم سياسية استفادت حقاً من الكوارث الإنسانية التي نجمت عن تعنت الفاشية القومية المطعمة بإرث الإسلام السياسي الطائفي.

يشير الكاتب أيضاً إلى حقل التعليم وممارسات القائمين عليها والمتقاطعة مع أساليب رجال الأمن مع المشتبه بهم، عبر السخرية من التلاميذ والإنقاص من شأنهم وزجرهم وكذلك استخدام العنف ضدهم ، بتوصية من السلطة السياسية نفسها، إنها التربية النازية والتنشأة العسكرية للجيل ليتشبع بالقسوة والتطرف ، فالطفولة منتهكة ومغلفة بطابع لا ينسجم معها، حيث لا تحفيز بل تطعيم الذهن بمفردات الخشية من تجاوز الخطوط الحمراء، والخضوع لمبادئ الحزب الحاكم والقائد الأوحد، إحياء التحية النازية في نشيد العلم بمسمى طلائع البعث، وكذلك جعل الأطفال في حالة خوف وهلع في المدرسة حيث اقترن التعليم بالتربية وبات كل مشرف أو معلم يمارس سطوته بطريقته دون رادع أو قيد، حيث أو سوري الانتهاكات بحق الطفولة مبررة بحجة تنشأة الجيل على الحزم والصرامة وحب الوطن، ففي ذاكرة كل طفل كوردستاني عايش نظام البعث صور معتمة مليئة بالانتهاكات ضد ذاته وأحلامه ، لاسيما أن العنف بمسمى تربية الطالب استشرى

بصورة مفرطة أسوة بأنظمة الجوار التي تتشارك إخصاء شعوبها ، وبرمجتهم بما يتناسب وطبيعة نظامها المبني على الخوف وإلزام الخضوع باعتباره شرطاً لوطنية الإنسان.

أثر الإستبداد على تنشئة الفرد

يورد الكاتب أمثلة عن تأثير الاستبداد على التنشئة الاجتماعية للفرد، حيث أورد حادثة سرقة سالار للدجاجة كي يتمكن من أعطاءها لأحد الأساتذة في المدرسة لكسب رضاه وتلافي غيظه، وكذبه على أمه حينما أخبرها أن أحد الكلاب تمكن من التهام الدجاجة بعد خروجها من القن، الذي كان مفتوحاً في الليل، شعور سالار إثر ذلك بالندم كونه أخفى الحقيقة عن والدته، وبذلك انقطعت أواصر الثقة ما بين الأم وابنها، وساد جو من عدم المصداقية، في إشارة إلى تأثير النظام السياسي على التربية والتعليم، ببروز الخوف وأثره في تكبيل الأذهان منذ الطفولة، فلكسب رضا الأستاذ تم خيانة ثقة الأم، والأستاذ هنا قائم على التربية في المدرسة وممثل عن دور السلطة الإستبدادية في تأليب المجتمع بعضه ببعض ، وإخراج الفرد خارج العملية التربوية ليصبح مجرد ربوت لتنفيذ الأوامر دون نقاش، حيث يقوم الجهاز الإداري للمدرسة بعمل رجل الأمن أو المخابرات وذلك بشل التربية وتفكيك المجتمع منعاً من أن يصبح نظاماً مناهضاً لها، حيث هيمنة الجهاز الإداري على الفرد يعتبر بمثابة سطو على الأخلاق وتآمر على الثقة بين الوالدين والأطفال، حيث عرّف ماكس فيبر (16) التربية بانها " وسيله من وسائل الهيمنة الاجتماعية" ويبرر هذه بالقول بان التربية هي اداة من ادوات السيطرة الاجتماعية التي يملكها المجتمع ... وقد تكون الهيمنة من

اجل التقدم والحركية او قد تكون من اجل المحافظة والركود.، إلا أن النظام البعثي جعل التربية أحد وظائفه الرئيسة في الهيمنة على الفرد ليكونوا نسخاً ميتة مباركة لسعلة الرئيس وقرابين رخيصة في الدفاع عن رجال السلطة والنفوذ، وقد نجحت النظم المستبدة في تعطيل التربية إلى حد كبير فما نراه اليوم في سوريا والعراق وأرجاء الشرق الأوسط من جماعات أصولية مناهضة للنظام وأخرى موالية واقتتالها الوحشي فيما بينها ، نفهم ملياً ممارسات السلطة في تدمير العملية التربوية ونسفها من جذورها مقابل بروز العنف الضاري،لقد تم تربية الأطفال ليصبحوا أشبالاً لصدام حسين في العراق ، وأشبالاً للأسد في سوريا، وكذلك أشبالاً لأسد السنة أردوغان، إنهم في الواقع قرابين لبقاء الظلم ، وبقاء المتحكمين بالبشر والعقول، وقد سقطت الأوطان تباعاً وبقي الاستبداد يُكثر من العبيد والأرقاء ، وبات معملاً لإنتاج الدمار وغسل الأدمغة وضخ الفساد،لقد نشطت مؤسسات الإسلام السياسي على إنتاج طفولة بائسة مكبلة بالفوضى والكراهية، كامتداد للمؤسسات القومية الأتاتوركية والبعثية في إخصاء العقول وتدمير الملكات الإبداعية عبر بث القهر والاستكانة والخضوع ، والنتيجة حروب أهلية لا تتوقف وصفقات رابحة لبيع لأسلحة ، وإرهاب عابر للقارات لا يسلم منه أحد، وقد أراد حليم يوسف الإشارة لمعامل التوحش الأولى بدء من مراحل الفرد الأول وإيذاناً بعلائم الخطر وبدايات الحرب وجب تعرية التوحش ، وفضحه معرفياً عبر الإشارة إليه وهكذا يسبر المعرفيون في بقاع الشرق الأوسط الأغوار في صناعة الثورة المعرفية المقترنة بالفكر والحضارة والأصالة، دعامتهم في ذلك تعاطف الشعوب وفهمها لمدركات أفرادها المبدعين غير القابلين للصهر أو الإبادة ، إذ كلما تقادم الزمن كلما تضاعفت المهمة الملقاة على عواتف أصحاب الملكات في أن يكونوا مشاعل خلاص لمجتمعاتهم ضد قوى الفاشية العاملة على

قتل تلك الروح حيث صراع قوى المعرفة والتنوير ضد قوى التجهيل والكراهية يتجسد في الحرب التركية ضد محاولات الانعتاق الكوردستانية أيما تجسيد، وما تضامن الشعوب كأفراد دون تلك الحكومات إلا دليلاً على حيوية العقل والوجدان الإنساني في إصراره على صناعة القرار المجتمعيإن التفاف الناس حول بعضها بعضاً عبر رابطة الحب الروحية والإدراك العقلي المتصل حتماً بتلك الروح المدركة . أحد المهام الجلية التي ينفذ بها المبدع والمبدعة لكوامن الأشياء

أجاد الكاتب عرض الملامح النفسية للشخوص عبر توظيفه لعبارة تشير للشحوب والعبوس وفتور القوى إلى جانب انهمار الدموع على التجاعيد وكذلك الحوارات المتقطعة التي تحتفي بالمواقف المؤثرة، حيث مشهد انتظار آلان المعتقل ، وكذلك تردد المخابرات لمنزل سليمو كل ذلك يعكس التعابير الداخلية للشخوص مما يساعد على تفعيل الإحساس وتعريف المتلقي لطبيعة المرحلة وذود الأفراد عن بعضهم رغم حالات الإرهاب المرهصة لنشاطهم وحراكهم الخائف، حتى الكلاب لا تسلم من الأذى إن اقتربت من تمثال القائد، حيث رصد الكاتب تعامل حارس التمثال مع الكلب الذي تبول أسفل تمثال الرئيس ليعكس استماتة السلطة في كتم كل حراك أو شيء ملتبس يقترب منها ، وتكبيل الفكر عبر لجمه، حيث يشكل الاستبداد الفكري أحد أعمدة النظام الشمولي، للحد من تدفق الفكر الحر والمناهض، وكي يغرق المجتمع في سبات المقدس التاريخي، تحسباً لنهوضه ، فحينما يثب منتفضاً، سيعود ليسقط أرضاً لكون قدماه مكبلاتان بإرث الإسلام السياسي المشبع بالتطرف والتسلط، لهذا لن تجد سلطة البعث عائقاً في سحقه عسكرياً ، لكن حتماً ستعتني السلطة السياسية تلك بهذه الجنازير المقدسة والمحبطة لكل حركة تقف ضدها، فبمجرد أن يتم إطلاق المعتقلين الإسلاميين خارج السجون ، حتى يتمنى المجتمع عودة السلطة العلمانية رغم

فسادها واستبدادها، كون الجماهير تتيقن مدى خطورة أي حراك مخصي مسبقاً، هذا ماحاول حليم يوسف قوله في كل سطر من أسطر الرواية المتوحشة ، إنه توحش اتفق العالم المتمدن على الاعتناء به، بدليل رفضهم لإجراء محاكمة دولية لمعتقلي تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) ، مما نجد رغبة مبطنة في إعادة استخدامهم كورقة ضغط اقليمية لتحقيق أجندات غير معلنة عبرهم،فالوحشية بارزة في انسحاب الأمريكيين المفاجئ من غربي كوردستان وشمال سوريا ، وكذلك عبر تواطئ الروس ، والأمريكان مع تركيا في عدوانها على الكورد، ومحاولة اقتلاعهم من جذورهم واستبدالهم باللاجئين السوريين المرتبطين بها ، حيث يمثل التغيير الديمغرافي بمثابة تطهير عرقي، ناهيك عن السلب والنهب الذي تم من قبل الجماعات الإسلاموية الوليدة عن داعش في عفرين وآخرها سري كانيه (رأس العين) (17) وكري سبي (تل أبيض) (18)، نجح حليم يوسف في استنباط رواية مقترنة بالحدث المتعلق بأحدث ما قبل 2011 ومروراً ببدايات ثورة شعوب غربي كوردستان، وانتهاء بالوحشية اللامتناهية التي أخذ يتقاسم كباراللاعبين وصغارهم أدوار ممارستها في رقعة الشرق الأوسط وتحديداً في غربي كوردستان
. وسوريا

<أثر الطفولة والذاكرة في رواية الوحش الذي بداخلي>

يركز الكاتب على جملة مشاهد دقيقة تصف لنا عوالم الطفولة وخيالاتها الغضة كمشهد خوف الأطفال من قلم الأستاذ الأحمر ، حيث يرمز اللون إلى كثرة الأخطاء، على عكس شعورهم بالفرح حينما تكون ورقتهم خالية من اللون

الأحمر،وكذلك حادثة الدجاجة المختنقة في حقيبة سالار، طريقة عرض القصة تمتاز بسلاستها وميلها إلى الظرف والفكاهة إلى جانب بروز الحزن في تأنيب الضمير الذي أحسه سالار تجاه أمه، ثمة ومضات جميلة استمدها الكاتب من عوالم الطفولة بما تحمل من لحظات بريئة ووادعة حولت الرواية لفضاء تخييلي رحب يسعف المتلقي على أن يشارك بخياله الخاص طارقاً أبواب تلك العوالم الملامسة لذاكرته، إذ نلحظ أن الطفولة موجودة في كل رواية للكاتب، بدء من سوبارتو الذي رصد شقاوة الطفولة وشجونها وكذلك خوف بلا أسنان ومعرض ذيول الحمير المبتورة التي كان الأطفال يقومون بها، كذلك رواية تسع وتسعون خرزة مبعثرة والتي رصد حليم يوسف فيها حالة اليتم لبطل روايته، وهكذا نجد أن تحفيز الذاكرة الطفولية مهم جداً لتنشيط السرد ، ذلك يتعلق أيضاً بالتفاسير النفسية لحالة الشخوص وانعكاساتها على طبيعة المشهد الفني والرؤية الخاصة بمواقف الأديب السياسية والاجتماعية، فيرى الناقد والفيلسوف(19) (جان مري شيفر) أن الخيال والفنتازيا حقائق مهمة تدخل في التركيبة الذهنية الطبيعية للطفل حيث تساعده على التعامل مع محيطه وعلى

. ترجمة الواقع بشكل يسهل عليه تقبله والتأقلم معه

حيث يسهب المرء في الحديث وبشجون عن المواقف المعترضة طفولته وهذا إلى حد كبير متصل بعملية القص والسرد الذي لا ينعزل بطبيعته عن جملة المواقف الداخلية لعوالم الفرد لاسيما وإن كان مبدعاً ، فتجسيد الطفولة في الرواية يحقق متعة فنية تخييلية وكذلك تحفيزاً لعوالم القارئ وتحسيناً لذائقته ونظرته للحياة ويدخل في إطار العلوم الإنسانية في طريقة تخاطبها وطرقها للذات ومحاكاتها ، حيث استعادة الزمن ومحاولة إعادته في الذهن روائياً ، يفتح المسارات العديدة للمبدع ويجعله يوغل أكثر في حقول الوجدان والإدراك، حيث ترصد الرواية

التفاصيل الدقيقة لمعاناة الإنسان في ظل الحروب وجور السلطات القمعية، وتتدخل الطفولة في رسم المشهد المؤثر ، يوظفه الكاتب على نحو محكم ونسيج لغوي يفضي لمزيد من التمعن في حقيقة النفس الإنسانية ومراحل تصدعات المجتمع ، وحالات الموت والفقد التي يشهدها، حيث رصد المكان يجسد الهوية ويدخل في متاهة الصراع بين أنصار الأرض وأنصار نظرية القوة المؤمنون بحيازة الجغرافيا بالقوة ، بينما يستخدم حليم يوسف قوة الذاكرة وبعث الطفولة بوصفها مقاومة مضادة لكل قوة تسعى للسطو على الجغرفيا والذاكرة والأرض، من هنا تتأتى ضرورة الحديث عن النشأة والمراحل الأولى كون الذات تستمد قوتها من طفولته وبداية نشوءها في ظل المجتمع.

تحريض الذاكرة بالاستفادة من خصوبة الخيال ، تقنية بارزة في عالم الرواية، بإمكانها أن تغني السرد والحوار معاً، وكذلك تجعل العبارات قادرة على إيجاد علاج للنفس من خلال زج الصور والتعابير ببعضها لخلق عالم حواري مركزه النص ، يتلقفه الذهن بيسر كون تلك الهالات النصية تلامس الروح وتنشط الذائقة المعنوية للمتلقي، استفاد الكاتب منها ليحيط بعوالم الفرد وأحاسيسه ورغباته، ليغدو الحديث هنا متصلاً بوعي الأمة وحاجاتها للتحرر والإنطلاق وخوض تجربة الحرية والمعاناة للوصول لعالم أفضل خال من العبودية والاستبداد، فتقوم الرواية بأرشفة الحوادث النفسية وضخ الإحساس بها عبر اللغة المؤثرة لتدون سجالات النفس الإنسانية ولتعبر عن فجائع المجتمع وصراعاته ضد هيمنة السلطة وقمعها للفرد، إذ أن الكاتب يجند أحاسيسه وذاكرته وخياله خدمة للإنسان، وسعياً لعقد جسور بين الحدث الفني والواقعي في ذائقة القارئ، وبذلك يعمد لتسليط الضوء على جملة القضايا الجوهرية المتصلة برغبة الفرد في التغيير وتحسين الواقع ، وإيجاد مسارات جديدة لفهم الحياة، فللذاكرة

دوراً في صناعة السرد العميق، ومواكبة تجارب الفرد بدقة بخاصة ما يتعلق بالجانب الاجتماعي الذي هو خليط مفاهيم ومواقف ساعدت على فهم الفكرة وجذبت المتلقي عبر ملامستها لإحساسه وتجاربه أيضاً، فلا تخلو الذاكرة الفردية أو الجمعية من صور معتمة ترصد حادثاً وقع، وجرماً في مكان معين، وأشخاص ينحدرون من بيئة واحدة، وتركيبة متشابهة تصفها الرواية اعتماداً على ذاكرة المؤلف في تجواله بين الأماكن ومواكبته للشخوص وأعمالهم، فالرواية هو تحدٍ صارخ للنسيان في محاولة لإجهاضه، وفهم حساس للتفاصيل المستعصية على العقل فهمها، لكنها تبدو ماثلة في الذاكرة ومرتبطة بالأماكن، لهذا فالكاتب يبذل جهداً في فهم ما يعتري النفس عبر عملية السرد لما تتضمنه من خلجات نفسية متصلة بعالم الطفولة، والشغب، في سعي لفهم تصرفات الفرد وردود أفعاله، وطرق معالجة المشكلات وحالة الصدمة المرافقة للمرء ساعة اصطدامه بحرب الهيمنة السلطوية ولجم دوافع الأفراد في تعبيرهم عن ذواتهم واستهجانهم للقمع الممارس، كذلك سلوك الفنان مسلكاً وقائياً في مقاومة السلطة عبر اضطراره في مسايرتها والتعامل معها أحياناً، بين الكاتب تحرك المجتمع وخوفه وعلاقة الحب العميقة الجامعة بين سالار ومريم في فهم متوغل للحب والتمسك بالبقاء وكذلك النأي بالنفس عن الصدامات المحتملة، كل ذلك مهمة ملقاة على عاتق الشباب ، في إدارة الحياة معطوبة البوصلة، رغم أن ذلك لا يساعدهم في اتقاء الكارثة القادمة المتمثلة بانفجار السلطة.

الحب في المقبرة، حديث ساكن وذو شجون قوامه القبلات والهمسات الخائفة بين سالار ومريم، وتلك اللعلعة الدائرة ما بين خليلو وسليمو ، نذير وصبري ، وحوار الثورات والصمت الذي ينتصف المشهد ، لنتأمل هنا ص 54 – صبري وبشغف حاد وجه ناصية كلامه نحو نفسه وقال : من هنا سنبدأ بتغيير العالم،

تغيير صغير هنا، سيكون نور ثورة تعم أرجاء الوطن كافة، وهذا بدوره سيصبح تغييراً للشرق الأوسط، ومن ثم للعالم بأسره نذير الحلاق أجابه : الحل فقط هو أن تبيع بيتك وتسافر إلى أوروبا.

المعلم آلان قال بحرقة : حينما كنت بعمرك لم تكن أفكاري بعيدة عن أفكارك، كان شعارنا الخبز ومن ثم الحرية ▪

أجاب صبري بكبرياء : لهذا وصلتم لنتيجة أنكم ولأجل الخبز بدأتم بصنع تماثيل القائد، حيث طارت الحرية

تلك الحوارات الشبابية تمثل في صميمها رغبة مشتركة في التغيير والانتفاضة من مؤمن بها إلى متشاءم بصددها وهكذا،انه حديث الثورات لدك حصون الاستبداد يتم وراء الكواليس في بلاد ساكنة يقشعر بدنها من مرور الأشخاص المتشابهين في الملامح ، وهي معطيات عن تأهب حقيقي ينتظر إشارة الوقت المناسب للبروز بقوة بغية إزاحة القتام عن المشهد المعتم هذه الأحاديث تمثل مقدمة لبروز حالات العصيان والتأهب فيما بعد، فالتفكير منصب على كيفية التخلص من هذه القيود ، وهي عوائق تحول دون بلوغ الأمن والطمأنينة ، حيث الحرب القادمة المغيرة لمعادلات الخوف والنكوص، وكذلك التغيير بوجهيه السلبي والإيجابي قادم لاقتلاع هذا الورم السلطوي الناشب مخالبه في كل مكان، حيث الضغط الاقتصادي والفقر المدقع قاد إلى جهل وتوحش أميل للانتقام والفوضى منها إلى التفكير والتدبر ، فالمجتمعات الشرق أوسطية مجتمعات قبلية التفكير بغالبها تميل إلى التوحش والانتقام والجهل أكثر منها إلى التحضر والقانون والوعي، لهذا فلا ينجم عنها إلا ميل عشوائي لاستبدال الأشخاص القائمين على السلطة بأشخاص آخرين يختارونهم ليلبوا ما بداخلهم من غلٍ طائفي أو عرقي ، أو إيديولوجي ، حيث يعتبر المجتمع التركي مجتمعاً مثالاً للعنف فالسلطة التي

تحظى بدعم جماهيرها ينبغي أن تكون فاشية قومية عنصرية تنادي بالتعالي التركي ومحاربة الكورد عملاء الداخل وتصفيتهم، خطاب الكراهية يحظى بإجماع الغالبية ، والحاكم الباقي في السلطة هو الذي يلبي الدوافع العنفية لتلك الجماهير، وبالتأكيد فالمجتمعات العربية والفارسية لديها ثقافة السلطة وتؤمن بنظرية المستبد العادل، فتتقاسم كراهية بشار الأسد وهي في الآن ذاته مولعة بصدام حسين، وتتمترس بالإسلام السياسي وترى في أبو بكر البغدادي شهيداً ، وفي أمريكا وإسرائيل عدواً، وفي أردوغان خليفة للمسلمين، إن ثقافة السلطة متجذرة في هذه الشعوب ونجم العلمانية والديمقراطية يكاد يخبو في ظل هذه المعمعة من الفوضى وتقديس

. العنف والكراهية

لهذا نرى هذه المجتمعات أبعد ما تكون عن الديمقراطية وخلق مشاريع تعايشية ، بسبب هذا العبء الثقيل الذي تحمله والذي يثقل كاهلها ويمنعها من التفكير بالمستقبل، لهذا فإن الثورة المضادة هي الحل الوقائي لنسف فكر السلطة داخل الجماهير أولاً، والدعوة لعقد تجمع كبير تديره المؤسسات المدنية المستقلة بدعم دولي أممي، للوقوف على هذه الأزمات وتطوير برامج تربوية للوقوف على إشكالية التطرف الديني والقومي وإرساء فكر التسامح والمحبة بين الشعوب من بوابة قبول الآخر والمساواة في الحقوق والواجبات ، أي دمقرطة الفكر وتعبئته بأسباب العيش المشترك

الحب والاستبداد ، يطرحان نفسيهما في الرواية بشدة، حيث يرمز الحب للتحفيز ورباطة الجأش في التغلب على الخوف ، ويرمز الإستبداد هنا إلى ضراوة الواقع وصعوبة معايشته ، رحلة سالار إلى بيروت تجربة صعبة المراس يعانيها، هذه المرة يبتعد عن حبيبته مريم، وعن مدينته الحبيبة، وهنا يعيش على طول

الطريق محنة التأمل وترك مدينته خلفه، بالتزامن مع هدير محرك الباص الذي كان يبتعد به باتجاه بيروت وحواجز رجال الأمن النزقين، ففي لحظات الإبتعاد عن الوطن ، يدرك المرء حقيقتين مرتبطتين ببعضيهما أيما ارتباط، وهو حلم وطن حر ومعافى، وحلم العيش مع امرأة تختزل الفرح والطمأنينة لأبعد حدود، وتعمد الرواية لفهم الاغتراب النفسي المتعلق بالفرد والجماعة أكثر بالتزامن مع التمعن بإرث السلطة القمعية الثقيل والذي تحتمله المجتمعات وتنوء بحمله ، إن الرواية لها جانب إيديولوجي مرتبط بالوعي التحرري الكوردستاني بضرورة التشبث بالأرض، المرأة، ومقاومة الاستبداد، لحين بزوغ الحرية ومحاربة التوحش، وفيما لاشك فيه فإن الترابط الإيديولوجي ما بين الكاتب والناقد ، هدفه تشكيل نسق منتظم من الأفكار النابغة من روح الرواية وإدراك الناقد الجلي لمرميزها ومساعيها، وعليه تتشكل ذاكرة الأدب وتصبح معالم لرؤى نقدية حديثة أكثر لصوقاً بقضايا المجتمعات وسبل تحررها من نير العبودية، حيث في الواقع ليس ثمة أدب محايد عن الذاتيانية ، وكذلك لا نقد بإمكانه أن يكون حيادياً، فالثقافة منحازة لشعوبها، والأدب لسان حال المجموع، فما التلميح لبروز الوحش إلا بديل عن هذا النظام البعثي القائم، الوحش الذي أطلق العنان له حين بدأت الأصوات تعلو بإسقاط النظام القائم، الوحش يرمز للإسلام السياسي الذي كان على صدام دامٍ مع النظام السوري في حقبة الثمانينات والتي تم اختتامها بمجزرة حماة الشهيرة، ليعود من جديد بمظهر أكثر قسوة ، برداء تنظيم الدولة الإسلامية أو ما يعرف بداعش، وكذلك بالجيش الحر الذي يعرف راهناً بالجيش الوطني، إلا أن هذا الجيش بدأ يشغل وظيفة محاربة الكورد بدلاً من النظام، وبأوامر مباشرة من أردوغان، قائد مشروع الإسلام السياسي العثماني في المنطقة

عدم الانصياع لحياة الخضوع ، مثّل نقطة جامعة لشخوص الرواية على مختلف

أدوراهم ، القمع على أشده، رجال الأمن نشبوا أظفارهم في كل مناحي الحياة، العوز والألم اليومي يدفع المرء للكآبة والاحتقان في آن ، مناخ من الوجع يخيم على رواية تحشد الكلمات الأكثر تأثيراً للإحاطة بمشهد مأساوي يدفع المرء للتدبر بواقع أرعن خلف المزيد من الضحايا والعاهات النفسية، سجون كبيرة، وعقول سجينة، وأحلام مكبلة بالمرارة والحنق، ينقل لنا الكاتب بسلاسة ذلك، مهتماً بأدق التفاصيل الداخلية للإنسان الكوردستاني المحارب على كل الصعد، من قبل وحش السلطة القمعية ، إذ تحول حليم يوسف في النصف الثاني من الرواية للحديث عن آثار الاستبداد على المجتمع، فأشار برمزية الوحش، ليخلص إلى قول تفشي الوحشية داخل تلك المجتمعات وتحول أفرادها لمجموعات إسلاموية أو مضادة لها، تقتتل بضراوة بدلاً من أن تصوب بندقيتها ضد تلك السلطة، ليحدثنا هنا عن العنف والعنف المضاد، الذي خلق فوضى أهلية دمرت الكثير من المكتسبات والبنى التحتية وأفسدت قيم التعايش وإمكانية التعاون والتلاحم الطبيعي، حيث ارتهان القوى السورية للخارج بسلطتها ومعارضتها ، جعلت البلد ساحة لتصفية الحسابات المختلفة، وخلق جيلاً أمياً يفتح عينيه على الحرب والتنازع دون حلول تلوح في الأفق،حيث حمل مشروع الإسلام السياسي للمعارضة المسلحة بين دفيته خطاب الكراهية والانتقام، بعد توجيه تركيا لها أمراً بمحاربة الكورد وهدر دمهم عبر فتاوٍ تحرض على محاربتهم ليعمد بذلك على خنق المجتمعات وتضليلها بغية قضم أراض كوردستان الغربية وضمها لخارطتها، السلطة البعثية عبّئت المجتمع بالمفاسد الناجمة عن الرهبة والقمع اللا محدود، وبذلك فالمكبلون بالمفاسد لا يمكنهم إقامة ثورة، كونهم محاصرون بردود الفعل الاعتباطية غير الواعية وعقلهم الباطن مستعد للإنتقام والمناطحة كالثيران الهائجة دون خطا جلية تضع سبل الخلاص من ذهنية الاستبداد التي ورثها

الأفراد هدفاً لابد منه ، لهذا فشلت الثورات في ما يسمى بالربيع العربي وإن حالف الحظ بعض من الدول كتونس ومصر من إجراء تبديل لرموز النظام والإبقاء على الهيكلية والذهنية كما هي ،حيث توزعت الشعوب على طبقة متسلطة وأخرى خلقت لتكون وقوداً لمعارك السلطتين القائمة والمعارضة، ان السلطة ترى نفسها خاصية أعلى وأبقى من شعوب دنيا أقل قدراً تحكمها بالدم والحديد، هذه الفجوة سرعان ما تتنامى لتكون مؤشرات لبروز صراعات يدفع ثمنها المجتمع دون سواه، إذ أنه متشبث بالجغرافيا وشغف بعيشه، يبحث بحذر عن حياة أكثر جودة، لكن سرعان ما يكتشف أن لكل خطوة باتجاه مناهضة السلطة لها ثمن غالٍ تدفعه من دماء أبناءها قرابيناً لحلم الديمقراطية والنظام العادل، إن الشعور بالتعالي متأتٍ من السلطوة كفعل ممارس، وهذا ما يوغر من صدر السلطوي ليكون كائناً حاقداً كارهاً للأضغف منه وحاسداً للأعنف والأكثر قوة منه، فما بين الحقد والحسد رغبة في استثمار جهود التابعين لمعارك عنيفة ضد الجماهير الناقمة وبتواطؤ مع رجالات السلطة الآخرين ممن يتشاركون ذات المصالح والمنافع في الإبقاء على المجتمع، دنيّاً مقهوراً لا يتمتع الفرد فيه بأدنى امتياز، إما بإلهاءه في الأعمال أو اعتقاله ، أو نفيه للبلاد

. البعيدة أو للسماء (الموت)

المناخ الكئيب الذي أورده الكاتب بمنحى تصوير حالات الاعتقال واشتباه رجال الأمن بأسماء مشاهير كسلفادور دالي، وجان بول سارتر وأحمدي خاني، ينم عن إبراز لحالة الجهل إثر تحولهم عن التفكير إلى الآلية التي تجعلهم أشبه بربوتات تنفذ ولا تدرك شيئاً سوى التعذيب والبطش فلم يدركوا إلى متأخراً أن تلك الأسماء ليست موجودة على قيد الحياة وإنما أسماء خالدة باقية في ذاكرة الناس، ليضعنا الكاتب في هذا المشهد إلى استنتاج مهم وهو نبذ السلطويين للتفكير المعرفي

وكذلك الارتقاء الذهني، محاربتهم لروح الفكر والإبداع، وكذلك استماتتهم في بتر صلات الأفراد بالقراءة، كي ينعزلوا ويخافوا دون عمل شيء آخر، باستبدال الفكر بالأمثال التي تحض على الطاعة نبرز بعضاً منها (من الحيط للحيط ويارب السترة) وكذلك (ابعد عن الشر وغنيلو) وكذلك إشادة رجال الدين السلطويين بكلام مفاده أن الملك لله يعطي من يشاء ينزع الملك عمن يشاء وعليه فإن محاربة الحاكم ومناهضته هو مخالفة لإرادة الله وقدره، تلك الإشارات متعددة الرسائل للكاتب في معرض روايته هي بمثابة تشخيص لأزمة السلطة الشمولية ، وكيفية خنقها لذاتها بالتزامن مع قمعها ومحاولتها لتكوين مجتمع العزلة والقهر، لهذا فببياننا لذلك فإننا نشيد جسوراً متينة ما بين الأدب والفكر، تبياناً لتكامل الرسالتين ودورهما في فهم الإنسان ومشكلاته والإحاطة بها بغية فهمها ووضعها على دفة الاحتكام المنطقي النقدي.

حيث تتحلق الجماهير مقفلة أذهانها ومطفئة عقولها حول رمزية القائد الخالد وابنه البار، كون لا عقل إلا داخل رأس القائد، هي الخطة الأولى من خطط السلطة للإيقاع بعقول الجماهير وجرها مخصية لمقصلة القائد المفكّر،من ثم فلسان حال السلطة دائماً يكرر إما بقاءي أو الفوضى، ما إن فكرت الناس أن مناهضتها وإسقاطها كنظام مسألة وقت، حتى استيقظت أحقاد المجتمع المحتقن وبدأت الحروب الأهلية تفتك بها مما زال ذلك الشعار البائس وسقطت أقنعة الأغرار بانقيادهم لمعارضة مرتزقة مرتهنة تعتدي وتجيز قتل الشعب الكوردي بفتاوٍ دينية يخرجها حزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا، وهكذا تتساقط الشعوب بزوال أخلاقها ومحبتها لبعضها بعضاً، إن السلطة كونت داخل أروقتها سلطات ينفرد روادها بطريقة قمع وبطش تختلف وتتمايز عن الأخرى، هذا بدوره تدريب للمجتمع على الإيذاء، أشبه بطريقة تجويع الكلب ليصبح الأكثر شراسة

وعنف، تماماً أنتجت سلطة القمع مجتمعاً غوغاء، مفاهيمه مضطربة وأميل للانتقام منها إلى الوعي في مناهضة النظام ذهنية وسلوكاً ، حيث نجد دولاً تمارس إرهابها المنظم على الجماهير في الشرق الأوسط كما تفعل تركيا وإيران، لكن ينظر دوماً في إرهاب التنظيم أو الحزب كجناية لا تمر في الغالب دون عقاب، أما إرهاب الدولة فنجد أنه مشرعن بل وواجب من قبلها لدرء الخطر عنها، هذه الإزدواجية عززت بؤس المجتمع وانعدام ثقتها بالمستقبل، كون الحقيقة السوداء تتمثل في إيمان دولتي عالمي مطلق وهو أن الحق بيد القوي الباطش، مهما على صراخ المقموع،وتجسدت آلامه ودماؤه أمام الأعين، فلا صوت يعلو على صوت المصالح بين الدول(تركيا وألمانيا).

فشل نظرية الدولة في الشرق الأوسط لا يعني بطلان الدولة كمفهوم ومؤسسة وفكر، بل يعود لفساد الذهنية والانقياد الأعمى للمناصب كتجسيد لشهوة السلطة وقداستها التاريخية المغلفة بالدين في الحقيقة، سعى الإنسان الطويل لينوب عن الله أو النبي أو المسيح في إدارة شؤون الناس ، بمعنى أن تكلس العقل الدولتي في الشرق الأوسط هو نتاج انغلاق في متاهة الإسلام السياسي، فبمراجعتنا لسير القادة الدينيين، وكذلك طريقة إبرازهم لحكم الحقبة الدينية ، وتحديداً فترة الحروب المقدسة، نجد أن المشكلة كامنة في تخلف المسلك الذهني للفرد بانعزاله في دوامة التاريخ واجتراره للماضي، لم يمت القيصر في الحقيقة ولم ينطوي العهد الإقطاعي أيضاً، بل نجد إحياء مستتباً ومحدثناً لطرق حكم الناس، إرث السلطة تراث عميق متين الجذور، ومن الصعب اقتلاعه، بل من سيقتلعه؟!، عادة وهو ما يجري في العهد المعاصر أن غالب الحركات الثورية التي تحولت فيما بعد لسلطوية، نجدها ترفع شعارات رفع المظالم عن الأمة وتخليصها من براثن الإستعمار ، وفي الآن ذاته تقع في فخ اجترار أصول التحكم بالمجتمع

بغية البقاء لأطول أمد ، وتحقيق ما أمكن من نفوذ مادي واقتصادي يصب في مصلحة الفئة الحاكمة دون غيرها.

عدم المقدرة على انتظار تغيير النظام السياسي ونتيجة ذلك فإن عين الأفراد المضطهدين تتجه للهجرة وتأمين الحياة، هذا الاغتراب هو حديث الرواية، ويعطي لمحة عامة عن حياة الإنسان النفسية ، حالات الخوف التي تتلبسه ، انعدام الثقة ممن حوله، واستشعاره لإمكانية حدوث الخطر في أي لحظة، ففي ظل سلطة البعث، عمَّ القلق داخل النخبة الشابة، فمن خوف على الذات إثر اعتقال وشيك إلى نقص اقتصادي عوز متفاقم ، هذا يقود بطبيعة الحال للخروج من البلد، والصراع السياسي، الكبت والاعتقال ، يقود إلى حريق قادم ومرحلة اقتتال ونيران مستعرة تشق الحدود، يعم الاضطراب في رقعة الشرق الأوسط، وأخصها في مناطق تركة سايكس بيكو، والتقسيم الجائر الذي يعد ركيزة لاستقرار، وباعثاً للقلق المستمر، ذلك يخلق انعدام الأمن وغموض المستقبل ، حيث عانت شعوب سوريا في ظل نظام البعث توقاً فظيعاً لحرية ما غير محدودة بحدود، وما إن سنحت له الفرصة، حتى تراءى أن الحرية التي أرادها الناس مضطربة راكبة عدة موجات ما بين الإسلام السياسي واليسارية الديمقراطية أو التشبث بالنظام القائم تحت يافطة الأمان والسلامة والتصدي للمؤامرة الكونية، وبانت لعبة الأمم في الهرولة نحو آبار النفط والمراكز الاستراتيجية الحيوية، دون أن تلقي أدنى بال على معاناة الناس الهاربة والمدفونة تحت أنقاض بيوت مهدمة أو مقيمة في خيم متراصة لا تقي الناس من البرد وشبح الحاجة،إنها مشاهد رسمها الوحشيون في محاولة معينة في الاستحواذ على المشهد العام وإدارة البوصلة المعطوبة، فقد فهم أنصار الإسلام السياسي الحرية بأنها محاربة لما تصفهم بالمرتدين والكفار ونهب وسلب أموالهم وممتلكاتهم كغنيمة واغتصاب نساءهم

كونهم سبايا، إذ أطلقوا العنان لتصوراتهم في امتلاك الحرية المطلقة المؤلهة والمشرعنة بفتاوٍ دينية مستمدة من التراث الديني للغزوات، أما اليسار الديمقراطي فقد أخذ ينظر للحرية بوصفها نظام ديمقراطي لا مركزي ، يقر بحقوق الكورد ومكونات المنطقة في شمال شرقي سوريا (غربي كوردستان) دستورياً ضمن حكم ذاتي ، هكذا نجد أن فهم الحدث السوري ما بعد 2011 ، يتمايز بعدة مشاريع بالتزامن مع التواجد الروسي والأمريكي الإيراني التركي ، ناهيك عن مناطق مستعرة في جنوب العراق ولبنان وعقوبات على إيران بغية ردعها من التوسع،حيث طبيعة الحروب بالوكالة باتت واقعاً في عموم الشرق الأوسط، ولاسيما أن ورقة داعش (تنظيم الدولة الإسلامية)(20) ما تزال صالحة على الرغم من هزيمتها العسكرية الأخيرة والتي توجت بمقتل زعيمها، فالنقطة التي نتحلق حولها هو التوحش، صناعة الوحشية لتحقيق أجندات اقليمية تعد عملاً يمتهنه أنصار العدالة والتنمية في المنطقة ،ممن باتوا ممثلين عن الإسلام السياسي الذي لا يقل خطراً عن تمدد وتوسع إيران في المنطقة ، كل ذلك نتيجة عن إطلاق العنان للوحوش المستوطنة العقول والأذهان الجمعية التي كانت لسنوات راقدة في سجون الإرهاب الدولي المنظم لأنظمة الحكم الشمولية . سالار يفكر بالخروج من البلد، لفرنسا، عرض لمريم ذلك في لقاءه بها عند المقبرة، رفضت ذلك وفي المنام رأى تمثال القائد يدنو منه ليفج رأسه ، ليجد الدم عليه، ليرى نفسه في الصباح في قبضة المخابرات ، لتبدأ حياته القاتمة بعد ذلك وبتسارع، الأحداث تتسارع هنا ، لم يعد هناك من مسار آخر ينجو من خلاله البطل، بدأ الكابوس الثقيل، وذاك التمثال لا يزال يدنو، محاولاً تدمير التوثب في داخل البطل، فرص العيش على نحو أفضل مسدودة في ظل القمع الكبير، سلطة الأمن لا تعلوها أي سلطة أو نظرة توسل، هنا يدخل الكاتب لمسار

الحدث التراجيدي، ليفصح عن نتائج المخاوف والهواجس فقد باتت حقيقة ، وتفعل فعلها في النفوس والأحوال، حيث قال نيتشه نحن لا نتحرر إلا حين نتذكر، وقد سلط الكاتب الضوء فيهما بعد على ذلك الوقت الطويل الذي قضاه سالار منفرداً في السجن، فأفسح المجال لأن يتذكر كل شاردة أو واردة من حياته، مطلقاً العنان لأحاسيسه وآماله و آلامه في صياغة رؤى جديدة لم تكد تخطر في باله مسبقاً،عن الحياة والإنسان وتلك الحركة المكبلة بالرغبات الكثيرة والأحداث الجسام، فيدخل في حالة من صراع ليذكرنا بمقولة ميلان كونديرا حين قال :_أن صراع الإنسان في الحياة هو صراع الذاكرة ضد النسيان ، حيث ذلك الفراغ الزمني هو ساحة للنقد الذاتي وتذكر ما مضى ومحاكمة شفافة للنفس، حيث أمكن أن نعتبر أن النظام الاستبدادي هو معمل لصناعة الوحوش البشرية ، وإرجاع المجتمع لعهود البداوة والوحشية، بالتزامن مع قمعه وزيادة عزلته، ليقابل ذلك الانحطاط سعي لتجهيل الأفراد وتغييبهم عن الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، ليكونوا عبيداً حقيقيين، أومنبوذين عن تلك السلطة ليلقو مصيرهم المتجسد بالموت أو الاعتقال.

فيميل حليم يوسف هنا إلى نظرة الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز (21) ، في سبر ذئبية السلطة والذي يرجح أنها نتيجة وحش كامن داخل الإنسان ذاته، فالإنسان لدى هوبز متوحش وشرير حيث يقول :" أن الإنسان كائن غير اجتماعي، و فكرة الاجتماع الإنساني لديه هي مدعاة للتقابل البشري العنيف، وبالتالي". ليست أنثروبولوجيا النوع الإنساني سوى حرب الكل ضد الكل، نجد أن الكاتب قد سلط الضوء على انطوائية سالار فاختار المقبرة مكاناً للقاءه مع حبيبته مريم، ومكاناً لحفظ الأوراق والمواثيق العاطفية، فتكرار كابوس عراكه مع التمثال ينم عن استعداد تلقائي للعنف والمواجهة، فالوحش كامن داخل الفرد

مهما كان مسالماً ونائماً، وكذلك الإنسان عند هوبز ذئب لأخيه الإنسان، بيد أن الكاتب هنا يرى السلطة عائقاً ومنبعاً لتوحش الفرد بخلاف هوبز الذي رأى بوجوب وجود قانون متمثل بالنظام الملكي، وهو وحده القادر على إنهاء حالة الصراع بين أفراد المجتمع، من خلال خضوع الكل تحت حكم شخص واحد ومما لاشك فيه فإن الظروف النفسية والاجتماعية وكذلك السياسة المتعلقة بطبيعة نظام الحكم تقوم بتكوين أفكار المرء فيلسوفاً أم روائياً، وشدة تلك الظروف وسوء الأحوال يدفع المرء لتبني وجهات نظر تتصل حتماً بالبيئة وتأثيراتها على الفرد، فبخلاف أرسطو الذي رأى أن الإنسان كائن اجتماعي وحيوان سياسي، يرى هوبز أن الإنسان لا ينخرط في المجتمع إلا بدافع المصلحة، وبالتالي فحسب وجهتي فإني أرى أن ثمة توأمية بين الأدب والفلسفة، فليس الأديب في نهاية الأمر إلا فيلسوفاً وجدانياً، يخاطب الأرواح والألباب بمنطق وسطي يسوس الداخل الإنساني المفعم بالأفكار والخيالات وصراع الرغبات المحتدم،إذ يرصد حليم يوسف إحساس من ينتظر التحقيق ، حصر البول في المثانة والرغبة القصوى في إخراج هذا الطوفان ، والحديث عن هذه اللحظة وقيمة أن يتخلص المرء المحصور من بوله حين يطول الانتظار، ويتلاشى الخوف كله وحتى رهبة الموت ، أمام تلك الرغبة في إراحة المثانة، ذلك الشعور أكبر وأهم من أي شيء قد ينتظر المعتقل، إبان طولة مدة انتظاره للتحقيق، عالم آخر، ويرصد حقيقة سوداء من حقائق الحياة المستترة، عالم معتم يشبه الموت في دنوه ، وكذلك انعكاس لوجع غفير يقضج المضاجع ويمنع المرء من الفرح ، يوقظ في الإنسان علّات السلوك، ويضع السلطة الاستبدادية أمام تساؤلات تفرضها حالات القهر ، إنها محاولة المنظومة السياسية تجريد الإنسان من كل قيمة أو هدف،وجعله مهمشاً، غير قادر على المطالبة بشيئ أو

تغيير شيء، سوى انتظار حتفه أو لحظة خروجه من السجن،يعاين الكاتب حالة الانتظار تلك ليراها تجسد وجع المرء مع الزمن، وصراعه ليثبت ويصمد أمام كم الأفكار والرغبات وحالات الألم والانفعال التي تكابدها النفس، حيث هناك جانب ثمين من داخل الإنسان يتداعى كل دقيقة ، الزمن بطيء جداً، وثقيل وعلى المرء أن يكون عتيداً صلداً، للتغلب على حالات الموت المتكررة المارة عليه

حرب السلطة البعثية هو لتحويل الفرد المنتج إلى مفلس، والمبدع إلى محبط، والثائر إلى جثة، تتركز حرب الإستبداد على تدمير المعرفة داخل الأفراد، وكذلك الرغبة في الارتقاء، لهذا أشرنا من البداية لضراوة هذا الصراع التاريخي القديم والمتجدد بين قوى المعرفة وقوى التجهيل، على الرغم من فداحة هذا الصراع ومعاناة الجماهير الجسيمة من حماقات السلطات الشمولية وإجرامها بحق جماهيرها، فإن تلك الحرب المستهدفة إرادة الإبداع لدى الإنسان بالدرجة الأولى ، محتدمة ومستمرة، على الرغم من المخاضات العظيمة ، تلك الحرب تهدف لكبح الفكر الحر، والرقي النفسي، إذ يحارب المعرفيون ، والمعرفيات معاً طغمة الفساد المتصدرة المشهد السلطوي، والطغمة المناهضة التي تتاجر بدماء وطاقات الثائرين وتهدف لتحوير البوصلة لصالحها بغية إقامة سلطة أسوأ وأكثر تدميراً وإجراماً ترث تلك السلطة القائمة وتعمل على استعداء الحرية والفكر الحر، لهذا فأعباء المعرفيين تزداد مع الوقت، ولا سيما في الشرق الأوسط ، والنموذج المثال سوريا، وحالة التخبط التي تعانيها كبلد مصطنع الهوية ، والمعرفي يحارب بالفكر والسلاح معاً، يدين بعشق الأرض ، أكثر ، ولا يلقي بالاً على الإيديولوجية التي تسيّره، كونه مدفوع بولاء روحي منبعه الوطن، تلك الحالة الراقية واعدة بكل خير على الرغم من المعاناة والهيمنة السلطوية التركية أو الإيرانية على تلك الهبات العفوية الصادرة عن معاناة شعبية، إلا أن تلك الإرهاصات تليها حتماً

بروز وعي معرفي ملح وضرورة للإرتقاء الفكري لإدارة البلد وحمايتها من التوهان في معمعة المصالح والإرادات الدولية والإقليمية،فليس غريباً أن تضع السلطة في مخافرها الأمنية وأقبيتها المخابراتية بشراً مجردين من المعرفة والإحساس، حيث أشار حليم يوسف لريادة أسوأ الجهّال وتسلمهم مراكز وأفرع الأمن وإشرافهم على التعذيب واقتياد المعتقلين لجهات مجهولة، في إشارة مهمة لعداء قوى السلطة مع المعرفيين المدركين لحجم المعضلة التي تكابدها الجماهير في ظل بقاء هكذا سلطات تعسفية تتحكم في صيرورة الحياة والزمن، وتجعل المجتمع غارقاً في متاهة الضياع والانزواء عن ركب الحاضر، يشير أيضاً لسحنات المحققين الأشبه بالذئاب والفئران ، وعقولها المتلبسة لجماجم الحمير والبغال، كل ذلك من صفات الحيوانات المنطبقة على سلوكياتهم الفجة وإمعانهم في قهر الناس، وإلزامهم أن يعيشوا حياة المشقة والضنك، وكذلك ليغوصوا أكثر في متاهة الخوف، وسراديب الضياع، حيث قطع صلات المجتمع بعضه بعضاً من أولى ركائز تفتيت الطاقات وزج الأفراد في صدامات نفسية تدفعهم لمزيد من العزلة والتقوقع في متاهات الإنغلاق، هذه الأنظمة هي حصيلة تلاقح شاذ بين العروبة الصحراوية والفاشية الأوروبية التي برزت في مرحلة الحربين العالميتين بصعود وتنامي دور الدول القومية، لهذا تتسم بكونها عابرة للبيئات، وتسهم في غزو المجتمع بالخوف، إينما كان يقطن في أماكن الخصوبة أو في أماكن اليباب، أنظمة متعطشة للجهل وتخريب العقول والملكات، لا تهتم بالخدمات ولا بالمرافق، وآخر همها تطوير وتنمية الدولة والمجتمع، وإنما استثمار موارد الأرض خدمة لأصحاب الجيوب المتحكمين بمفاصل الدولة ، وهم أصحاب الثروة والنفوذ المادي والسطوة العسكرية، لقد قبض نظام البعث على التنمية والموارد الاقتصادية وكذلك طوّع الجيش لأهدافه في البقاء، فبات الجيش والاقتصاد بيد عائلة الأسد ومن

والاهم ، أما هدف المعارضة البائسة فتتمثل في رحيل العائلة وطبقتها العلوية الطائفية وجلوسها كبديل في حكم سوريا وترى نفسها ممثلة عن الطائفة السنية التي يتزعمها الأخوان المسلمون الموتورين منذ أيام أحداث حماة سنة 1982، مما لاشك فيه فإن الرواية لا تحتمل ثقلاً تنوء به ولا تنشغل بالتفاصيل المسترعية ذهن الناقد الإيديولوجي، وإن عقد المقاربة فيما بين الناقد والمؤلف في سياق الإيديولوجية يعد عملاً ناجعاً، إذ تبين الرواية كل مسارات وفكر المؤلف واتجاهه السياسي بطريقة فنية تتسم بالتضمين والتلميح وكذلك تحييد الأفكار المباشرة، واستبدال ذلك بالدراما الجاذبة المؤثرة والماتعة، تلك مقومات تتفرد بها الرواية دون النقد أو الفلسفة، والناقد الإيديولوجي يعمل على بيان المسارات المتصلة بين الأدب والفلسفة ، أو الأدب والسياسة ، أو التاريخ ، وهكذا،حيث يستند حليم يوسف على مزج الوجدان الجمعي بحقائق واقعية تمارس في أقبية المخابرات السورية،، لتسليط الضوء على الإجرام الممارس خلف الكواليس، وليبين قدرة الأدب على الإفصاح بنوازع الوجدان بلغة الأدب التي تتوسط الشعر والسرد القصصي، لتعطي تأثيراً للحدث وتعمد على فهم دلالته في سياقات إنسانية تجسد معضلات السلطة في إيغالها فتكاً وبطشاً بالناس ، لأجل سد ثغرات خوفها من كابوس التغيير

الخلاصة

يركز الكاتب حول قضية الصراع الوحشية، بين السلطة البعثية وأنصار التغيير، وحول عدم التكافؤ بين القوتين، في بدايات هذا الصراع، من ثم مروراً بالتغير الذي بات يصعد تدريجياً في نفوس وقسمات السجانين والمسجونين على حد

سواء ، القابعين في السجون الصغيرة والكبيرة، المنتظرين شرارة البدء بقيام بعمل ما، سياسي، أو عسكري ، أو انقلابي، حيث يبين الكاتب أن الدولة البعثية هي دولة حيوانات لاحمة، جائعة على الدوام، وتستمتع بأكل اللحم البشري نيئاً كالحيوانات ولعل ذلك دأب كل الأنظمة المخابراتية المعتمدة على العنف كمادة أولية أساسية في ترهيبها للناس وحثهم على أن يكونوا تماثيل ساكنة، تكرار الكاتب لمفردتي الوحش والتمثال،بيان لحالة الترابط التاريخي ، إذ أن تمجيد التمثال واعتباره كائناً أبداً، ليكون بمثابة وثنية للخوف والنظام الشمولي يستدعي على المدى غير المنظور لقيام حركات

. تتخذ العنف طابعاً عاماً وقد يكون ردة فعل هدامة ووحشية مضادة لوحشية ممنهجة وقائمة،إذ أحسن حليم يوسف فهم الانتحار وعزا ذلك لفساد السلطة وانتشار الظلم ، حينما رصد يأس المعلم آرام ، إزا عجزه عن مساعدة سالار وإخراجه من السجن، فوضع حداً لحياته شنقاً عبر ربط أحد التماثيل الكبيرة بحبل ، في ظل استبداد النظام الاستبدادي ترتفع معدلات الانتحار، وتصبح الحياة أكثر صعوبة ويستطيع الأدب وفق تلك الصعوبات النفسية أن يسهب في الحديث عن دوافع إنهاء الحياة ومآلاتها على الآخرين، فالإعدامات والأحكام المؤبدة من ناحية وحالات الانتحار من ناحية أخرى دليل على استحالة بقاء النظام على ماهو عليه لأمد طويل، وهي مؤشرات عظيمة للانفجار الشعبوي ، وفهمنا لتلك الحقيقة يعود للأدب وأخصها الرواية ، فهي القادرة على قراءة النفس الإنسانية ومعاناتها بصورة سلسة مؤثرة وكذلك فأن الرواية الراصدة للموت بأشكاله انتحار أم قتال أو قتل الضحية، تعمد لصياغة التاريخ عبر فهم مغاير للحقبة الزمنية ، وكيفية مواجهتها، إنها توثيق وجداني للزمن، ففي بحثنا لتلابيب الرواية وفحواها، لا نجد اللامعقول هنا سائداً بالمقارنة مع سوبارتو وعندما تعطش

الأسماك أو 99 خرزة مبعثرة، حيث ختم الكاتب رواياته السابقة بطريقة خيالية لا معقولة ، بعكس هذه الرواية الجادة والتي لا تحيد عن الواقع قيد أنملة نجد الفرد في الرواية كائناً مسؤولاً مرهفاً، ولا يعدم الوسائل للظهور في المحيط بدور مؤثر فهو المتهكم والمبدع والثائر واليائس، وهو المواجه لقيم السلطة وكذلك المحايد الصامت، إذ يلعب الفرد أخطر أدواره في قيادة المرحلة بما تتضمنها من مخاضات وإرهاصات عصيبة، ويكافح ضد التهميش والإبادة بأشكالها، لكنه بلا تنظيم مدني محتَّم عليه أن يتوجع أكثر، ولم يكن من المستطاع إنجاز تنظيمات مدنية في ظل توحش النظام البعثي المخابراتي، كون أي تنظيم مدني سياسي لا يمكنه أن يستمر ، مالم يكن له توجه عسكري راديكالي للتغيير عبر القوة، حيث تفشل الدول القوموية في صهر المكونات العرقية في بوتقتها وبالتالي لا تنجح في البقاء طويلاً، إذ تتفجر العصبيات المحلية والنوازع الطائفية وتتناقض مصالح القائمين على الحكم مع بعضهم ، وينفرط هذا التعاقد المصلحي بوجود لوبيات وأجهزة تتعارك فيما بينها، إثر الاختلاف الحاصل في عملها وتقاسم ثروات البلد ، مما يتفجر الوضع داخل السلطة أولاً ويتم استخدام شرائح المجتمع في تلك العملية الانقلابية ، لتبدأ الفئات بالتناحر تحت عدة مسميات منها ارتفاع الأسعار وتفشي الفساد والدعوة لتغيير النظام إلى إسقاطه، حيث كل المفاهيم السلطوية التي تضع الاستبداد قاعدة لبقاء الدولة، تبني بذلك مجتمعاً مقهوراً ، لا يستطيع أن يحرك ساكناً إزاء القهر اليومي الذي يتعرض له، بعكس ما ذهب إليه الخبير في علم الحيوان النرويجي (22) تورليف شيلدرب

أن الاستبداد هو المبدأ الأساسي للاجتماع الإنساني والحيواني والنباتي والجمادي وهو الفكر الأساسي للعالم

إن أي فكر هدفه تبرير الإعتداء على الجماهير من قبل الدولة ، يهدف لعزلة المجتمع، ولا كذلك يكون عثرة كبرى في طريق التغيير ، نرى تركيا وإيران اللتين تحكمان جماهيرها عبر الإسلام المذهبي بشقيه الإجراميين السني والشيعي، هدفه زعزعة المجتمع وضرب استقراره على المدى البعيد، إذن نعود للرواية ونجد في خروج المعلم آلان من السجن إثر عفو تم إصداره من قبل الأسد الإبن تزامن ذلك من دخول سالار للسجن ، مثار سخرية من هذا العفو فالسجون لم تفرغ من معتقلي الرأي، هاجس السلطويين الدائم ، مغبة أن ينقلبوا ويؤسسوا حراكاً مضاداً ، يسحب البساط من أرجل المتنفذين المتشبثين بمراكز الحكم ممن يتنافسون فيما بينهم على قمع الناس وإخراس الأفواه، إن الفكر السلطوي شرس بطبيعته ولا ينفك عن إرث الإستبداد، ويحرص أبداً على الإصرار في البقاء على ما هو عليه من غطرسة وغرور، دون التفكير بالنزول للشارع والتصالح مع الجماهير، لبدء مرحلة جديدة من التغيير والاستقرار الجوهري، التغيير عدو شرس للسلطة الاستبدادية، ووحش ذو حدين، وهو يمتلك أبداً الجانبين المتناقضين الإيجابي والسلبي لمرحلة جديدة تمتاز بخصائص وسمات تأخذ عن سابقتها وتضيف جديداً منبثقاً عن ذلك الحراك العنيف للأفراد المندفعين والمهرولين باتجاه الخلاص المزعوم، في كل نهضة شعبية دماء غزيرة تهرقها المنظومة السياسية عبر دفع مواليها لمحاربة مناوئيها فلا بد من كل سلطة تحافظ على بقاءها أن تدعم مواليها بامتيازات ترضيها وتجعلها إلى جانب السلطة أبداً ، ولتكون تلك الطبقة اليد الباطشة لها والمدافعة عنها، لهذا فالثورة كنعت تعسفي يعني نشوب حرب أهلية بطريقة ما، حرب الإرادات الجديدة ضد أصحاب الإرادات القائمة، فالإرادة المجتمعية على ضوء ذلك هي إرادة تتسم بالتابعية والمتحركة حسب مسارات التجييش الطائفي أو القومي أو الفئوي، وتستسلم لضغوطات

الخارج وأجنداتها، الساعية لتبديل الأنظمة أو للضغط الاقتصادي عليها، هنا تبقى الجماهير عبارة عن وقود لتبدلات الدول وتلك الاملاءات الخارجية عليها في سبيل تغييرها مع الوقت أو إسقاطها، عبر خيارات التظاهرات السلمية وتليها الحرب الأهلية، وهكذا يغرق الشرق الأوسط في مستنقع الضياع فمن سوريا إلى اليمن والعراق ولبنان ، وآخرها إيران، شعوب غارقة في دماءها ، ووحوش تقصف وتقتل وتدمر إرضاء لغايتها في البقاء، يمكننا فهم حقيقة أن ذلك التماسك الاجتماعي يخدم بالضرورة الحراك الساعي لتغيير الأنظمة ، إلا أنه لا يكفل بقاءها على ما هي عليه، في ظل تعنت السلطة وإيمانها بأن العنف والقمع هي الوسيلة الأجدى لإيقاف التمرد، فالمصالح الدولية هي من تخلق أسساً للفوضى ، كما تكون أحياناً وراء صعود أنظمة على حساب سقوط أنظمة أخرى، ولا تأبه تلك المصالح لغزارة الدماء وهول الدمار، بل إنها تسعر التوحش تبعاً لحاجتها من تلك الدولة، حيث انهيارها الاقتصادي سيسهم في تفككها، وتفتتها مع الوقت، هو الحال مع سوريا كما سبقتها العراق ، وتفشى ذلك إلى مناطق أخرى كانت مصدراً لدمار جوارها كإيران ، وبقاء القضية الكوردية دون حل يفسح أكثر لتداخلات المصالح وإعادة ترتيب المنطقة بما ينسجم مع تطلعات الدول الكبرى للهيمنة على الموارد.

يشير حليم يوسف إلى قضية هامة تتعلق بتوحش الناس إثر غياب العدالة والدولة بمعناها الطبيعي الحقيقي، وإثر ذلك القمع الأعمى تنامى دور الوحشية الاجتماعية في الرد الاعتباطي، والخروج عن الجادة شيئاً فشيئاً، لحين الوصول لأسلمة الحراك الشعبي، مروراً بمظاهر القتل ، فكانت المعارضة المسلحة تقدم على الانتقام من تلك السلطة، عبر حوادث كوضع الرؤوس المقطوعة على الأسوار، ومشهد اقتلاع قلب جندي وأكله على شاشات الكاميرا، هذه المظاهر

الوحشية أراد الكاتب من خلال ذكرها، تنبيه المجتمع من مخاطر الحراك المصطنع المعبر عن انسياق الغافلين لأجندات الإسلام السياسي العابر للقارات، حيث تم تصفية هذه الهبة بيسر حينما تغيرت وأصبحت منسجمة مع الإرهاب الإسلاموي وباتت فصائل ما يعرف بالمعارضة السورية وما عرف مؤخراً بالجيش الوطني، متناغمة مع خطاب تنظيم الدولة الإسلامية الممولة قطرياً وتركياً، هكذا نجد أن الحدس السياسي للكاتب لم يغب لحظة عن سياق

. الواقع الراهن، وإنما جاء معبراً أدبياً عن محنة التغيير وأثمانه الباهظة المدفوعة دماً وخراب،وما نعنيه بالهبة الشعبية المصطنعة هي الناتجة عن شعوب غير متجانسة تشترك بالمواطنة في ظل كيانات مصطنعة تم إنشاؤها حسب اتفاقية سايكس بيكو، على أنقاض السلطة العثمانية ، حيث لم تكن لهذه البلاد كيانات حقيقية منذ أن تقاسمت تلك الأراضي سلطة المماليك في الشام ومصر والمغول لما يعرف بالعراق الحالية، وأما كوردستان فقد كانت جزأين ملحقين للسلطة العثمانية من جهة والصفوية من جهة أخرى، تلك التقسيمات لم تحقق فيما بعد مجتمعاً طبيعياً متجانساً، وإنما قامت الأنظمة الحاكمة لتلك البلاد بخلق مشكلات مجتمعية ديمغرافية، وأخرى طائفية، فكانت الحروب الأهلية في لبنان، والانقلابات العسكرية في سوريا والعراق، ومن ثم تسلم البعث الحكم في البلدين ناهيك عن حروب سلطة الأسد للأخوان المسلمين واحتلالها لما يعرف بدولة لبنان، وانشغال سلطة صدام حسين بالحروب الخارجية مع إيران وكذلك غزو الكويت عدا عن التحديات الداخلية والإبادات التي اقترفتها سلطة البعث العراقي ضد شيعتها وكذلك المجازر الوحشية التي ارتكبت بحق الشعب الكوردستاني في حلبجة وعملية الأنفال المشهورة، إن كيانات الشرق الأوسط متشابهة في أنظمتها وكذلك ذهنية شعوبها، ولا تزال محميات دولية.

تغيرت الحياة إثر خروج سالار من السجن، كل شيء تغير بعض من مات وبعض من هاجر، أحداث تنتصب بتسارع أمام عينيه، ذهنه يحاول ترجمة وفهم المفاجآت المتتالية ، وشعور الكهولة يسيطر عليه، عالم جديد استيقظ على وقع ضجيجه، فخروجه من محاولة إماتته جعلته يفتح أذرعه مجدداً لحياة أخرى وعالم متغير بتسارع، أراد البعث السوري أن ينتقم من كل من يناهضه، أو يعمل لإزالة آثاره، أراد أن يكون ديناً خطراً لمجتمعات غير متجانسة ضمن كيان اصطنعه الإستعمار، وقد نجح في تفتيت المفتت، وتخريب العقول وتمكين الخوف ليصبح ناقوس هلاك قادم لا محال، ليقتلع كل ما بإمكانه أن يمسي طمأنينة واستقرار، إن خطر الإيديولوجية القومية ذي الطابع العرقي المتعالي، متشح بعباءة الطائفية وقد جعل الكيان المصطنع بمثابة لغم كبير، يوشك أن ينفجر في أي لحظة، بفعل العامل الخارجي، أو الضغط الاقتصادي فملايين الناس بلا عمل وتعيش على خط الفقر، والبطالة تتشعب وتتضخم باستمرار، ناهيك من أن الفساد يطبق بمخالبه المؤسسات، الأمنية منها والخدمية، ذلك كله ضمن ذلك الكيان المتأرجح ، وواقع مزرٍ يتفشى بضراوة في كافة الميادين وصعد الحياة، هكذا وببروز عوامل الضعف والانحطاط، يغيب مفهوم الاتحاد ويضمحل لصالح بروز جماعات الظلام المستفيدة من ذلك الخراب الروحي المجتمعي، لتجتث الحياة، ولتعمل على تفخيخ العقل من خلال الإسلام السياسي الذي وجد نفسه الوريث الشرعي للنظام البعثي الاستبدادي

فالدين السياسي هو نوع من أنواع الإرهاب المباشر والذي يتسم بقسوته المستندة على آيات قرآنية تحض على الجهاد والعنف، وتجد من المرأة وسيلة إمتاع ومؤانسة، فتعيد للأذهان الجلد وقطع اليد، وطلب الجزية عنوة أو دونه القتال، فأي فلسفة في الدين، وأي معنى خارج الترهيب والترغيب؟!!، كما زعم(

23) أنطون سعادة في كتابه نشوء الأمم : ص 69 "الدين من الوجهة العقلية،نوع من أنواع الفلسفة، في تعليل مظاهر الكون ، وتقدير نهايته ومصير النفس البشرية.

لقد سعت الايديولوجيات القومية إلى قص القصص والأساطير التاريخية التي تبرز التفوق العرقي ، لتكون بذلك سلاحاً مسلّطاً ضد القوميات المجاورة، استخدمت التاريخ لتوظيفه كعامل مهيج ومحرض للتحارب والتنابذ مع الأقوام الأخرى، مما استطاعت أن تحوز على السلطة بيسر إثر دغدغتها لأحلام الجماهير عبر إذكاء نيران التعالي والتفوق القومي، فباتت النظم القومية سلاحاً مسلطاً على تلك الشعوب المتعالية نفسها إذ باتت تبريراً لتلك النظم ببقاء نفوذها واستبدادها وكذلك لترسيخ الطائفية خلف عباءة القومية ومحاربة الاستعمار، الامبرياليةوالصهيونية العالمية وما شابه ذلك من شعارات أغوت الشارع العربي وجعلته يسير كالعميان إلى مضافة النحر والهزيمة المعنوية، حيث اختزنت داخل الجغرافيا المتشعبة مشاكل متعددة وأذابت مكونات لغوية عرقية كثيرة ببوتقة لغة واحدة، ناهيك عن تخلف ذلك الخطاب المطعم بالإسلام السياسي، فبات الانفجار الشعبي وشيكاً والتنازع المنفعي ضرورة ، والخراب الروحي والتفكك الاجتماعي واقعاً محتّماً، ببروز حروب أهلية متشعبة وما تكاد تنشب في رقعة معينة حتى تتسع لتشمل بقاعاً أخرى.

عودة سالار من السجن، بروز لحياة أخرى ومشقات نفسية تعترض طريقه عبر تغير الحياة وسحنات الأشخاص ، رحيل بعضهم، موت البعض الآخر، وتغير البعض، لكل ذلك أعباء على نفسية الإنسان الخارج من معتقله حديثاً، إن سالار هنا يعيش مراحل انتحاره، فهو ينبش في الماضي، ويحاول أن يزج عقله في ذلك الماضي بما فيه من تداعيات وتفاصيل لم يسترعي لها بالاً في السابق، فلم

تستطع السلطة الاستبدادية في اعتقالها للفرد إلا أن تنتقم منه،وتحطم فيه أحلامه عن الوطن والمرأة ، إلا أنها لم تستطع أن تخمد فيه شرارة الإيمان بالتغيير، يعرض سالار تقريراً عن ما رآه بعد عشر سنين من سجنه، الناس بدأت تتغير ومن كانوا ثملين هاذين كسليمو انضموا للجماعات الجهادية وباتوا يقومون بقتل البشر والتفنن بتعذيبهم ، يعرض أيضاً خيانة مريم لحبها لسالار، في زواجها من أحدهم وهجرتها لألمانيا، سحنات البشر النفسية والجسدية تغيرت، وغربي كوردستان تتنفس الصعداء في ظهور قوة عسكرية تحميها، إثر انشغال الحكومة البعثية بحربها مع المعارضة ، المشترك بين الذين يموتون ، أنهم يقولون أن سبب موتهم هي تأمين حياة مناسبة، حيث جدلية موت الذات مقابل حياة الغير، فالناس تتقاتل فيما بينها ، لأسباب متنوعة، كي يحيا الذين لم يموتوا، ولتكون مهمتهم الحفاظ على إيقاع الحياة كما تبدو متناقضة متصادمة بنزق، فكما أنه ثمة إرادة توجه الفرد للموت لأجل هدفه السامي، فثمة إرادة تدفعه للهجرة لتأمين حياة آمنة، .

الشيخوخة التي تغزو الإنسان في أرذل عمره هي شكل وتجسيد عن الوحش في منظور الكاتب هنا ، حيث تتبدل الملامح كلياً عما كانت عليه في مرحلة الشباب، حيث صفاء الوجع ولمعان مسام الجلد، حيث يخيل لسالار أن المحيط الاجتماعي تغير تماماً، والناس التي تجمهرت حول جنازة والدته هي بشر مستوحشة، حتى والده تحول إلى وحش كهل، وأخيراً لاحظ أنه بدأ يتغير، ملامحه مالت نحو الخشونة والاستشراس، حيث قانون الفناء الذي يسري على جميع البشر، والفناء وحش يلتهم الكائنات ، ليحيلهم إلى عاجزين وأشباه موتى، إن ذلك التغير يربك البطل، ويجعله في اغتراب مزمن لا يستطيع الإفصاح عنه لوطئة ذلك الاكتئاب الذي يعانيه والمتفاقم بازدياد بقرب الشعور بالموت، فحين تستبد

المنظومة السياسية بالمجتمع لتحيل حياة أفرادها إلى جحيم لا يطاق، فلا شك سيكون الوحش هو المرآة التي يقيس الناس من خلالها ملامحهم النفسية وترهلهم المفصح عن العقم واللا حل، رواية مفصحة عن الاغتراب، تنقب في ثنايا الوجع، وترفع الأسئلة لتضعها على طاولة التأمل بغية استنطاق وعي المتلقي الذاتي ، كي يعالج روحه من خلال مجموع الأرواح الوحيدة هنا في عالم أطبق عليه شبح الاستبداد والإرهاب على حد سواء، أنهاها الكاتب بتعبير صارخ عن وحدة قاتلة يحياها كل فرد في الرواية على حدة، كل شخوص الرواية محكومون بالعزلة والاغتراب، وليس البطل هنا أولهم أو آخرهم، وليس ترتيبه الأول حزناً ويأساً، فمأساة انتحار المعلم آرام أبلغ، والمعلم آلان أيضاً،ولعل سالار كان المأساة الأخيرة ذات الخصوصية في أنها ترصد المحيط بعيون فاحصة تستعر حزناً ، يجسد حليم يوسف حالات اليأس والضعف، جراء حادثة موت أم سالار، وشعوره أنه فقد معقلاً للدفء يشعره ببعض العزاء، هنا فقد ذلك المهد ، وأصبح على مفترق طرق من النهاية .

وبهذا فقد عبّر عن محنة المجتمع ككل الذي ذهب كمحصلة عن جور السلطة الاستبدادية كضحية فقدت كل ما يوصلها لبر الأمان فبات عبء مواجهة الإرهاب إلى جانب الاستبداد لزاماً عليها تدفع فاتورة حربها من دماء أبناءها ودموع أمهاتها جراء خراب الأرض والنفسية وضياع الانتماء ما بين النزوح والموت وبازار السياسة العالمية الراعية للوحشية المعاصرة.

الهوامش:

(1)-

جان-بول شارل ايمارد سارتر (21 يونيو 1905 باريس - 15 أبريل 1980 باريس) هو فيلسوف وروائي وكاتب مسرحي كاتب سيناريو وناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي.

(2)

فرانسوا ماري آروويه (بالفرنسية: François-Marie Arouet) ويُعرف باسم شهرته فولتير (بالفرنسية: Voltaire). (21 نوفمبر 1694 – 30 مايو 1778) هو كاتب وفيلسوف فرنسي عاش خلال عصر التنوير. عُرف بنقده الساخر، وذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الطريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان.

(3)

جون لوك (29 أغسطس 1632 - 28 أكتوبر 1704) (بالإنجليزية: John Locke) هو فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. ولد في عام 1632 في رنجتون في إقليم سومرست وتعلم في مدرسة وستمنستر، ثم في كلية كنيسة المسيح في جامعة أوكسفورد، حيث انتخب طالباً مدى الحياة، لكن هذا اللقب سحب منه في عام 1684 بأمر من الملك. وبسبب كراهيته لعدم التسامح البيورتياني عند اللاهوتيين في هذه الكلية، لم ينخرط في سلك رجال الدين. وبدلاً من ذلك اخذ في دراسة الطب ومارس التجريب العلمي، حتى عرف باسم (دكتور لوك).

(4)

يحيى سلو : من مواليد 1966 ، قرية أحرز 25 كم شمال مدينة حلب– إعزاز. كاريكاتيريست وفنان تشكيلي صدر له : مسيرة في جبال كوردستان –يوميات مقاتل 1998 ، لغة الجبل في السياسة والدبلوماسية الكردية 2013 .

(5)

اتفاقية سايكس بيكو في 1916 هي معاهدة سرية بين فرنسا والمملكة المتحدة بمصادقة من الإمبراطورية الروسية وإيطاليا على اقتسام منطقة الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا

(6)

جين روجرز

(بالإنجليزية: Jane Rogers) (21 يوليو 1952 في لندن –) كاتبة سيناريو، ومؤلفة، ومُدرسة، وروائية، ومصممة الإنتاج، وكاتِبة من المملكة المتحدة.

(7)

جورج باتريك ويلش

(بالإنجليزية: George Patrick Welch) هو مؤرخ أمريكي، ولد في 1900، وتوفي في 1973

(8)

ميلان كونديرا، روائي فرنسي من أصول تشيكية و هو من أشهر الروائيين اليساريين، حصل على جائزة الإندبندنت لأدب الخيال الأجنبي في العام 1991

(9)

فيديريكو غارثيا لوركا (بالإسبانية: Federico García Lorca)

شاعر إسباني وكاتب مسرحي ورسام وعازف بيانو، كما كان مُؤلفًا مُوسيقيًا، وُلد في فوينتي فاكيروس بغرناطة في 5 يونيو 1898. كان أحد أفراد ما عُرف باسم جيل 27. يعُده البعض أحد أهم أدباء القرن العشرين. وهو واحد من أبرز كتاب المسرح الإسباني في القرن العشرين بالإضافة إلى زميليه أنطونيو بويرو باييخو ورامون ماريا ديل بايي إنكلان، وتعد مسرحيتيه عرس الدم وبيت برناردا ألبا من أشهر أعماله المسرحية. فيما كانت قصيدته شاعر في نيويورك من أشهر أعماله الشعرية. أُعدم من قبل الثوار القوميين وهو في الثامنة والثلاثين من عمره في بدايات الحرب الأهلية الإسبانية بين قرى فيثنار وألفاكار في 19 أغسطس 1936

(10)

بابلو رويز بيكاسو (بالإسبانية: Pablo Ruiz Picasso)

(وِلد في 25 أكتوبر 1881، مالقة، إسبانيا – توفي في 8 أبريل 1973، موجان، فرنسا) رسام ونحات وفنان تشكيلي إسباني وأحد أشهر الفنانين في القرن العشرين وينسب إليه الفضل في تأسيس الحركة التكعيبية في الفن.

(11)

ديفيد هيوم (بالإنجليزية: David Hume)

(ولد في 26 أبريل 1711 – توفي في 25 أغسطس 1776)، فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي وشخصية مهمة في الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الاسكتلندي.

(12)

تيرينتس فرانسيس إيجلتون (ولد في 22 شباط 1943 في مدينة سالفورد) هو أحد أهم الباحثين والكتاب في النظرية

ويعد من أكثر النقاد الأدبيين تأثيراً بين المعاصرين في بريطانيا. وهو أستاذ الأدب الإنجليزي حالياً في جامعة لانسيستر وهو أستاذ زائر في جامعة أيرلندا الوطنية في غالواي

(13)

مصطفى خليفة كاتب و روائي سوري

ولد في مدينة جرابلس ثم انتقل إلى حلب ، شارك في العديد من النشاطات السياسية في فترة شبابه والتي سجن على اثرها مرتين امتدت في المرة الثانية إلى 15 عاماً؛ تنقل خلالها بين العديد من السجون أبرزها سجن تدمر و سجن صيدنايا والتي استمد منها روايته القوقعة ،هاجر منذ عام 2006 إلى الإمارات العربية المتحدة بعد ان كانا ممنوعاً من السفر خارج سوريا ومن ثم إلى فرنسا حيث يقيم اليوم . متزوج من الناشطة سحر البني شقيقة الناشطين السياسيين أكرم و أنور البني.

(14)

فريدريش فيلهيلم نيتشه (بالألمانية: Friedrich Nietzsche)

(15 أكتوبر 1844 – 25 أغسطس 1900) فيلسوف

ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث.

(15)

ديكتاتورية البروليتاريا هي السيطرة السياسية والاقتصادية للطبقة العاملة على وسائل الإنتاج وأجهزة الدولة من خلال مجالسها العمالية ومندوبيها المنتخبين.

وتلك السيطرة العمالية لا يمكن أن تتحقق إلا بإرادة الطبقة العاملة أي لا يمكن أن تتحقق إلا بثورة العمال أنفسهم. فالسلطة العمالية هي التحرير الذاتي للطبقة العاملة.

(16)

ماكسيميليان كارل إميل فيبر (بالألمانية: Maximilian Carl Emil Weber) (21 أبريل 1864 – 14 يونيو 1920) كان عالمًا ألمانيًا في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث
ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة

(17)

رأس العين : واشو كاني قديماً ، وعاصمة الإمبراطورية الميدية، مدينة كوردية سورية تقع شمال شرقي سوريا(بالسريانية: ܪܫ ܥܝܢܐ)، تقع في شمال غرب محافظة الحسكة على الحدود التركية السورية، يعود تاريخها إلى آلاف السنين قبل الميلاد. وهي النقطة التي يعبر منها نهر الخابور إلى الأراضي السورية. وتتميز المدينة بموقع استراتيجي، حيث تبعد مسافة 85 كم عن مدينة الحسكة، و 90 كم عن مدينة القامشلي. وللمدينة تاريخ أثري عريق، وكانت من ضمن الحضارات الأولى في منطقة الجزيرة الفراتية في سوريا.

(18)

تل أبيض مدينة كوردية سورية تقع في منطقة الجزيرة في شمال سوريا (غربي كوردستان) وتُعد إدارياً مركز منطقة تتبع محافظة الرقة. تبعد عن مدينة الرقة 100 كم باتجاه الشمال. بلغ عدد سكانها 14,825 نسمة عام 2004، وتتبعها إدارياً كل من النواحي سلوك وعين عيسى. موقعها استراتيجي على الحدود السورية التركية وفيها معبر تل أبيض إلى تركيا من طرف بلدة أقجة قلعة (

Akçı kela). تقع على أحد منابع نهر البليخ (عين العروس). سُمّيت نسبة لتل أثري وإلى الشرق منها صخوره جصية.

(19)

جون شيفر (بالإنجليزية: John Cheever) (و. 1912 – 1982 م) هو كاتب، وروائي، وكاتب يوميات، وكاتب سيناريو من الولايات المتحدة الأمريكية ولد في كوينسي، ماساتشوستس.

(20)

تنظيم الدولة الإسلامية أو الدولة الإسلامية أو الدولة الإسلامية في العراق والشام كان يسمى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الذي يُعرف اختصاراً بـ داعش، وهو تنظيم مسلَّح يتبع فكر جماعات السلفية الجهادية، ويهدف أعضاؤه –حسب اعتقادهم– إلى إعادة "الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة"، ويتواجد أفراده وينتشر نفوذه بشكل رئيسي في العراق وسوريا مع أنباء بوجوده في المناطق دول أخرى هي جنوب اليمن وليبيا وسيناء وأزواد والصومال وشمال شرق نيجيريا وباكستان. وزعيم هذا التنظيم هو أبو بكر البغدادي

(21)

توماس هوبز (5 أبريل 1588 – 4 ديسمبر 1679) (بالإنجليزية: Thomas Hobbes)

عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي.

(22)

Thorleif Schjelderup-Ebbe

1894 توليف شيلدرب عالم حيوان نرويجي ولد في أوسلو 12 نوفمبر .توفي سنة 1976

(23)

أنطون سعادة (1 مارس 1904 – 8 يوليو 1949)، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي.

"نشوء الأمم"صدرت طبعته الأولى عام 1938

يبحث في أصول نشوء الأمة وتكوينها_

فلسفة الوجع في رواية الطيران بأجنحة متكسرة

تمهيد: *

ليس سلوك المرء نهج فهم الألم وتعريته مبنياً على رغبة ذاتية يميل لها ذوق وخيال المبدع أو الحالم، فيلسوفاً كان أم فناناً ، وإنما لصوق الفرد بمعاناته المقترنة بالجماعة ألزمه قسراً للتحليق في متن الألم، من هنا فالرواية باتت تتصدر العناوين المتحدثة عن وحدة مصير المجتمعات أمام محاولات إبادتها وطمس هويتها، وقد سلك حليم يوسف دور المتصدي لتلك الهجمة التاريخية التي يتعرض لها الكوردستانيون، فأخذ ينقب عن مشهديات الوجع ، ليستمد من الحوادث الإنسانية رؤيته المشبعة بالتساؤلات وخيارات الذود عن الذات ،إذ نحن أمام رواية توثق حقيقة الجرح والصمود بوجه مسبباته، فتجسيد البطولات الفردية يعدّ عملاً ذو خصوصية، تؤسس للغة روائية كوردستانية، تدوَّن مسيرة شعب نابض بالحياة على جغرافية تم تهميشها وطمسها ، رقعة مناوئة لحدود ملغمة يتخللها وجع كثيف ،تعد منبعاً ثراً للرواية الوطنية الراصدة لثقافة وآمال شعوب تتصدى للإبادة، بوسائل عديدة منها السلاح والإعلام وليس آخرها القلم، ففي ذروة الحروب يتنامى دور الحب في المسير بمناوئة الموت والخراب الحاصل، وكاميرا التشخيص الأدبي والفني تجوب معها، كي تحقق في آليات نكران الفرد العاشق للوجع الكامن ، وترصد ذلك عن كثب، طرق تحصيل السعادة في واقع مزرٍ، فالآلام المدوية في زمن الحروب تحتاج فناً كالرواية لفهمها واحتواءها ، للرواية رؤية خاصة في فهم الحوادث الوجدانية، لكون الوجدان يحيد عن الموضوعية ولا يستطيع إلا أن يعبر عن حالات الفرد وذاتيته المفرطة، لهذا

فاللفن نزوع خاص لفهم الوجود مغاير للفلسفة ، ولعلها في ذاتها فلسفة تغوص وتجسد، تغرق في سردية الشقاء ، وليس هدفها فقط إثارة العواطف، وإنما فهم ما تسقطه الحوادث المؤلمة على النفسية الاجتماعية، إنه ذلك الصراع الضاري بين التعلق والفراق، بين التطرف الديني والحب العميق، بين التشبث بالأرض ومغادرتها، إننا أمام ثنائيات متقابلة ، أخرجتها الحرب الأهلية السورية من دفتيها،حيث القلق وتفاصيل الموت اليومية، صراع نفسي يعيشه الفرد ، يقاسي محنة الخوف ،يحيطه من كل جانب، غريزة البقاء والدفاع عنها بوسائل بدائية كامنة في تحديق الفرد بمن يتعلق بهم ويخاف ألا يراهم، روائح الفناء المنبعثة من المكان، تليها احتمالات الهزيمة والانكسار ومقابلها مشاعر تتعلق بالتحفيز والنصر المحقق، فالألم خبز الوطن المغتصب وشراب المجتمع، إن الذات تبذل مجهوداً في ظل الحرب كي تنهض بأعباءها وأثقالها وتتخطى الاكتئاب ، لكنها ما تلبث أن تصطدم مراراً بصخرة العائق، غريزة البقاء المدافعة عن نفسها والحديث عنها ، شجي في فن الرواية ومثير كلوحة درامية تستدعي تساؤلات الفرد ورؤاه الفكرية في فهم العالم المحتقن ، فالموت حدث مؤثر في صناعة الفن ، وعنصر حيوي يدفع الفرد لبذل مجهود لفهم ما يدور في الحياة من صراعات ومنافع ، بالتمعن لعنوان الرواية نجدها مؤلفة من الطيران ، والإنكسار، رغبة وعائق، حلم الطيران وتحقيق الحرية ، مقابل الألم الفاقع الظاهر بفجاجة أمام الأعين وطريق الساعين للحياة، أما الإصرار على الطيران بالرغم من أن تلك الأجنحة متكسرة، فيدل على غلبة العناد والإرادة الحية على المعاناة الكبيرة، وكذلك إيحاء آخر يقودنا لفهم حقيقة مجموعة من الناس لا تمتلك تلك الإمكانيات التي تؤهلها لعيش الحياة ولا تختار خيار الإستسلام بل المواجهة لانتزاع حقوقها في العيش الطبيعي، في ظل أجواء الحرب ومناخات الموت

الكثيفة ، تأتي الرواية لتتناول حوادث الأفراد وتستقصي عن الإثارة في الألم، وفهم رواية تتحدث عن صراع الحب مع الموت ، مع التطرف ، ورائحة الفناء السارية في الأرجاء، فالموقف النفسي هنا متوتر وقلق، وكذلك موغل في ارتباطه بالأرض والمرأة ، رودي هنا مثال الحالم المتوقد حماسة وحب ، وهو الراوي لحقيقة ما سيجري ومن ثم سيكون أحد الضحايا الذين اصطادهم الموت ، والكاتب هنا يوغل بشجن في تناول هذا الحدث الذي تنعقد خلاله الألسنة والأذهان، ففهم النفس الإنسانية نابع عن مدى تمترسها بحب الحياة ، والالتحام الشديد بالرغبات والعواطف والطموحات الإنسانية، ولعل حقيقة الصراع القائمة ترسخ مفهم الأضداد القائم على إحقاق حق الحياة كبديل عن ثقافة الموت والتطرف الديني، وأهم ثيمة لاستمرار ذلك الصراع هو عشق الأرض وتمثلها في العاطفة والوجدان الذاتي من ثم العام كقيمة جمعية، بعيداً عما تقوله الإيديولوجيات السياسية، وإنما بغية تأسيس وعي إنساني، فإنه لزام على المبدع أن يخاطب الأذواق المختلفة بنداء الوجدان الواعي، وليس بما تقوله الخطابات السياسية التدجينية، إن جملة المؤثرات اللغوية الإنسانية في حقيقتها تذهب لحل مشكلة الوجود ، ولعل مأساة الفرد في تصور الأديب ، أو المفكر ، تذهب إلى أبعد من أن تكون مجرد حدث، فكثيراً ما تكتظ الكوميديا بالمأساة ، وكثيراً ما تذهب الرواية منحى أرشفة آلام الفرد والمجموع انطلاقا من وعي الفرد المبدع لدواعي الألم ومسبباته ، كان الابتكار ثورة معرفية ، وسبيلاً لمعالجة المشكلات الإنسانية المستعصية على الفهم لوهلتها الأولى ، فنظرتنا للكوميديا أنها مزيج مركبات شعورية من سخرية وتهكم وألم وغضب، يجعلنا ندرك أنها آلية نقدية لمعالجة كل رواسب الحياة وتصدعاتها، فليست الشتائم إلا ردة فعل نفسية نابعة عن طغيان جانب الغضب والحيرة في شخصية الفرد، لنذهب لعوالم الرواية التي

تعالج آمال وآلام المجتمع ، نراها تقوم بتكوين الوعي الثقافي الجديد للذات المنتهكة، أكثر من كونها عين راصدة، فالكاتب هنا يوثق روح الأمة ووعيها القومي من خلال دراما الواقع المتجسد كرواية، انطلاقاً من مسؤولية القلم في مواجهة كل ما يتصل بالإبادة الثقافية ومحو الهويات المقاومة للصهر والانقراض، ولتشكيل وعي الأمة تذهب الرواية أبعد كي تحرك خيال وفكر المتلقي ، لتأكيد حقيقة ذلك النفور بما فيه من إرهاصات ومخاضات جمة، ليس نقل الواقع كما هو من عمل الروائي هنا، وإنما المهمة الأكثر تعقيداً ومسؤولية هنا، هو تجلي كل حدث بمظهر فني وفكري يخوض عميقاً في أزمات الإنسان ، ويلقي ضوءاً هائلاً على مسيرة الصمود والتحرر في كوردستان الغربية ما بعد 2011 وصعود موجة ما يسمى بالربيع العربي الذي أحال المنطقة إلى خريف لا ينتهي، ليس ثمة نقل تسجيلي للأحداث وإنما هناك إستعانة ذكية بها لتمرير الأفكار الإيجابية المنعشة لروح المتلقي الشرق أوسطي عموماً والكوردستاني خصوصاً، فتوثيق الدفاع عن هوية الوطن والمرأة أساس ارتكازي لرواية تحمل في معالمها سمات النهضة الكوردستانية من أوحال وأخاديد السبات والخضوع والاستلاب، حيث ارتباط تلك الهوية بالتاريخ القائم على الركون للأصالة والتجذر ، كوسيلة للتشبث بالحقوق المسلوبة، فالمذبحة التي شهدتها مدينة كوباني خلفت ورائها العديد من الضحايا والآثار النفسية الصادمة فلكاتب تأثر بها لاسيما وأنه كان على تواصل مع ضحاياها قبل أن يلقوا حتفهم ، ويصبحوا شخوصاً رئيسيين في روايته ،ومما لاشك فيه فإن تجسيد المأساة وتوثيق الحدث لأخذ المغازي منها يعتبر رسالة قيمة على ضوء ما ينشده الإيمان بقضايا الأرض، فكان لهذه الرواية دوراً في الحديث عن اتحاد الكوردستاني بأرضه وعشقه ، إذ لم تلعب على الوتر الإيديولوجي ولم تتطرق لذلك بتاتاً، وإنما انحازت للإنسان الضحية

وقد ربط بين ضحية اليوم وضحية الأمس على نحو يبعث على اليقظة بالالام التي ما برحت ذهن المجتمع الكوردستاني ماضياً وحاضراً، هنا الرواية تترفع عن كونها مجرد شجون خاصة بالكاتب، وإنما راحت تلامس الوجدان الجمعي على نحو يبعث على التساؤل وكذلك الرسوخ في حالة الإيمان بالانتصار على ما من شأنه أن يقف في وجه الإنسان العاشق والمفكر المتطلع للسلام والخلاص، فهنا رودي يتحدث ص 12 :"إحساسي قال لي ، أن زلزالاً قوياً سيحدث في هذا الوطن، زلزالاً ليس كتونس ، ليبيا، ومصر، وليس ربيعاً كربيعهم، من جهات الدنيا الأربع تكالب علينا أصحاب الرايات السود وأخذوا أماكنهم حول كوباني، تم التطرق لنوع مختلف من الكائنات، لم يكونوا بشراً كونهم كانوا يقطعون رؤوس البشر، ولم يكونوا طيوراً وحيوانات، فلم يكن لهم أجنحة أو ذيولاً، البعض قال أنهم نوع من الطيور أشبه بالغرابيب، إلا أنهم كانوا غرباناً هرمة وأعمارهم تناهز ألفاً وأربعمائة عام، وعملهم تدمير وأكل لحوم البشر، والبعض قال عنهم أنهم جند الله وعملهم هداية الناس إلى دين الإسلام الصحيح، من انكلترا ، ألمانيا، بلجيكا، فرنسا ، هولندا ، استراليا، كندا ، وأمريكا مروراً بتونس والجزائر ، المغرب ، مصر ، الأردن، ليبيا، الصين ، الشيشان، أوزبكستان، أخذوا يمهرون جوازات سفرهم في مطارات البلدان الجارة قبل دخولهم قوافلاً إلى المدن الحدودية،بهذا المعنى من الألم والتبصر بفداحة الخراب ، أراد حليم يوسف أن يخوض في مغامرة السعي لفهم الإنسان الكوردستاني في خضم تحديه لأشكال البلاء والموت، فنجد تجسيداً لقوافل المتربصين بالحياة تأتي من كل صوب وحدب لتقتلع الحضارة ، ولتفتك بكل ما هو حي ونقي، تلك ثنائيات الأضداد، فالحب وجد ليذود عن نفسه في حياض الحرب، وكذلك الدمقرطة جاءت لتكون مناهضة للاستبداد والتطرف والعودة إلى الهمجية البدائية.

استطاع الكورد في غربي كوردستان (سوريا) وجنوبها (العراق) تحقيق النصر على داعش بمؤازرة التحالف الدولي، عبر تغطيتها الجوية وضربها لمواقع داعش وطرق إمداداته، بالتزامن مع تقدم القوات، ولابد بعد النصر العسكري أن يتعزز ذلك معنوياً داخل الناس، وتلعب الرواية دوراً في ترسيخ المنجز العسكري كي يتوثق أدبياً ويصبح أحد القرائن الهامة في ذود الإنسان عن نفسه ، وما كان ذلك لينجح لولا الحافز المعرفي المتجسد بوعي المقاتلين بسلبيات التطرف ونتائجه الكارثية على الإنسان وحياته، هذا الوعي الدال على كفاح المعرفيين الشاق في سبيل المعرفة الحياة والإعمار، مقابل قوى تعمل على التدمير والقتل بلا هوادة، حيث صياغة بطولات الأفراد روائياً، يمثل تعزيزاً لروح الأمة الساعية لخلاصها وتحررها من التبعية للنظم القمعية المستعمرة، إذ يعد التطرف الإسلامي وبالاً على الفكر، المجتمع والجيل الناشئ ومعادياً لكل نهضة اجتماعية معرفية صحيحة، فكان لابد من تعرية المقدس وفهمه جيداً ومناقشته بطرائق أخرى ، إحداها اللجوء للرواية لما فيها من آليات شفافة ومرنة قادرة على الإيغال في النفوس والأذهان، وتحطيم مافي العقول من أوثان، كي يتم وضع قضية الخلاص المعنوية للفرد على قائمة القضايا الإجتماعية، فما الحروب والنزاعات الدينية الطائفية إلا وسيلة لقهر المجتمع واستنزافه، وهذا يدخل في سياق تجهيل الفرد، والآليات الدينية تسهم بسلاسة في تعميق الهوة بين المجتمع والقراءة في مختلف الإتجاهات الفكرية، وأحد الأسباب المعطلة لمكافحة التطرف الديني فكرياً هو سعي الجهات السياسية الدولية في استخدام الجهاديين كورقة ضغط على بعض الدول والجهات السياسية المتصارعة معها، وبذلك تتجاهل الاهتمام بالمكافحة الفكرية للتطرف، كونها ترى الأولوية في مصالحها ومنافعها، فضراوة الصراع هو نتيجة عن تواطؤ دولي واضح في مكافحة الإرهاب الجهادي، حيث لم تلقى

مكافحة الإرهاب فكرياً أي اهتمام ، فباتت شعوب الشرق الأوسط من ضحايا هذا الإرهاب، وطغت لغة المصالح الاحتكارية لدرجة تواطؤها مع الإرهاب ذاته، فليس الإرهاب حكراً على جماعات معينة بحد ذاتها وإنما تمارسه دول ترعى الإرهاب جهاراً نهاراً وهي عضوة في حلف الناتو- 1- (تركيا) وكذلك نجد الدور السلبي لإيران بدعمها اللامحدود لميليشيات إرهابية كالحشد الشعبي وحزب الله، والفاطميون وفصائل أبو الفضل العباس والحوثيين ، إذ لا جدية لدى مجلس الأمن أو الأمم المتحدة في وقف الجرائم والانتهاكات وإنما تتحرك حسب مصالح الدول المؤثرة، وحسب الفيتو الذي ترفعه بوجهها لتعرقل أي مسعى لحماية المدنيين ، فلا تتطرق الرواية بالتأكيد لكل ذلك الفيض من التفاصيل السياسية وإنما تهتم بالحقل الإنساني ، لما تحتويه من مواجع وشجون وآلام ناتجة عن تلك الحروب والنزاعات التي تحصد نتائجها شعوب المنطقة دائماً.

الإرادة المجتمعية في مواجهة الإرهاب

يولي الكاتب هنا لموضوع التطرف الديني وتبعاته الكارثية على المجتمعات، فنيرانها تتسع وتتشعب تبعاً لحاجات الدول الإقليمية للإسلام السياسي، فالتعصب الديني المذهبي سريع الولوج للمجتمعات التي تعرضت للعنف الدولتي، فالأنظمة القمعية تهدد دوماً بأن بديلها هم الإخوان وتشكيلاتها المنتمية لجوهر فكر القاعدة، يُظهر الكاتب جانب المأساة الصادمة في حيثيات أحداث الرواية، ليؤكد على أهمية التآلف الاجتماعي، والصمود بوجه الملمات، والظهور بمظهر المتسلح بالحب والإيمان بالأرض، فتفشي التطرف الديني تلا إرهاب الدولة بحق

المواطنين، مما يشهد في كثير من الأحيان تواطئ الدول القمعية الإقليمية في دعم التطرف الديني لأغراضها المتعددة، إذ ثمة صلة طبيعية بين إرهاب الدولة الذي يفسح المجال لفوضى حروب أهلية تسهم في تدفق الإرهابيين وكذلك السلاح، كما في أفغانستان والعراق، وأخيراً اليمن وسوريا، فالمدن المدمرة ، غياب الأمان وموت الشباب، كذلك تجنيد القاصرين ، كل تلك الأوبئة الناتجة عن الحروب الداخلية ، تنتج عنها روايات لا تنتهي تتميز بمأساتها وشجونها، شرعنة الجنون كامنة في حقيقة التنظيمات المتخذة للمقدس ذريعة للتمدد والاتساع، مستفيدة من كم التجهيل الذي رعته النظم القمعية طيلة عقود متتالية من الإنقلابات العسكرية وحالات عدم الاستقرار التي رافقت القمع السلطوي وفياب العدالة والقانون ، وتحول الوطن لساحة فوضى يتقاسم مساراتها المسؤولون ورجال الأمن والمخابرات، في ضرب الإستقرار النفسي للفرد وخنق الأصوات المطالبة بالتغيير ورفع الطوارئ والأحكام العرفية، الأمر الذي ولّد احتقاناً شعبياً وتجهيلاً حقيقياً اتسع بتفاقم الفقر والبطالة وانتشار الفساد والمحسوبيات وتسلط العادات والتقاليد الذكورية، لقد مر حليم يوسف في معالجة تلك القضايا عبر رواياته الأولى وانتهاء بالرواية التي أمامنا،

. فنتيجة كل ذلك هو ما نراه الآن من إمعان في تصوير المأساة المجتمعية يعود رودي لاستعراض المشهد السياسي منذ بدايات الأحداث والحرب الأهلية في 2011 ، حين انسحبت القوات الحكومية من المناطق الكوردستانية في شمال سوريا، متوجهة للمدن الكبيرة ذات الثقل، حيث بدأ سكانها بملء الفراغ حينذاك وتنظيم أنفسهم من خلال قيام حزب الاتحاد الديمقراطي –2 – بتأسيس مؤسسات أشبه بنواة دولة، وهكذا وفي غمرة تلك النزاعات الوحشية تارة بين النظام والمعارضة ، أو بين فصائل المعارضة نفسها، ناهيك عن وجود فصائل

متسلحة بفكر تنظيم الإخوان المسلمين السلفي، فأمام مسرح الأحداث المتلاطمة ، يروي رودي قصة حبه ونموها مع بروين، هذا التدرج الدرامي يتميز بشجونه وواقعيته وبساطة لغة الكاتب بدت أقرب هنا للروح الشعبية المواكبة لتلك الحداث حينذاك فلسان حال رودي يستولي عليه القلق والأمل والفضول لما ستؤول إليه تلك الأحداث والمتغيرات المتسارعة، المشهد بالغ التعقيد وحرائق النفس المنتهكة تستعر، ومقابل ذلك فاتورة الدم، لابد من أن تدفع والأقلام تحدق بذهول وتواظب على الكتابة وتوثيق ما جربن أما النقد فغارق ومتورط بمآسي المجتمع ورؤى المبدعين الحالمين بالأفضل على جميع الصعد، فما يتم نقله على ألسنة الناس كفيل بأن يخدش ذات الروائي ليدفعه لصياغة ذلك فنياً، لاسيما وأن الموقف هنا يتمايز بحساسيته وخصوصيته على الذات المتلقية لمآسي الغير، وذلك الغير يتميز بحساسيته و خصوصيته على الذات الأخرى، وتلك الذات المتحدثة سرعان ما تنتقل إلى عالم الموتى، ليصبح تأثيره على الكاتب أقسى وقعاً، فالحديث عن حدث مفهم بالدلالات والمعاني الإنسانية ، حدث مواجهة الموت والتماهي مع المتغيرات، فالمنطرفون وإن أدركوا انحسارهم قريباً إلا أنهم لا يتراجعون عن قتلهم وبترهم للرؤوس، لأن ذلك وارد في صلب عقيدتهم، فالكارثة حتمية ولها سياقات مرتبطة بتفتت المجتمع الكوردستاني ومعاناته سياسياً بسبب ذهنية السلطة التي تمارسها الزعامات على نحو إيديولوجي مقيت يتسم بالتفرد وإقصاء المخالف، وكذلك وجود أزمة في ذهنية المعارضة، فهي ترتهن لأجندات الأعداء على نحو مباشر ، كل ذلك يمثل ثقلاً على كاهل المجتمع، ويجعله بمعزل عن الأمان الذي ينشده ويسعى إليه، حيث النزوح والموت والاشتباكات والحواجز على الطرقات، أفضى لمشهد مأساوي، فداعش حين تبطش فهي تستلذ ، والانتقام لذة مستترة تخفي سعي المتطرف

الغريزي إلى التوحش والإجرام، إرضاء لاضطرابه النفسي، فالعمل الأدبي يقيم المناخ الشجي الهادف للتأثير على المتلقين ودفعهم لفهم الحقبة والزمن وخصوصيته ، وما صدر عن الأفراد من ردود فعل تنم عن كراهيتهم للتصعيد . وابتعادهم عن الخطر، رغم وجود المحتمل في كل مكان وليس هنا الموت بمعزل عن أماكن الآمنين،وجب فهم المعضلة المتمثلة بتخلف أدوات مواجهة التطرف الديني وكذلك الإبادة الثقافية والابتعاد عن الروح القومية الجامعة من خلال التحليق في أوهام المشاريع المخفية في جوهرها نكهة العبودية وإقامة سلطات انقلابية جديدة هي بالأصل نتاج النظم القمعية المحتضرة، إلا أن الرهان الوحيد هو روح المقاومة النابعة من إرادة شعبية فتية تكافح لأجل بقاءها ونوعها العرقي ولونها الحضاري، لاشيء آخر غير ذلك، رغبة الشعوب في المقاومة والتشبث بإرثها الثقافي والوجودي أقوى من مؤامرات النظم القمعية والتي تسعى لتكون مكانها، فالحب هو المعادل الحقيقي للوجود الإنساني في ظل الحروب والأزمات التي تطال الشعوب، وتناول الرواية للحب في زمن الحرب الأهلية ، يعبّر عن ذود الإنسان عن نفسه ، بغية تحقيق الأمن الذاتي والاجتماعي لنفسه، لهذا نجد كل ما يتعلق بالأحاسيس والأفكار متصلة ببعضها على نحو وثيق، ذلك الترابط ما بين الضحك والحزن والجنون والغضب ، والبكاء، من ثم التفاؤل ، كل تلك العواطف المتأرجحة في واقع مجتمعات النزوح والحروب الأهلية، يشير إلى نوع من المقاومات يتم إبداءها بغية احتمال أطول للمأساة، حيث تربية الغباء من عمل الساعين لتسعير الحروب الأهلية وتعليب المجتمع، وبالتالي يسهل على الجهاديين اختراق المجتمعات وسحبها لمعاقلها، فالجهاديين الدينين واليساريين ، يكادون يلتقون على قواسم مشتركة مرتبطة بتأليه الزعامات، وكذلك الاهتمام بالمجال الدعائي تحت مسمى التدريب أو الدورة الشرعية(غسل الأدمغة) ، وقد

أثبتت الإسلام السياسي، كما أثبتت الإشتراكية السوفيتية ومشتقاتها في دول أخرى، أنها بؤرة لخلق أنظمة استبدادية مخابراتية غارقة في الفساد والاستبداد وعداء المعرفيات ، والمعرفيين، وكذلك إنشاء مجتمع قوامه الخوف والاغتراب والعزلة الخانقة، حيث نجد الاشتراكيين الشرق أوسطيين قد انقسموا إلى قسمين قومي وآخر مؤمن باليسار ، وقد انكفؤا عن أنفسهم في بدايات الحراك الشعبي المسمى بالربيع العربي فكانت رؤاهم ومشاريعهم موارية وكان همهم الوصول للسلطة، ولم نكن لنجد أن ثمة فرق بينهم وتلك النظم، وبالتالي عزف الإسلاميون على اسطوانة إقامة نظام إسلامي ومحاربة العلمانية ، فأودوا بالحراك الشعبي إلى الهلاك والاحتضار، فباتوا بيادقاً بيد الدول الإقليمية الداعمة لهم كالسعودية وقطر وتركيا وإيران، وبنظرتنا لطبيعة المجتمع الكوردستاني في غربي كوردستان وتحديداً كوباني، نجد أنه وعلى الرغم من روح الإقطاع والذكورية السائدة حراكاً شبابياً متطلعاً للخلاص ريادته المرأة الكوردستانية هناك، إذ أن طبيعة الحصار إثر احتلال داعش لتل أبيض خلقت ظروفاً لنقلة مهمة على الصعيد الاجتماعي في تعبئة الناس بمواجهة الاجتياح الظلامي ، نجد بالمقابل استعداداً من شابات وشباب المنطقة للذهاب إلى جبهات القتال ليسود ذلك المناخ مكان المفاهيم الذكورية الناظرة للمرأة أنها الحلقة الأضعف وفي اتجاه محاربة المفاهيم المضطربة للمجتمع الإقطاعي كان انضمام المرأة بمثابة تحد قطعي لاحتكار الرجل للسلاح والهيمنة على القرارات المصيرية، وقد أشار حليم يوسف بمعرض تجسيده لحديث جيهان في

. المشهد الذي تلا حديث رودي عن بدايات انبثاق الوعي الأنثوي في الخروج عن عرف الرجولة التقليدي

نقرأ هنا ص 21: "أبي كان يذهب عند كل صبيحة إلى قبر فيان ليقرأ القرآن،

بينما أخوتي كل منهم منشغل في شأنه، بينما أواصل تعلم اللغة وأحذو حذو فيان ، شيرين أخذت تتعلم استخدام السلاح مع الفتيات الآخريات، بينما علت أصوات الغربان السوداء ، العجوز والسفاحة قرب أذني، وشدت حصارها ، لاسيما وأن الحدود التي تجاوزت مئات الكيلومترات باتت مفتوحة بطريقها، حيث نصب المسلحون وجند الموت خيامهم في جهات مدينتنا الأربعة، ولا أحد يعلم ماذا أمامنا وأمام هذا البلد، كثوب قديم كل فترة يخرج منه خيط حتى يهترئ نسجه ويتفكك."

تصوير روائح الموت المنبعثة من طول الحدود ، يضعنا امام مشهد تسري فيه المفاجآت الناجمة عن ذلك ، سلاسة في تصوير الموقف دون تكلف، دون مبالغة وبلغة بسيطة قادرة على الوصول للمتلقي ، وهو يتهيأ بكل حواسه لإلتقاط المشهد بتلك العفوية، خيارات الحروب الداخلية مريرة سواء إن كانت متعلقة بالهرب أو البقاء المؤقت، أو الذود عن الأرض، لاسيما وأن علاقة الناس بالموت تغدو قريبة وواضحة، والمفاجآت القادمة ستكون قاسية ومتعبة على الروح والذاكرة، تغدو الأماكن مدعاة لتفكر أكبر واغتراب أعمق، يطال صميم الذات، ويكون مصدراً لفهم الحقب التي يتعرض فيها المجتمع لتغييرات نفسية وجغرافية تطال مفاهيمه ومساراته المعرفية أيضاً، والتي قادت لجيل غير متعلم، أميل إلى العنف واستشعار الأخطار، وكذلك متطلع لحياة أكثر أماناً رغم ضراوة الأخطار المحدقة، حالة القلق من المستقبل القريب، شيء يضاد الترتيب النفسي ويجعل الفرد مقيماً في الخوف، المستقبل الغامض يلف المنطقة ككل، والوقائع الأليمة السائدة في جغرافية تم نهب مواردها المائية، الغذائية والنفطية على مراحل ،وحدت من تطلعها للتنمية، ونتيجة سياسة الإبادة الثقافية والتغيير الديمغرافي المستهدفة للهوية الكوردستانية، ومروراً بالأوضاع البائسة واضطرارها لمواجهة

التنظيم المتطرف بمفردها، جعلت مكونات المنطقة تعيد تنظيم نفسها وإخراج طاقاتها في المواجهة، مما جعلتها تدفع فاتورة باهظة في مواجهة ذلك، وهنا مربط المأساة، فالتصدي لخطر الإسلاميين مثّل تحدياً لمكونات المنطقة، ولاسيما عزم تركيا العنيد في ضرب كل حالة تنظيمية كوردستانية ساعية لحياة حرة ديمقراطية، فنجد تعقيداً مستولياً على المشهد بالتزامن مع المعارك والاشتباكات المتلاحقة، لغة الكاتب هنا جلية يستسيغها الذهن عبر رصد الوجع ووصف المكان والشخوص وتنقلاتهم، سحناتهم وأوجاعهم ، كان بمثابة الكاميرا ذات الجودة والصفاء العالي الذي مكن الرؤى من فهم ما يجري، وكذلك نفسية الإنسان العاشق في ظل هذه الحرب الداخلية وكوارثها، الموت إلى جانب الولادة، العشق إلى جانب الرحيل، ثنائيات مجاورة لبعضها تنقل لنا واقعاً يتشرب البؤس وكلما يحاول أن ينفض عن ملامحه الغبار، يتهدم جانب من داره

شجرة الجوز تتحدث عما يحطيها من أشجار وأشخاص يتغيرون كل حقبة زيادة أو تناقصاً، تتحدث عن سعادتها في أنها أنها كانت من نصيب بروين، وتروي بدايات الحب التفصيلية بين بروين ورودي، ونمو ذلك الحب بالتزامن مع اشتداد الخطر وقرب هجوم داعش على كوباني، أنسنة الشجر كأنسنة الكلب بوزو وأنسنة الباب الحديدي، في رواية عندما تعطش ،الأسماك هنا يميل الكاتب لتوظيف الأشياء خدمة للحكاية التي يرويها إن ذلك يزيد الإحساس بالواقعة ويضفي عليها مسحة درامية، ويخلّص السرد من مرض الرتابة والركود التقريري، كذلك يشرك خيال المتلقي في فهم روح الحدث، كل اجزاء المكان تنطق ما يريده المؤلف ، وتدير بوصلة الرواية، لتجميع زخم الأفكار وتوجيهها على نحو مركز، لإدراك القارئ وتصوراته بغية مخاطبتها والإيغال في التأثير بمكامنها، فكل ما هو مرتبط بقضية انتصار الإنسان على قيم العنف والاستبداد ولواحقه، متعلق في

لغة الرواية ومساراتها السردية والحوارية معاً، فالمنهج التأويلي يحقق في جودة النص وقربه من النفس المتذوقة، ويتحرى في الجماليات ، وكذلك في عملية التأثير اللغوي وجماليات الأسلوب، فمثلاً مشهد القبلة بين بروين ورودي عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، يرمز إلى التفوق العنفي الحاصل في المجتمع الذكوري بسبب تلك الرهبة الاجتماعية المعتبرة العلاقة الإنسانية من المحظورات المعتادة في الحياة ، وبصدد التأويل فإننا ندرك حجم المعضلات الإجتماعية العاصفة بالمجتمعات القبلية ، وسبب انعدام الحرية الأساسية مرده ا استبداد النظام السياسي وإبقاؤه على التخلف، الأمر الذي يجعل من المجتمعات تواجه مصيراً مجهولاً في حال انفكاك العقد السياسي وتشرذمه وبروز التحدي التالي المتعلق بالفوضى والحروب الداخلية ، مثالاً مواجهة تنظيم داعش الإرهابي والذي يستخدم منتهى القسوة تجاه المجتمع، إذ لطالما تم قتل أمثال بروين بسبب محاولاتهن في أن يعشن كعاشقات ويتزوجن بمن يحببن ، من خلال جريمة الشرف والتي يدخل الجاني بعد ارتكابه لها للسجن مدة ستة شهور ويخرج بعدها بطلاً يعتد به، فحوادث الذبح لا تختلف عما ارتكبته داعش لاحقاً بحق السكان الآمنين العاشقين لأرضهم وحياتهم، من هنا نجد نجاعة فن التأويل ومدى قدرته على التحليق والاستطراد بعيداً لفهم الواقع المجتمعي في كوباني، ومن ثم فهم الكوارث الإنسانية المتلاحقة جراء غزو داعش للمدينة وارتكابه للمجزرة بعد تحرير المدينة بعد شهور، فالعنجهية العشائرية،والأحقاد المناطقية الكامنة في روح المجتمع، تخفي في دلالتها تخلفاً طبيعياً تم تقليصه بشكل نسبي بعد 2011، حيث تغير واقع المجتمع اثر انخراط المرأة بشكل كبير إلى جانب الرجل في حماية الأرض والمكتسبات.

تميل الرواية إلى الأنسنة كما تميل الكتب المقدسة لذلك ، والقاسم المشترك

بينهما هو توجيه الإنسان المتلقي لخيارات محددة، ورسائل مرموزة تجسد ما يجب أن تكون عليه الأفعال والتصرفات الإنسانية، وتخاطب جوهر الذات لكونها المستهدفة في أي خطاب أدبي أو ديني، حيث طبيعة العنف المجتمعية وتقدم العنف الأكبر، قلّل من مناعة الأمان والشعور بالثقة، ومجرد طرح خيار المقاومة فإنه بات ثمة سبب وجيه للتصدي والكفاح والتغيير الاجتماعي ، حيث التغيير يمثل هنا أسلوب درء الخطر الوجودي وتجاوز حقبة الضعف والتفكك والنهوض بمستوى الوعي بحقيقة الواقع المتبدل كل حين، وهنا تلعب الرواية دراماً في التحدث عن المأساة وحالات السقوط التي تواجهها مجموعة من الناس تعيش في جغرافية خطرة، وهم على خط النار، حيث تشهد اضطراباً لا يتوقف، وفي تلك الأجواء المشحونة يقف القلم لينبه بضرورة هذا التلاحم الجمعي ووحدة المصير القومي بمواجهة الاندثار والإبادة.

لا يمكن للمجتمعات التي لم يكن لديها تجربة في خلق تنظيمات عنيفة أن تواجه الأذى الذي من الممكن أن تتعرض له، حتى النظام السياسي يحدد مستويات الاستعداد للعنف لدى المجتمعات، فحين يتم تجريدها عن العمل وابداء الرأي والتعليم الجيد، فإن ذلك يولد عندها حالة من النفور والاستعداء ومن ثم التهيوء للعنف ، إذا ما توفرت لها الأجواء ، وهي تنشط بوجود الفوضى، وتتغير تبعاً لذلك العقائد والتقاليد والعادات، ويصبح من الصعب لجم فورة الجماهير والتحكم بها إذ ما وجدت مساحة للتحرك من خلالها، ففي حين تنشغل السلطة بمواجهة التهديدات الخارجية الموجهة ضدها، تقوم الجماهير الغاضبة والمعارضة لها باستجماع قوتها لتقوم على نحو شرس في محاولاتها لتغيير طبيعة النظام، ورغم تلقيها القمع لأوسع نطاق، فإنها تحارب ولا تدخر وسيلة للإبقاء على فوضاها لحين يتم البت بتشكيل سلطة جديدة تنوب عنها، وهكذا نجد تعدد الأصابع

الخارجية المتحكمة في ذلك لتقوم بوضع ثيمات لنظام سياسي جديد، وليد عن الأول ويحاول أن يكون جامعاً في قوانينه بين النظام المتهالك والقائم، كما قال نيقولا ميكافيلي 3 بهذا الصدد بأن كل سلطة جديدة تبقي على بعض القوانين التي استعملتها السلطة السابقة للتحكم بالمجتمع، "كتاب الأمير" فالنظام السياسي الذي بالغ في عزلة غربي كوردستان ، عزلة مناطقها بعضها عن بعض، وترسيخ المناطقية بين الكورد، أراد أن يفتت المفتت، وكذلك هزيمة العرقية الكوردية والحد من تطلعها للامام، إلا أن ثقافة النهوض كانت لها بالمرصاد، فكانت حالة الاتحاد والوعي الاجتماعي قادرة على ترجيح كفة الحياة الديمقراطية مقابل هزلية الحياة الذكورية غير القابلة للتطور وإنما للضمور بتقادم المراحل ومستويات الإرتقاء المعنوي ، الأخلاقي والمعرفي.

لقد عمّق الإسلام السياسي المتحالف مع النظام السياسي القومي في سوريا من الفجوات الاجتماعية وجعل العنف خبزاً للحياة والشتائم قاموساً لغويا، ففي فهمنا للرواية نلمس رموزاً عديدة تنقلنا لمتاهات الإشكالات وتدفعنا دفعاً لفتح الأبواب الصدأة لما خلفها من غصص وسجالات لم تنتهي، فرسوخ الحل عميقاً يكمن في حالة التصالح المبنية على تعرية الأزمات والوقوف عليها، فالعمل الأدبي وسيلة للتحليق في فضاء الأفكار، ومد الجسور بين الفنون والعلوم الإنسانية هو غاية النقد الأدبي، وبناء الإبداع النقدي بمحاذاة الرواية هو إعداد للوحة مصقولة بالحكمة والفلسفة والفن، حيث يتجنب حليم يوسف التعقيد والشعرية في تناوله للرواية، كي يقارب بين الكلمة والروح الشعبية، ويحقق الوصول للمتلقي بخاصة الكوردستاني الذي بالكاد يستطيع القراءة بلغته الأم،بيد أن الاهتمام باللغة تزايد بعد ثورة غربي كوردستان عام 2012 ، إذا استطاعت الشريحة الشابة وكذلك الأطفال تعلم لغتهم في المؤسسات والمدارس التي تم تأسيسها، بينما بقي غالب

الكبار في السن أميين في لغتهم ومغتربين عن ثقافتهم، نظراً لعدم وجود مناخ لتعلم اللغة بسبب المنع من قبل النظام البعثي الحاكم ، فكان تأثر الغالبية بالثقافة العربية والغربية واضحاً لدى الكتّاب الكوردستانيين في غربي وجنوبي كوردستان، فيما طغت الثقافتين الفارسية والتركية على الجزأين الآخرين من كوردستان، حيث برزت الرواية في الفترة الأخيرة بعد الشعر ، وسطع نجمها، بخلاف الدراسات النقدية والبحثية حيث نجد أن وجود النقاد والباحثين يكاد ينعدم ، ويعود ذلك لقلة الإلمام باللغة والاهتمام بها، والدفع بها للأمام بمعنى تطويرها، ناهيك عن عدم وجود دعم مؤسساتي لها، إذ لم تضع الأحزاب والقوى الكوردستانية اللغة الكوردية محور اهتمامها، وإنما كان همها الوصول للجماهير وبناء قاعدتها الشعبية وتحويل إيديولوجيتها إلى عقيدة، مهملة في ذلك القومية واللغة الكوردية، ناهيك عن بروز ظاهرة المثقف الشكلي في الأوساط الكوردية وهو ذلك المتبجح بكم الكتب ورؤوس العناوين التي تلقفها ظاهرياً ، فميل بعض الشرائح النخبوية إلى الكراهية يفضي إلى التقوقع والمزيد من الانعزال، إذ كلما تشعبت علاقاتنا مع مختلف الناس ذوي الاتجاهات والأعراق والعقائد كلما تخطينا داء المناطقية والتزمت العفن ونهضنا بقضيتنا ورسالتنا ، فإن كان عمل نخبتنا المثقفة تقليل شأن بعضها بعضاً فحري بالشريحة العادية أن تنتف بعضها نتفاً ولا يجب حينئذ لومها ،نقد الآخر إبداعياً يعني الإشارة لمكامن الخلل والإبداع بمنهجية وليس مجرد إطلاق أحكام تدل على التملق أو الكراهية المبطنة تجاهه، فمن لديه عقدة كراهية الآخر أو استصغاره لن يكبر مهما حقق من نجاحات على الأضواء ، فكل تلك الرواسب المعشعشة في ذهنية الإنسان المعرفي هي نتاج بيئة تم تهميشها وقمعها على مراحل، فالمجتمعات المضطهدة هي مجتمعات تربي الكراهية وتنقلها كالأمراض المعدية، وقد وجب في مضمار تناولنا

للرواية دراسة ما يحيطها والإلمام بظروفها وأساليبها في معالجة الواقع، إن ذلك عمل مضنٍ وممتع في آخر ، لكنه يفيدنا في الذهاب لأبعد مما تتناوله الرواية وإن كانت منطلقاً أساساً للعمليات الفكرية متعددة المسارات والاتجاهات نعني أن يتحول النقد إلى ضرع يدرّ المعرفة والاستكشاف، وألا يحيد عن وظيفته الأصل المتصلة بكشف المبهم والدخول لمنعطفات السرد والخروج منها بنتائج جلية تجذب المخيلة والإدراك معاً، وتخيط من الحدث وشاحاً من الإبداع والتحليل العميق، فكمال النص أكذوبة رسخها رجال الدين وحماته، وأغوت بعض المبدعين النرجسيين ممن نعتوا أعمالهم بالمقدسة وقد ذهبوا مذهباً قائماً على اتهام كل من يتعرض لهم نقداً بالازدراء والشجب، فلو أتيحت لهم السلطة لملئوا سجونهم من الذين أرادوا توجيه ملاحظة أو تقييم لم يرق لهم سماعه، فالمبدع الكوردستاني مطالب في هذا الصدد، بالقراءة المكثفة والإبداع المتأني، وتخليه عن الغطرسة وضيق الأفق.

وبمعرض دراستنا نبحث في مختلف الرؤى والقضايا والمسائل ، طالما اتخذنا النقد والتمحيص ميداناً تأملياً مركزاً، إذ نفهم من مسلك الولوج لمعتقدات الناس وأفكارهم معانٍ خفية تبرز حين نستخدم البعدين الجمالي والمعرفي في تفسيرها، يحدثنا الكاتب عن تلك الاعتقادات الشعبية في مياه النبعة وشجرة الأماني في أعلى تلة مشتى النور، نفهم مدى رغبة الناس في الطمأنينة ونشدان مستقبل أفضل، فالروح الميتافيزيقية صلبة وراسخة بدعم ديني ثبته العرف لنتأمل هنا النص ص 26 : "النساء اللاتي لم يحبلن كنا يذهبن لسنوات يشربن من النبعة، أملاً في أن يرزقن بأطفال، الأمهات كنّ يغسلن رؤوس أولادهن البكم والصم بمياه النبعة كي يشفوا، ومن لديه أمنية كان يذهب ليشرب من المياه منتظراً تحقق مراده رويداً رويداً.

" باتت شجرة التوت في أعلى تلة مشتى النور شجرة للأماني، كل شخص يستنجد بها ويرتجيها

هذا الاعتقاد بوجود ظواهر خارقة تسود حياتنا ، وأشياء يمكن من خلالها معرفة المستقبل، تخبرنا بأهمية الميتافيزيقيا في حياة المجتمعات الشرق أوسطية ، فلطالما ظل إصرار الإنسان على فهم الغد وما سيحدث أو ما يجب أن يحدث قديماً وتاريخياً، فقد أسماها الفيلسوف المعرفي أرسطو 4 بالفلسفة

. الأولى، ذهاب الأب إلى قبر ابنته الشهيدة، مشاعر الهيجان المنبعثة من روح رودي وهو مولع داخلياً ببرفين، الإبنة البكر لعائلتها، وأخبار عن تجمّع الآليات العسكرية في قرية حدودية، مشاهد كاملة ترصد كل شيء، الحب وأخبار الحرب إلى جانب فجيعة الفقد، من يقرأ الرواية يجد التكثيف والازدحام في المشاهد، ومعظمها يلامس المخيلة، وتذكي في الذهن تشويقاً للمتابعة والإحساس بالمشاهد، كون أغلبها معاش، فالحياة لا تتوقف رغم الموت والاستشهاد،مشهد الجنرال العجوز شبه المجنون وهو ينضم للعسكر وهم يمشون مشية عسكرية على أطراف أحد الشوارع ، إنها حالات تبعث على الشجن، الأبنية المهدمة وحكايات الرغبة في الحياة والصمود بوجه الجهاديين، بالرغم من خراب المدينة وبناها التحتية بعد غزو داعش وتحرير المدينة، بغياب الدولة والعدالة ، تتحول البلاد إلى فوضى متسلسلة لاتكاد تنتهي، نحن أمام حياة مضطربة ، لاشيؤ فيها طبيعي، الطبيعة النفسية غير مستقرة ، والعنف يستولي على الملامح ويذهب الإنسان باتجاه أحد الخيارين ، إما أن يكون بمنتهى الرقة والرهافة أو أن يتحول إلى السادية والقسوة، لقد ذهب أفلاطون 5 في رؤيته لأسباب الحرب إلى تبدل الأهواء والأمزجة، وقد نجد في كلامه مبرراً فالنوازع الفردية من الصعب التحكم بها أو التنبوء بردات الفعل حسب الظروف والمفاجآت التي تسود الواقع، وهو ما

نسميه بالظروف المكانية والزمانية ، ودور المحيط الاجتماعي في سلوك الفرد ووعيه ومما نلحظه في المناطق التي تسودها أنظمة قمعية، نمط التفكير لدى الفرد والتي تحدده مؤسسات التربية والتعليم وطبيعة النظام العائلي، نلحظ أن المجتمعات المسحوقة ميالة للعنف والتنازع على نحو مضطرب، ونعزو أسباب ذلك لاستبداد المنظومة السياسية وفسادها وكذلك حقلي التربية والتعليم، حيث رأى أرسطو أن أسباب الحرب تعود إلى فكرة النزاع والتصادم في نفس الإنسان إلى جانب تأصل تلك النزعة في البيئة الاجتماعية، والدولة القمعية أسهمت في ذلك ونجحت فيه، وكذلك لابد من الإشارة إلى المستفيدين من عقلية التصادم والتنازع وتربية ذلك ، ترسيخه ليصبح أداة سطوة وترهيب، وسرعان ما تصبح مصدر إرهاب وتقويض بخاصة زمن الحروب الأهلية حيث تغدو الحدود أوهاماً، يتم فتحها على مصراعيها لتدّخل الدول الإقليمية المجاورة للدولة المحتضرة، ويتدفق السلاح من كل صوب وحدب، وتصبح الفصائلية ، حالة طبيعية، لاسيما وأن المجتمعات حينها تميل إلى التكتلات العصبوية الصغيرة في تعاملاتها اليومية، إثر غياب عدالة المؤسسة أو قوانين مدعومة بقوة النظام . السياسي، بإمكانها سد هذا الفراغ وإعادة الحياة إلى سابقها

وكما أن نهاية كل نزاع هي الصلح ولهذا قيل أن الصلح سيد الأحكام، فكذلك نتيجة الحرب مهما طالت هي الاحتكام للسلم، إلا ان ذلك يتوقف على القوة المرجحة لأحد أطراف الصراع أما الوجع فيطال الأبرياء والعزل وحدهم، الذين يجنون من حصاد النزاعات، تقوم الراوية بتغليف ذلك وينصرف ذوا الأدب إلى أرشفة الحوادث وتداعياتها على المجتمع والأفراد بينما يقوم النقد بإخبارنا بنجاعة الفعل الأدبي وتعددية الأعمال الأدبية والفنية فيقتصد في شرحها ويسهب حسب جودة وقيمة تلك الآثار الأدبية، وتقاطعاتها مع الماضي والمستقبل ،

بمعنى أن الناقد يهتم بأنماط التفكير وسبر الأساليب، لتمييز جيدها من رديئها، فالأعمال الجيدة تحصد أثراً محموداً بالغاً والرديئة تصبح مغمورة وتذهب طي النسيان مع الوقت، فأكثر الأعمال خلوداً هي أكثرها محلية ولصوقاً بقضايا الإنسان والمجتمع ومعاناته، وأكثر الأعمال رداءة تلك البعيدة عن الوجدان والإدراك العميق، تكاد تكون أشبه بالنكات أو الجرائد الإسبوعية، لهذا حري بالمبدع الحصيف التأني والتركيز وزيادة الشغل على النفس بغية صقل الإمكانات ووضعها في خدمة الإنسان وتطلعاته لحياة أفضل.

يرى جان جاك روسو 6 بأن طبيعة الكون تقتضي وجود صراعات دائمة ، هذا يعني ان سيكون هنالك فسحاً رحبة لولادة روايات وأعمال فنية وفكرية، كون الإبداع وليد الحرب، والأفكار وليدة الصراعات، كما يرى توماس هوبز أن حالة الطبيعة هي حرب دائمة مما يفسر وجود الموسيقا والفنون الأخرى، كما وجود الأبحاث والروايات والشعر، فطرح الأدب والفن كبديلين تقويميين لرغبة الإنسان الدائمة بالهيمنة على المقدرات والتصادم لأجل الاحتكار، وهذا يفسر ما ذهبت إليه فكرياً بوجود هذا الصراع العتيد بين قوى الإبداع وقوى الاحتكار السياسي الربحي، على الرغم من أن جهود الغازين تركزت على التوسع وإلحاق ممالك وممتلكات وأقوام لخريطتهم التوسعية ، كانت جهود المعرفيات والمعرفيين تتجمع نحو البناء وترميم ما تم استهدافه، كتطلع حضاري ، حاول النهوض أبداً بالإنسان بالرغم من الحروب والنزاعات المتفاقمة، والتي أثّرت على مجموع القيم التي يؤمن بها الناس والبسطاء ممن التزموا بالاعتدال وطلب الحياة بحذر دون إسراف أو إفراط، في طلب المغريات والسعي إليها بنهم، فواقع غربي كوردستان إبان إنسحاب قوات النظام السوري منها بات مسرحاً للصراع الوجودي بين أبناء الوجود الوطن ، والجماعات المتطرفة ، ذلك الصراع ولأهميته بات سجالاً أدبياً

معرفياً ، أعدّ اللبنات الأساسية لنهوض المجتمع الكوردستاني وريادته في مواجهة التطرف والأمراض الفردية الناجمة عنه، مسؤولية المواجهة

. تضع الأدب أيضاً في مسؤولية توقيق ما جرى ويجري كي يتم البناء عليه لاحقاً،تفسير المبهم وتعرية الغامض رحلة ممتعة في أدغال العمل الإبداعي، وما يخفى على المتلقي ، لا ينبغي أن يحتار أمامه الناقد ، هنالك متسع من الوقت يمكّننا من أن نقرأ ونقلّب الأوجه، كي يتسنى لنا فهم الأدب والعالم المختزل في متونه ، مشاهد الموت تتدحرج في المخيلة كبانوراما متحركة، وقع الانفجارات على النفس، وملامح الشخوص من مريض تكاد حالته تزداد وجعاً وتراجعاً إثر سماعه عن الضحايا فيما إن كانوا يتصلون به بالقرابة، وكذلك حالات التنقل والهروب من الأزمة النفسية العاصفة بالنفس وهي تضفي على الملامح صفاراً ورهبة، هذا الصخب في الأحداث يعكس ما في الداخل من آلام ومفاجآت، كاميرا الإحساس بالحدث تواكب تلك التفاصيل وتدمن الإيغال في أجزاء المكان، تستثمر اللوعات المنبعثة من الدواخل ، وهي تروي غمارها حينما تتحول لمشاهد فنية تنقلها الرواية، لتفك شيفرات الوضوح المنساب ، ولتفتح مسامات الألم الذي ينتشر في الأروقة والشوارع ، مشاهد الجنازات العشر الخارجة من الانفجار كحصيلة أولية، ترافقها قسمات الباكين المنعقدة ألسنتهم، تلك الحوارات القصيرة التي تصف الحدث استطاعت أن تتحدث عما يعتمل النفوس في تلك الحالة، مشاعر مضطربة ، وحديث عن الموت والفقد بين أناس يعتليهم الذهول، أراد حليم يوسف من هذا التكثيف السردي، تحريض السمع والبصر داخل العقل الباطن للقارئ ليتماهى مع المشهد ويتأثر كي يعرف عن حيثيات الحوادث الناجمةعن المعارك المحتدمة اليومية في جبهات تل أبيض، إبان احتلال تنظيم الدولة الإسلامية لمساحات من الأراضي والقرى في ريف تل أبيض 8، فبعد

استشهاد فيان ، أخذت شيرين تحمل السلاح وتنضم لميادين القتال ، لتحمل مسيرة عشق الأرض والدفاع عنها استكمالاً لمسيرة اختها الشهيدة، وقد انحاز والدها لفكرة السلاح بدلاً من القلم ، على عكس ما أرادت الوالدة لشيرين وهي أن تكون معلمة للغة الكوردية، هذا النقاش الهادئ والحار في آن بين جيهان ووالدتها يؤكد انحياز الإنسان بطبيعته للحياة أكثر من المسارات المتصلة بالشهادة والرحيل، تلك الآلام المتصلة بالفقد يعيشها الناس بلوعة وحرقة قلب، وتواكبها كاميرا الرواية بكل اهتمام وشجن، لتلخص حقيقة الواقع الذي يعيشه الناس في غربي كوردستان إزاء مواجهتهم للإرهاب وكيفية قيام المجتمع بواجباتهم بشكل طوعي تجاه العائلة المنكوبة، تقاسم الوجع ومشاطرة الأسى يعبر عن مقدمات لتغيير المجتمع وتشربه لمفاهيم جديدة تنعشه وتسهم في تبدلهم، وقسم الأخت شيرين بدم اختها الذي سال على الأرض هو بمثابة تجديد للعهد في الانتقام من القتلة، كل ذلك يعمق من الإحساس بضراوة الحدث ، الفاجعة الكبيرة المتصلة بالموت، فمشهد الانفجار عبّر عنه الكاتب بانسيابية، كان الوصف يجري بسلاسة لنتأمل هنا ص 35 : "لم تنقضي مدة على انقضاء الاستراحة حتى علا دوي انفجار عالٍ من تلك الجهات الأربعة، سقط كتابي من يدي، قطعة حديدية صغيرة مرت قرب رأسي كرصاصة من نار، بيني وبين الموت شبر واحد، ودون أن أشعر بنفسي، هممت أنزل من على الدرج نحو الأسفل، في الأسفل راحت بريفان وكلستان تبكيان، وجفلت أمي من وقع الانفجار، أخذت أعبُّ الماء من وعاء أبي، حملته وشربته دفعة واحدة، أبي وعند كل صباح باكر قبل أن يقرأ القرآن، كان يملئ الوعاء بالماء ويضعه عند رؤوسنا، وإذ ارتعد أحدنا وجب أن يشرب من ذاك الماء ، استردت أنفاسي بعدما شربت، هرع أخي عدنان صوب الداخل،: سائلاً أختيّ حينما رآهن بهيجان وعينين مليئتين دموعاً ، أخذ

يحضنهن،وقع انفجار كبير قرب مركز الشرطة القريب من الهلال الأحمر، أحدهم قال لي أن أختي راحت في هذا الانفجار، لهذا عدت من فوري للبيت

هذا الموت الفاتح فمه يؤجج ما في النفس من احتمالات السقوط والنهاية، كل المشاعر والمواقف تتراءى في مخيلة عدنان الذي رأى مكان الانفجار وجثة ماهر ملقاة على الأرض على نحو يثير الخوف والحزن، هذا التلاحم الطبيعي بين الضحايا وأهلهم ، متأتٍ من حجم الهلع والألم وضرورة مواجهته معاً، مقابل الموت تتجمع الفئات الاجتماعية بمختلف ألوانها ليبذلوا ما بوسعهم في تقديم التعازي والالتفاف حول الذين لقوا حتفهم، هذا الاهتمام بالضحايا يفسر الانتماء للجماعة والتشارك في أوجاعها ومآلات مصائر أفرادها، حيث يستخدم الكاتب هذا السرد والتفصيل المركز على نقطة التحلق حول الحدث الدموي لما يتخلله من تقلبات نفسية، تمثل الواقع ، تركيبة المجتمع، نفسيته وكيفية مداراته للأزمة، على نحو يفصح عن تحولات المجتمع وتغير مفاهيمه، واعتماده على نفسه وفهم للواقع دون تهويمات وأحلام واهنة، وإنما استناداً للمتغيرات القائمة عند الحرب، ورؤية الناس حين يموتون ويحتضرون، تتشقق لحومهم وأضلاعهم على نحو يثير الداخل ويبعث على الإغماء والتقيؤ وكذلك الوجوم، كل شخصية تتحدث على حدة وتعطي رسالة معينة للقارئ وتسعى أن تكون الأبلغ أثراً في الذهن ، نجد الشخوص هنا مثاليين،يميلون للوداعة والطيبة، وكلامهم يدور حول الحرب وتبادل الشجون والأحزان ، ففهم مأساة الآخرين وظيفة الرواية من الجانب النفسي، ويسهم في الدخول لعملية إبداعية ممتعة غارقة بالتساؤلات الفلسفية اللاذعة ، بإمكانها أن تجعل من الحدث ذات قيمة ومغزى من الناحية التأويلية، وترشدنا بحكمة لمواضع الانقياد للفهم الجيد لمسيرة الناس في ظل تفاقم الأوضاع الإنسانية ورداءتها، فالكوارث الناتجة عن الحروب

الداخلية تعكس في منظورها دعوة لفهم مشكلات الإنسان ومآسيه وأحلامه المنتهكة.

قراءة الموت وفق سياق الحدث

أوجه الموت ومعانيه المرتبطة بالصراع، تترجم في الحوادث المنقسمة المتعلقة بالقدر أو بالدفاع عن قضية محددة، إذ يقتنص الموت الناس دون أن يكون ثمة فارق بين هرم وفتي، فهنا زهير بن أبي سلمى 8 يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن يخطئ يعمّر فيهرم*

أما حليم يوسف فيعبّر عن ذهوله على لسان شجرة الجوز ص 38 : "الشيء الذي كان أقل استرعاء من قبل أهل البلد هو

: الموت بمشيئة الله ، موت العجائز والمسنين ، حين راح هذا الكلام لمسمع رجال الدين قالوا هؤلاء الذين يموتون أليس موتهم بمشيئة الله ؟

–باستهزاء وضحك يجيبونهم : لا هؤلاء يموتون بمشيئة البشر الذين يقتلون بعضهم.

يميز الكاتب بيه هذين الوجهين الواضحين للموت، الموت القدري الطبيعي أو الموت إثر التنازع الدموي بين البشر في المعارك والحروب، إلا ان الشكل الباعث للأسى هو ما ينجم عن الاستشراس الدموي بين الناس، ممن توزعوا حسب موالاتهم واتجاهاتهم السياسية، لقد توزعت الأدوار بشكل تلقائي ، فالمتطرفون يتجمعون في حلقة واحدة وضمنهم قمة فرَق تتخذ من الفروقات المذهبية وسيلة لممارسة العنف، وذلك ينطبق على الجماعات الأخرى، لا يعدم الناس وجود المسوغات التي تفتح لهم الباب للتصعيد والتنازع ، وبوجود الإمداد المادي

والتجييش الإعلامي يستمر ذلك الصراع لتسعير المنطقة، وتوريد السلاح بكثرة، والهدف من ذلك السيطرة على الموارد والخيرات وإعادة توزيع الأدوار والأراضي، فتجديد الصراعات الدينية وإعادة إحياءها تقف وراءهما بقوة كل من تركيا وإيران، وهو تجسيد للأحلام القاتلة في الهيمنة على المنقطة المعانية لسبات معرفي فلكي تستمر صفقات السلاح ، وتتحقق الأرباح ويجني تجار الحرب ما يريدونه على المدن أن تتدمر على الإنسان أن يموت، هكذا تتم صناعة المخاضات والأزمات، لتتعمق وتتأصل، لترتفع مقابلها يافطات حقوق الإنسان والأمن الدولي، تتوطد الروح المذهبية والقوموإسلامية لصالح زلزلة القيم وتفتيتها، لنشهد موجات النزوح ، نتيجة تدمير البيوت والمنازل على رؤوس قاطنيها، وملاحقة الإنسان الأعزل ومحاصرته، لانتزاع لقمة عيشه، كل ذلك على مرأى العالم المتمدن ، يتدفق المتطرفون في كل مكان من شتى أنحاء العالم ، ليمروا بتركيا ويختموا جوازاتهم هناك فيدخلون عبر الحدود المفتوحة لذهابهم وإيابهم، كل ذلك لأجل إبادة الشعب الكوردستاني ومحو وجوده من الخارطة، لصالح توحش التعالي التركي برائحته الإسلاموية، فالحلول المكتوبة بالحبر لا مكان لتطبيقها في واقع هش يشهد خراباً وسوء في الأوضاع ، لتغدو الديمقراطية حلماً مزيفاً ، وتغدو الحقوق المنتهكة يافطات معلقة في الهواء، يتم عقد صفقات باسم حماية اللاجئين ، فيتم توطينه في بيوت ممن نزحوا عنوة عن أرضهم ومثال عفرين التي بيعت إثر صفقة روسية تركية مقابل تسليم الغوطه واضح، تتم تصفية الحسابات الربحية المتعلقة بالنفوذ على حساب الضحايا ، إخراج الناس من بيوتهم ، دكها بالبراميل المتفجرة، نهب وسلب الممتلكات، رواية الحرب تصف وتواكب كل ذلك ، لتكشف التواطؤ الدولي لصالح الإجرام المتفق عليه، وبذلك يمكننا أن نعي صلة الأدب بالفكر، صلة المنتوج الإبداعي بالنقد، كل بناء يحتاج

إلى ترميم، وكذلك إلى إصلاح بين كل لحظة وأخرى، يقوم النقد بتجسيد ما خفي وكان مبهماً، يقدم رؤى من باطن النص، يتعامل مع المعاني كرموز تختفي وراءها دلالات شتى تنتمي لحقول معرفية متعددة، فمن أزمة المجتمع والسلطة ، لأزمة الإنسان والقوى الربحية الدولية، ذلك يقودنا لحقيقة أن وجود نظم قمعية في بلدان الشرق الأوسط والعالم العربي تمت بموافقة دولية لدول كبرى تلعب دوراً اقتصاديا مهماً ولها مكانة عالمية وقواعد عسكرية محيطة حول العالم، تستفيد من بروز النظم المستبدة لتكون بمثابة مسامير جحا للتدخل بالشؤون الداخلية لتلك الدول، وليكون لديها القدرة على تبديل الخرائط إن اقتضت الحاجة لذلك، هذا الانفجار الشعبي تفرضه ضعوطات السلطة الشمولية وعجزها عن فهم الواقع الراهن، تمويهها لذلك العجز وهروبها من أزماتها، وعدم قدرتها على التحكم بشبكاتها وأذرعها، مما يجعلها مهددة بالخلل والتشظي ، لهذا ولّدت لدى المجتمع نفوراً منتظماً وهياجاً ممنهجاً سيأخذها من ضفة النقمة لضفة الهبة الوحشية الناجمة عن صمت مرقّع بخيوط من نسج العنكبوت، في حين أن كارل ماركس 9 رأى أن الكبت في جوهره نتيجة لتناقضات بين الحاجة للتطور الكامل للإنسان وبنية المجتمع المحدودة (ص 133 –ماوراء الأوهام – إيريش فروم) إذ أن الموت في سبيل التغيير في أصله عائد لتلك التناقضات ، والتي تفرض على المجتمع ظروف في غاية من المأساة والانحطاط لأجل تشبثه بوهم التغيير هناك موت يبيت له المرء سواء كان في هجومه على الآخر أو دفاعه عن نفسه ضد هجمات الآخر المتسلح بنظامه الخاص، وهنا يمكننا فهم العنف الدموي على أنه صراع احتكاري يتضمن اعتقاد الفرد بنقاوة عقيدته وأحقيته بقتل المنافس على الجهة المقابلة، فالأفكار بحاجة إلى مسدسات وقنابل لكي تبقى، وأقل الأدلة هو ما نشهده عبر التاريخ من حروب مقدسة وجماعات تقتتل وتخلق

الإيديولوجيات كمبررات في القتل والنهب والسلب ، نفهم ذلك الواقع القائم، على أنه استنزاف لموارد الوجود بذرائع واهية تتعلق بتفسير الحق والقيمة الأخلاقية ، حروب لحماية قيم الله، أو الوطن ووراءها طالت يد المتصارعين الذين استعمروا وتوسعوا وبنوا ممالكاً وامبراطوريات مقابل تدمير ممالك أخرى قائمة واقتصادات، يقف الأدب هنا لنصرة الطرف المتصارع ضد نقيضه، وبارود التأثير البلاغي هنا هو جزء لا يتجزأ من معركة تفسير الحق والذود عن المعتقد المتصل بحفظ النقاء العرقي والإيديولوجي المرتبط بإرث الجماعة

الانتصار للإنسان وبقاءه مرتبط بنظرة الأديب ونسقه الإيديولوجي السياسي،الاختلاف في تفسير الحق ، وكذلك الذود القومي ضد الاستشراس القومي الآخر، التجييش الشعبوي ضد الهجمة القادمة من الجهة الأكثر نفوذاً وبطشاً وسطوة، أدب ينتصر لشعوب مهددة بالإبادة والفناء ، مقابل أدب سلطوي متغطرس يحمل في جعبته رائحة الجحيم والبلاء

الحزن والموت يحددان طريقة الحياة في زمن الحروب الداخلية، وبيئة غير آمنة ، لا أحد فيها بإمكانه أن يأمن حياته، في ظل حالة التأهب النفسية ، نجد جموع الناس مضطربة ، آخذة حالة الاستعداد لمكروه قد يحدث، تحول المدنيون إلى عساكر، وتغيرت مناخات المجتمع فلم تعد تأنس بالهدوء الذي يسبق العاصفة، فمراسيم الموت باتت شيئاً مألوفاً، المراسيم على صدى الأغاني الحزينة الثورية، غدا الموت احتفالاً ومظاهر الموت تحولت إلى طريقة للتحدي والمشاركة في الحرب والصراع، ذلك طقس متصل بالحرب والتماسك بوجه مغتصب الحق والمعتدي على الأرض، الوسائل الدفاعية مباحة، والشعوب تقرر هنا أن تظل وتدافع عن هويتها لتظل راسخة بوجه الانطماس والاندثار، فالموت هو ضريبة الحياة الكريمة، وتجسيد ذلك روائياً مهم، ويجعل الإنسان مؤمن

ضمنياً بطريقة الصمود تلك، لهذا يعد الأدب سلاحاً خلفياً للمقاتل المرابط على الجبهات، حيث تقوم الرواية بتعزيز المناخات المعنوية داخل المتلقي، وتضعه امام المسؤولية الاجتماعية المتطلبة دوام الثبات وعدم التخاذل ، فحين تتحقق الرفاهية ويتأصل الاستقرار لابد وأن يتخطى المرء كافة التحديات والمصاعب الملقاة في الطريق المحفوفة بالمخاطر والأعباء الجسيمة، فالحرية تحتاج لتدريب وتأهيل فكري وروحي حتى يضمن الفرد لذاته الروح الكفيلة بالعمل والنهوض ، فالقيم الطبيعية ليست مجرد أقاويل نظرية تسبح في بحور البيان، وإنما هي كيفية حياتية لإحقاقها وتجسيدها حياتياً ، كواقع لا يقبل المواربة والالتباس، والرواية الوطنية تقوم بتلخيص مجموع القيم المعرفية لتكون ترساً منيعاً بوجه التحلل والرهاب الذي تشنه النظم القمعية ضد الجماهير كي تعريها من الثقة والتحدي الذي يقف بوجه الآباء والأمهات، برؤيتهم لأبناءهم وفلذات أكبادهم وهم يتسابقون أفواجاً نحو الموت لنيل وسام الشهادة لأجل الوطن الحلم "كوردستان" وكذلك لانتصار قضية الديمقراطية كمعادل موضوعي وبديل عن العبودية والظلم الاجتماعي، فسعي الجماهير الهائجة هو لأجل التحرر الطبقي والمساواة، إزاء فئة تحوز على الثروة والسلطة مقابل فئات يفتك بها الجوع والجهل والفقر، إلى جانب الاعتقال والموت وتكميم الأفواه، فخسران أعضاء الجسد نتيجة الحرب كانت ثمناً باهظاً لقاء تأمين قيمة التضحية وإخراجها كقيمة لغوية ونقلها للواقع المعيش، وذلك بحد ذاته مثّل تفوقاً روحياً إلى جانب التفوق المادي، فسليم الأعمى المرتبط بمدينة كوباني يؤكد مراراً ان علاقته بالمدينة ليست علاقة بصرية حسية كونه أعمى وإنما هي علاقة روحية محضة، تربطه بأجزاء المكان وضجيج الناس في مدينته التي هي مسقط رأسه وروحه قصة ارتباط المعرفي بوجوده الوطني تجسدها الروايات والملاحم القديمة تاريخياً

وهي حديث عضوي في الفلسفات، لهذا فتسليط الضوء عليها يعد قوام العمل الإبداعي الروائي، ويعطي للمتلقي باعثاً على اليقظة الروحية المرتبطة بقضايا الأرض والدفاع عن التنوع والخصوصية لمجتمعات متعددة الأعراق والاتجاهات والمشارب، الحرب المدافعة عن الديمقراطية والمساواة حرب محقة ومهمة ولا تتم بمعزل عن التوثيق الأدبي والفني والموسيقي، فالموت بالنسبة للعاشق هو بعده عن موطنه وحبيبته، وهو أحد أشكال الموت الأكثر استنزافاً لروح الفرد، فلن يستطيع بالتأكيد صنع وطن في المنفى وإن كان الوجود واحد والمعركة واحدة، إلا أن للجغرافية خصوصية روحية لدى الفرد المبدع بصورة خاصة، فالمنفى هو اقتلاع المرء من منبته، اقتلاع بذرة تنمو في أرض خصبة ونقلها لمكان آخر غير موطنها ومناخها، فقد تنمو أو لا تنمو وقد يختلف طعمها إن أثمرت، وهذا يفسر وجود بعض الزراعات في بيئه دون أخرى، وكذلك ينطبق ذلك على المرهفين، إذ ليس بالضرورة أن ينتجوا خارج بيئاتهم وإن كانت القارة العجوز مثالاً "أوروبا " تتمتع ببيئة آمنة وداعمة لإبداع المعرفي الشرق أوسطي ، إلا أنها لن تستطيع تحقيق الراحة الروحية له والشعور بالارتياح الاجتماعي، كون الفرد يعيش في محيط غير محيطه، إذن في تلك الحرب الداخلية ، يولد تخوف طبيعي أن تفرض الهجرة على الكثيرين إلى جانب الموت في جبهات القتال، خسارة أكثر من إحدى عشر ألف شهيد في معارك أبناء غربي كوردستان ضد تنظيم الدولة الإسلامية الممولة تركياً وفطرياً، وهذا العدد يعتبر صادماً ناهيك عن النزوح باتجاه الشمال الغني، وكذلك اللجوء للدول المجاورة وخاصة اقليم كوردستان العراق، فاتورة تلك الحرب الداخلية ولثمان سنوات باهظة ومؤلمة عدا خراب البنية التحتية جراء ضرب المدن، آخرها كان احتلال مدينة عفرين وريفها، وكري سبي "تل أبيض، وسري كانيه "رأس العين" 10 من قبل الإحتلال التركي ومرتزقته، ممن أطلقوا

على أنفسهم المعارضة السورية بهيكليتها الأخوانية، لن تستطيع الرواية أن تتناول أبعاد المعضلة من كافة الجوانب عدا الجانب الإنساني المتصل بنوازع ووجدان المجتمع، ومآلات التدمير على النفسية والحياة الطبيعية للمجتمع، بيئة غير آمنة تكتظ بالجثث ورائحة الدماء ، والألغام والدور الخربة ، الأبنية التي باتت مقرات للقناصة والجدران المتداعية التي تحولت لدهاليز عبور المقاتلين من ضفة لأخرى، بيئة تعج بالأمراض وذلك مرده إلى حالة الاضطراب المتكررة بين حين وآخر والتأهب النفسي الدائم لنزوح على الأبواب، أو عملية عسكرية تركية وشيكة، مستقبل غامض ، وأزمة إنسانية جلية أمام أنظار العالم وكاميراته إن ضريبة التوسع والسيطرة على الموارد بفعل ضعف سيطرة المركز على الأرض، هي تهجير الألوف وتوطين آخرين، وتبديل السكان المحليين بآخرين وافدين، حتماً ذلك يعود بالفائدة على الجهة المصدرة لأزماتها الداخلية للخارج، وتدار تلك الحروب بالوكالة من قبل الدول المجاورة لسوريا وعبر سكانها المحليين المغرر بهم إلى جانب تدفق الأجانب من كل صقع، كما حدث إبان الحرب الأهلية الاسبانية سنة 1936- 1939 فكان هتلر 11 وقتها قد اتخذ من اسبانيا ساحة لتجريب أسلحته كما يحدث في سوريا حيث لم يتوقف سوق السلاح ولم تتوقف مصادر توريده سواء كانت من روسيا أم إيران أم تركيا أو أمريكا ، أو كما حدث في اليونان 1944-1949 حيث استخدمت كل من ألمانيا وبريطانيا وكلاءهما من شعب اليونان وحصدت الحرب الأهلية حينها آلاف الضحايا، حيث تفقد الأفكار والإيديولوجيات تأثيرها وأهميتها مالم تأتي الظروف الحالكة وتنزع فتيلها لتشعل بها الجماهير عبرها أرواحها وتبث هممها ، فالحديث عن الإيديولوجية مجدٍ حين يستهدفها أكثر الناس تضرراً من الحرب، فالرواية الوطنية تقف على مسالك وعرة تحاول ارتداء الوجوه والملامح والأفكار

وآثار الخراب والازدهار المأمول، لتنهض بكل أشكال الجمال والدمامة وتخرجها بلبوس فني ، هنا يمكن أن يتصافى الفن مع الإبداع الفكري، وتحلق طيور النقد خارج السرب المألوف، كي تقبض على الفكرة النيرة وتنسخ منها على شاكلتها لترتب بها تفاصيل الهم الإنساني وتحيل الهواجس إلى نحول، حيث تسعف الأفكار تلك اللغة القادرة على حملها بيسر، يخيل للمرء أن الشخوص يعيشون تلك العزلة النفسية على حدة، لكن في لغة السرد الأدبي نلحظ أن النماذج المعنية بسبرها كلها تغدو على طاولة التشخيص والمنهج النفسي هنا يكفل لنا فهم الطبيعة الفردية وميلها للشاعرية والانطواء إثر كل حادثة يموت عبرها آخرون ، يكون لون الإنسان إزاءها مخطوفاً، يعم الشحوب في أروقة النفس، وتخطو الكتابة النفسية خطواتها الأولى لمعرفة الكوامن وما تحويها من غصص وأسرار تخص كيفية التعامل مع الحدث في أول نشوبه، حيث لابد من وجود عقيدة فلسفية تقف بالضد من مشروع الإسلام السياسي بشقيه المذهبيين، فكانت تلك العقيدة مستوحاة من فكر منظومة كوردستانية لها باع في الصراع الوجودي لأجل كوردستان واسمها الأمة الديمقراطية، التي وضعها أوجلان، ظهرت على غرار النظرية الماركسية، مع عدم نفينا أن تكون تقليداً للاشتراكية إلا أن حرصها على الظهور بطريقة مغايرة ومعاصرة كفيلة أن تكون نداً للمشروع الأردوغاني مع تفاوت أكيد في القدرات التكنولوجية والمادية، بين القوتين، ولا شك أن اي قوة ايديولوجية سياسية تتفرع عنها قوى أدبية رديفة ومناهضة للفاشية المستحدثة ، حيث حرص حليم يوسف على الظهور كمناهض أدبياً كي يكون نسقه محاذياً ومتدفقاً باتجاه توثيق نضالات الأمة وإشادة وعي معنوي لها، لم يكن كفاح مكسيم غوركي 12 بمعزل عن كفاح روزا لوكسمبورغ 13، وفرانسوا فوريه 14، ولم تكن خطواتهم بأقل أهمية من أي حركة دينية أو

مذهبية، فكانت أحد دوافع بقاء الأمة الكوردستانية هو أن يعمل أبناءها، ساسة أم أدباء أم باحثين ليشاركوا جميعاً في حرب الإبقاء على الهوية الحضارية لشعوب ميزبوتاميا بمواجهة قوى الإنصهار والإسلام السياسي

للرواية دوافع مبطنة خلف العاطفية والنزعة الخيالية الطافية على السطح، إنها تجسد واقع الإنسان دون أن يسعى للتجرد من عواطفه ومشاعره ورغباته، وسعيه الدائم أن يكون بمعزل عن التصادم العنفي، فالذي يدفع الجهادي ليفجر نفسه ويقطع رؤوس أعداءه ويسبي نساءها هو تأثير العاطفة وغريزتي الغضب والجنس، واللتين تجعلانه يهرول كالثور خلف الرداء الأحمر، حيث تعطيل العقل وإغفاله يعني المسير دون عينين والانقياد للعنف دون إدراك ، بفداحة القتل، يفسر حاجة صناع الموت لمغفلين وبلهاء يكونون وقوداً لأجل مصالحها ومنافعها البعيدة،كيف يتعايش المرء مع الفقد؟، كيف يظل يقاسي ولا يهدأ، وهل باستطاعة الرواية إيصال صوت الألم من فوهة الكلمات للآخرين مهما تعددت الأساليب المؤثرة، وبرع المؤلف في رصد شحوب من فقدوا ضروريات وجوهم المتمثلة ببصره وزوجته ، البصر ، فقد الزوجة، الهرم، ثلاث أشياء تشجع الموت في الاقتراب من الإنسان، يعمد القلم في تفحص مكامن اللذة التي تحتوي الألم لما لها من مكانة في الذهن الإنساني المتذوق والمتتبع للعالم المنسوج في الرواية، كيف تقوم بصنع الأعمدة والجسور للواقع المعيش ، وذلك بصنع واقع فني بديل ، تأنس في سبره الأرواح وتستقيم عبره الأذواق ، فالمرأة بالنسبة للرجل عمود المنزل، وبفقد الزوجة، يترقب الرجل الهرم أفوله لا أكثر، ببحثه عن المرأة فإنه يقوم بإبعاد شبح الموت عن طريقه، فالعزلة تعني انتظار الفناء، سليم الأعمى يترقب أن يحل الدفء والأنس في حياته ، كي لا يحس بالهامشية ، ويدفعه هذا الإحساس لمزيد من الإنطواء والكآبة، دوماً يجد الكاتب لذة داخلية

في إقحام المكان في نفسية الشخص، هنا ص 40 : " بقينا أنا والجنرال لوحدنا، من كنت سأجد منه خيراً ذهب، ولن يعود مجدداً ، مبكر أخي ، كم هو مبكر، بكاءه أثقله، الجدران حوله ، حجارة الشوارع، الصفائح المجاورة لرؤوس الشباب في مقبرة المدينة، فروعي المتصدعة ، أوردتي الغائرة بحزن الأرض ،بكت جميعها معاً.

بهذه الطاقة المعبرة عن الحزن والتحسر على أشياء لم تتحقق، عم القلق أرجاء الأرض، بات الكلمات تلتف أكثر حول أكثر المشاهد درامية، الجنازات معروضة في الشوارع، والألم يغطي بقتامه كل الأروقة والأزقة، بعيداً عن سجالات الأفكار وترهات الإيديولوجية والسياسة العاقرة، هناك تصور لمشهد يعبر عن الأعماق المتعبة، والموت المحيط بالمكان، انحياز الأديب للإنسان، الحوادث ، مغازي التشبث بالحياة، وحالات الالتفاف الجماهيرية حول مصائبها، يعتبر ذلك مجدياً أكثر في رحاب السرد، والرواية لا تلقِ بالاً لأي شيء عدا الإنسان وإخراج مأساته للعالم من خلال النص المشتعل حزناً وصخباً، الإسهاب في الإحاطة بالمشهد المأساوي، يسلط الضوء على فداحة الفقد، وبروز الحرب في ميادين غربي كوردستان، الرقعة الجغرافية التي كانت هامشاً والتي عبر عنها الكاتب في رواياته كافة، إنها المنطقة الحدودية الجريحة في صميم تاريخها المخضب بالدم، جغرافيا تشتعل بالمواويل، الأغاني ، الجراحات وحكايات العشق المدوية، في تلك الجغرافيا المحتقنة لا حديث سوى حول الظلم ، واختفاء الأمن والطمأنينة، فلن تكون النفسية الفردية في ظل الاحتراب إلا مغتربة وغارقة بالخوف والاحتراس، فالذات القلقة لن يكون بوسعها التفكير خارج دوامة تأمين أبسط الاحتياجات المتعلقة بالبقاء في الحياة، مجتمع محكوم بالذوج عن نفسه وبالانتقام من مصادر الوجع والأذى ، عالم يعج بالخوف والمفاجآت المتعددة، كونه فاقد للمن

الحقيقي، ومحكوم بلصوص يحكمونه ، وبمرضى نفسيين يكونون ولاة على نعمه ومصيره في شتى رقع الشرق الأوسط، ديكتاتوريات تستخدم العسكر والمخابرات ضد شعوبها، لأجل تأمين بقاءها، ليستشري بذلك الفساد والاستبداد وتعم الفوضى في كل مكان من أنحاء البلاد في ظروف أشبه بكابوس ثقيل، يقف الحب منتصباً كرمح في منتصف القلب ، يتراءى لرودي أن الحب ضعف كبير يحيل قوة المرء إلى يباب، يجعله أسير حلقة مغلقة ، لا ينفك من الخروج عنها، فهو يتأمل بعمق حالات الألم واللوعة التي يقاسيها جراء ترقبه لبروين وتحرقه لرؤيتها والمضي معها، هكذا إلى جانب الكثير من الموت والجنازات القادمة من بطن الانفجارات الفجائية، ، يبعث الحب لوناً جديداً من العبودية والأسر المسمى بالتعلق، فحين يتحكم الحب بالمرء يستبد به، يضعفه لأن الأسر بماهيته ركون وركود في غلالة ثقيلة تجعل الخطوات نحو الحياة العملية مصحوبة بالصعوبات والعوائق، يقاسي الفرد حينذاك الحواجز والموانع الحائلة بينه وبين الصفاء والاستقرار بمعناه المفعم بالهدوء، وعدم قدرتهم الطبيعية على مزاولة أنشطتهم الاجتماعية وشعورهم أن الموت قد سطا على أرواحهم ، إذ تركتهم معلقين في الماضي والذكريات، في الحقيقة يعتبر التحدث عن الماضي ومحاولات استحضاره إنكاراً للحدث الأليم وتغاضياً عن الغد الموجع الذي يتخلله المزيد من الانتظار وضعف التأقلم وعدم المقدرة في تجاوز المراحل، إلا أن ذلك لا يعتبر شيئاً جديداً ، فلطالما يموت الكثيرون ويولد بعددهم مراراً، تلك دورة الحياة والفصول تسير على الكائنات بأسرها، إلا أن الموت الناتج عن الحرب هو الأكثر فداحة وضرراً على النفسية الاجتماعية، إنها تفتك بالداخل ، وتنتهك الأرواح ، وتلقيها على مسارح الصمت والشجن، فتمعن في إغراقها بويلات الماضي والأحداث الغابرة، آلام يصعب تجاوزها بيسر، تلقي بظلالها بثقل فينوء الكاهل عن حملها،

وتصبح الأعماق كهفاً مهجوراً سوى بأطياف الموتى ونداءاتهم البارزة في اللاوعي والراقدة في الداخل ، حيث تبرز المنامات والمناجاة، هكذا يمعن الكاتب في الدخول لهلوسات المنكوبين وهذياناتهم المصحوبة بذكر ضحاياهم ممن أصبحوا أطيافاً في الذاكرة وشهوداً لحقبة الموت العبثية

الفن المعبر عن تعددية السحنات، الكاشف لبواطن الشخصيات وطريقها عيشها غالباً ما يقترن بالجمال، حيث يخوض في طبيعة الأفراد ونزوعهم للخيرية، يسبر الأغوار عن مذهب الطبيعية وانغماس الناس في طقوس الدين والعادات التي تدفعهم إلى الانطواء وفهم العالم على نحو بسيط لا يحتاج للكثير من فك الطلاسم، مستوى التفكير لدى العائلة المنكوبة عادٍ ككل عائلة تعيش بناء على قناعات بيئية ودينية، وأخرى مرتبطة بالحياة القبلية، حيث يعتبر الدين بمثابة المظلة العامة الوادعة التي يلتف الناس حولها على نحو مسالم وغير عدواني، حيث تحل الأوهام والأساطير الدينية في عقول الناس الذين لم يتسنى لهم الوقت بحكم ظروفهم إلا الاعتكاف على القراءة والبحث وتكريس النفس للمعرفة، فمن الطبيعي أن ينجذبوا للدين على نحو فطري دون أن يتمكنوا من قراءة كتابه جيداً، وإنما يمارسون تقربهم من الله على نحو عفوي ودون منهجية، لا يميلون للعنف وليس لديهم مشكلة مع الآخرين، إذ بإمكانهم التأقلم سريعاً كونهم لا يتعاطفون مع قناعاتهم الطبيعية على أنها إيديولوجية سياسية وطريقة تسوغ لهم العنف مقارنة مع البيئات العنيفة، فالذين نمى لديهم الدين بطريقة عنفية ، حالت دون أن يتأقلموا مع غيرهم مما يفسر استطاعة داعش أن تحتل بيسر المناطق ذات المكون العربي بيسر كون هنالك حاضنة شعبية لهم وأساس استعداءي يجعلهم قادرين على تشرب العنف واحتواء فكر القاعدة الجهادي، لهذا فهنالك فارق بين التدين الكوردستاني والتدين العربي ، فأحدهما فطري غير مؤدلج والآخر عنفي

مؤدلج مقترن في السلوك والتمايز بين المحيطين، ليتشظى ذلك التدين إلى فئة تحارب التطرف وأخرى تنتجه وتحتضنه، إلا أن التطرف الديني لا حليف له ولا حاضنة حقيقية كونه يعتمد على ترويج القتل وتمجيده وإرغام الناس على رؤية مشهد قطع للرؤوس وبتر للأعضاء وصلب للبعض، كي يتم نشر الرعب والدماء وتلقين الجماهير على نحو فظ ومباشر للخوف باعتباره الوسيلة الأفضل لكبح جماح الناس وإلزامها بالخضوع إلى أمد، فالإرهاب يستمد فعاليته من منطق الإسلام السياسي التاريخي الذي ظهر في عصور مختلفة اتخذ منه الساسة السلطويون بالتحالف مع رجال الاقتصاد كوسيلة افتعال للأزمات وتطويع النصوص الدينية لمآربهم بغية زج العقل الفردي في المعتقل وإلزامه على الصمت إكراهاً بل والضغط على الفرد ليكون جزءاً مشاركاً في عملية الإرهاب، وهكذا يتم خلق الصراع ليستفيد منه الكبار ممن أرادوا ان تكون رقعة
. الشرق الأوسط ميداناً لتبديل الخرائط وكسر الرؤوس المرفوعة في الهواء الحرب الناشبة في سوريا حالت كل رقعة جغرافيا إلى ساحة تنافس وصراع نفوذ روسي أمريكي تركي إيراني، وبذلك لم يتعظ العالم المتمدن من تجارب الحروب السابقة التي أفضت إلى قتل ملايين البشر وتدمير بنى بلدانهم التحتية، وتشريد ملايين آخرين، ولعل الحروب بالوكالة تعد الأسوأ على الصعيد الإنساني، حيث لا تتسع الرواية لقول الكثير من دراماها للناس ولاسيما أن هؤلاء البشر يعايشون الرواية ويدركون كل ما سيأتي، إن عصر الرواية بدأ بقوة نتيجة ارتباطه ببروز الحروب والأزمات الكبيرة إلى جانب تعقد الإنسان واضطراب العلاقات الإنسانية نتيجة طغيان الحياة الاستهلاكية في تركيبة حياة الناس إجمالاً، وما يعكسه وقع الانفجار على القلب ، الإحساس وما ينجم عنه من حبور وهلع، ترصده اللغة لتفهمه في سياقها الواقعي، والمتصل بالنفسية وإشارات الاقتراب من النهاية،

الواقع الذي يتخلله الحب، إلى جانب الرغبة في التضحية، الاندفاع لمقارعة الرعب عبر تقنية الشجاعة والتشبث بالقيمة الأخلاقية في توطيد الصلة المتينة ما بين الحب والواجب، العشق للحبيبة والوطن، رائحة البارود وشواء الجسد البشري، يشيران لتغول الفناء وإحاطته بجوانب الحياة كافة، إيذاناً بمرحلة جديدة عنوانها المواجهة وإبراز الهوية الكوردستانية بوجه عوامل الانطماس وضياع الإنسان ، الكاتب حليم يوسف شديد الإحاطة بالحدث وبيانه استناداً لمعاناة الشخصية ومعايشتها لكل ما يجري، هذا في الواقع يسهم في شد الانتباه للحياة وسط مجتمع عميق الصلة ببقاءه، وقد وجد نفسه بمواجهة العدو المهدد لوجوده، الجميع يأمل التغيير، ويأمل قطع المسافات بسرعة ومواصلة الجري، وشجرة الجوز سلطت وجودها المؤنسن في الرواية لتشارك المكان والزمان ، حيث مواصلة سرد التفاصيل الساخنة الراصدة لغمار المواجهة المتحدثة عن الحقبة الزمنية لكفاح شعب غربي كوردستان بمكوناته الفسيفسائية الأخرى، ريما ، بروين إزاء الحدث تنفكان عن بعضيهما حينما يتعلق بالبحث عن مصائر المتعلقات بهن على حدة، أمام بروز حدث الإنفجار الدامي، شجرة الجوز لها معان تشير إلى التجذر والأصالة، تتفرج بعين مهتمة لسحنات الأشخاص، لما في ذلك من إثارة وجدانية ترصد طبيعة النفس الإنسانية وإدراكها العميق لقيمة الزمن و للتبدلات المتسارعة العاصفة بالداخل الإنساني، وهذا بدوره يؤثر في الإدراك العقلي للفرد والحياة وفقاً لما يبرزه الحدث ويعطيه للفرد المتأثر ، وهكذا فطبيعة الصراع وأدواته محكومة أيضاً بأن تتغير ، حين يتعلم المجتمع مدى حاجته للظهور بمتانة في مسرح الأحداث ، إن صناعة الواقع الأفضل عملية معقدة وصعبة وتحتاج لهذا التكاتف والتشارك المصيري في البروز الأقوى مقابل الغزو الوحشي الذي تتعرض له، ليتبين لنا تصارع قوتين إحداها ماضوية غارقة في

بطون التاريخ وهدفها إعادة التاريخ المتغطرس لدفة الحاضر وعبر الإجرام ، والأخرى متشبثة بقيمها المستقاة من التعايش السلمي وعشق الحياة، الجنرال حمو وقصة جنونه ، وتقاطع الآراء حوله ، فمنهم من رأى أن سبب جنونه هو أنه يشكو من العقم ولرغبته في أن يصبح أباً، ومنهم من رأى أن سبب ذلك هو تشبثه برمزية الضابط العسكري مستنداً إلى صلة والده بالرئيس السوري السابق حسني الزعيم، إلا أن شخصية الجنرال حمو متصلة بطبيعة الواقع وحالة الحرب الداخلية، فكل الشخوص هم ألوان مختلفة تقيم في صلب لوحة فنية للحياة، حيث يجري ذلك الحديث مع الاستعداد لجولات قادمة من الدم والبارود والحب

رائحة الانعتاق من العبودية تتعزز بقيم الانفتاح المجتمعي على بعضه بعضاً في حقبة الحرب الداخلية المتجلية في التفاف الأفراد حول مصائرهم والذود عنها، وتتجلى أولى نزعات البروز للأمام من خلال الخروج عن نظام الدولة القمعية، والخروج بمظهر المنتفض ، لكن ليس بنمط عفوي وفوضوي، بل بطريقة منظمة وقادرة على تحويل الحراك إلى حالة راقية معرفية، ونبذ نظرية الحاكم المطلق أو السلطة الشمولية العاقرة والتي لا تنجب إلا الفوضى والدمار ،وهكذا تنهض التجارب الإنسانية في ظل النزاع لتتحول المجموعات المؤمنة بالتغيير لنواة إصلاح ، ويتعزز ذلك من خلال نزع فتيل ، الخوف من قلب المجتمع، بزرع الثقة في ذات الفرد واعتباره محوراً صحيحاً يمكن الاعتماد عليه في التغيير والبناء .

ومما لاشك فيه فإن الانتفاضة تتخللها مراحل تتضمن كبوات وانجازات تصب في النهاية لصالح المجتمع، مهما دفع من فاتورة باهظة في سبيل الاعتياد على التصادم مع قوى الغطرسة والجمود، لا بد من تطوير مفهوم الثورية وإلا كانت وسيلة لاجترار سلطة أكثر رعباً، فمعظم الاشتراكيين الذين تبجحوا بمفهوم

الثورة ، تسلقوا على رغيف خبز الشعوب وسطوا على أحلامها في الدمقرطة والحريات، فأنتج أرباب الثورة ، مجلس قيادة الثورة (صدام حسين)15 و أتوا بعد انقلابات " حافظ الأسد" واضطهدوا المعرفيين وزجوا الجماهير في عزلة خانقة " القذافي" إن حصاد الاشتراكية الثورية في الشرق الأوسط بائس، لهذا نجد أن غربي كوردستان يمر بمخاضات جمة يسودها القلق من التهديد الخارجي، والانقسام الداخلي الكوردستاني بين معتد بتجديد التركة الاشتراكية ، وبين مرتهن لقرارات الاستخبارات التركية، ولا نجد ضوء يلوح في الأفق، لربما يسنح الضغط الدولي الأوروبي الأمريكي لميلاد تجربة غربي كوردستان على غرار جنوبها الفيدرالي الهزيل، حيث أن أعظم الثورات تتمثل في تحطيم صورة الإله الدموي في تنظيم الدولة الإسلامية، وكذلك عبر مناهضة معقلي الإسلام السياسي بشقيها السني والشيعي والمتمثل في دولتي تركيا وإيران، ذلك لا يقع على عاتق الكورد وحدهم وإن كانوا رأس حربة التحالف الدولي في الشرق الأوسط، وإنما أيضاً شعوب المنطقة التي عانت تاريخياً من العثمانية والصفوية وذاقت سياط العبودية مراراً على يدها، حيث ها هي اليوم تنشب مخالبها بتوحش في كل مكان، بكل أحلام المجتمع ورغبته في رؤية هيكلية أفضل لحياته ، تخلصه من واقع الاستبداد القوموي، يبدأ المضي بلا توقف، لأجل تحقيق هذا الهدف، إن تحول العالم لقرية صغيرة بفضل عبقرية المعرفيين التقنية، تساعد على نقل كل شيء أمام أعين العالم عبر الكاميرا ووكالات الإعلام المتعددة، ولا شك أن ذلك يحدث بالتزامن مع الثورات الذهنية والقفزات النوعية ، فلا مجال للقوالب الشمولية إلا ان تنكسر أمام انفتاح العالم على بعضه بعضاً، المعرفيون عولميون في روحهم ونظرتهم للحياة، وتنظيمهم يخلق عهداً جديداً من تبدل الخرائط والمفاهيم ، إنهم الآن على الطريق الصحيح في تدمير الوثن الحزبي والشمولي ووقف استشراش

الرأسمالية المطلقة، حيث يثير حليم يوسف من حوادث بسيطة جداً تساؤلات جمة، لا يفك مرموزها سوى من خبر الإيغال في أدغال التأويل والتفكيك، وهنا نحاول أن نفهم لغة الكاتب، عواصفه انتقاله المفعم بالانسيابية من حدث لآخر لتجسيد واقع كوردستاني يؤسس نفسه ويؤرخ لمرحلة جديدة عنوانها نشدان الديمقراطية الجوهرية، حتماً وراء حدير الكاتب عن مواجهة المجتمع للتطرف الديني الكثير من المراميز التي تقودنا لإيضاح قضايا عديدة عبر كشفها فعلى الرغم من أن العالم قرية صغيرة إلا أنه ثمة من يغرد خارج سربها، فيندفع بخياله التاريخي لرؤية امبراطوريات دينية وأخرى قومية، غير آبه بالواقع الذي ينزع للأمان والحياة الأفضل، فيجيش العواطف العنصرية إعلامياً ويحيي خطاب الكراهية، أما شيوخ الفتاوي فقد أسرفوا في الإمعان في غسل أدمغة القاصرين والفئات المعانية للفقر والبطالة، وأخذت تمعن في زجهم في معارك دموية وحشية، إلى جانب انتشار بيع السلاح من قبل الدول الكبرى كروسيا وأمريكا وألمانيا، غير آبهة بالكوكب الذي يعيش عليه ملايين البشر، إنها نتائج انعدام المسؤولية الأخلاقية لهذه الدول في تسويق الدمار والاستفادة من أزمات الشعوب بغية إشباع جشعها الربحي.

بنزق ذكوري يعبّر رودي عن هواجسه بشأن حبيبته ، وخوفه الدائم من أن تحيد بروين عن عشقها لك في يوم من الأيام، فيفكر في تركها وإدارة ظهره لها، على الرغم من حالة الدفء التي يحس بها إزاء بروين، حيث سرق منها قبلة تبدو وكأنها أتت عنوة، حيث لم تبدي بروين رغبة أو مانعاً إزاءها، لهذا نجد الحب اختباراً للداخل ومسرحاً لتناقضات النفس الإنسانية المكنظة بالرغبات والغرائز، ومشاعر الإحباط أو الثورة ضد القتام والرتابة في الحياة المعيشة، يرصد الكاتب بعين مرهفة حالة الحب تلك ، ويدخل في حيثيات العلاقة على نحو عفوي

وبأسلوب سلس واضح، يحيط في جوانب المكان مستفيداً من ذلك المونولوج الدرامي الذي اختاره لكل شخصية ، لتتحدث على حدة بما يدور في أروقة المكان من حب وحروب وويلات وأفراد منسجمين ومتماهين مع البيئة والحياة العامة، رغم طبيعة الحياة المتأهبة أبداً لتغييرات متسارعة ، بيد أن ارتباط الرجل بالمرأة ظل وسيلة مضادة للظروف والمعرقلات البيئية، حيث يتعرض الرجل لاختبار فكري في مدى تفكيره بماهية الحب وسد عقدة النقص، وسيطرة العوائد والتقاليد المربكة لصيرورة الحياة، الخادشة لدينامية العلاقة بسبب التعلق والأدمان، ذلك الاعتياد يولد التشنجات النفسية ويزرع البلبلة في حال تعذر الوصال على نحو يأمله العاشق في أحلامه في التملك ، تفصحان عن حيرة عميقة تنتاب رودي، تعصف الهواجس في داخله، ويمتطي ذهنه ألف عفريت، يعيش في دوامة من تخبط، تقوده إلى متاهة تحتوي التناقضات التي تنحاز للغوامض الدفينة والعوائد الغريزية، تجسد النفس الغامضة التائهة على مسرح الخيارات وصراع الرغبات المحتدم، إنه يحب ويتملك، يغضب ويرغب ، تحيط به الغرائز الحسية وأمواج الغضب والغيرة، إلى جانب القلق والضياع ونوبات البكاء، هنا يذهب الكاتب مذهب تفسير الحب ، نشأته والسعي إلى فهمه، فهم القبلة وارتباك بروين، حيادية المشاعر في المشهد الحميمي، تصارع الأفكار والهواجس داخل عقل المحب، وكلما يقع الفرد المدرك في الحب، يتساءل ما هو الحب، كيف يغدو مبضعاً ، ضماداً للنزيف، سلاحاً في الحرب، حلاً للتخلص من العزلة والوحدة والاغتراب، إسلوب حياة أو فناً يسحر الألباب ويثير القلوب ويحيط بتفاصيل النفس وأحلامها وقدرتها على الاعتكاف في مغارة الصفاء والتأمل المركز للعالم ، فسعي الفرد للجمال والحب يحول دن تخبطه في قاع الهواجس والانفعالات، يمثل

نزوعاً حقيقياً لمحاكاة الوجود والتماهي به حد الغرق عشقاً، أما المرأة هنا فوقود طبيعية بمواجهة الموت واندفاع للعالم يتسم بنوعيته وتمايزه وانضباطه بالقيم المشتركة للمجتمع المنظم.

يقوم الإنسان بالتشبث بالمرأة الحبيبة، لأنها الرحم الثاني القادر على إيلاءه وإخراجه من السبات للحياة، لهذا نجد أن عملية البحث عن السعادة تمر بمخاضات عديدة، يسودها القلق من الموت أو زوال الشعور بالسعادة والغبطة، إن خوف المرء من الفقد أزلي ويضعه بمواجهة ذاتية مع نفسه، ترغمه في أحايين كثيرة على التصرف خارج ما يعتقده صالحاً، لهذا نجد العاشق أكثر هياجاً ورغبة في محاكمة الأشياء والتدقيق في كل شارة وواردة فيها، فيتم إطلاق العنان للخيال بأن يسوس الروح ويقوض مضجع الإدراك والواقعية ، حيث تختلط الأحاسيس الإدراكات، بعضها ببعض، ليكون المرء ضمن حلقة انشداه راح حليم يوسف يسبر أغوارها بحكمة الراوي في سرده للمعضلة النفسية، أخذ الحب كوسيلة جدل وفهم لما يجري داخل الإنسان، وما يعتمله من تناقضات فكرية تراوده وتكاد تنسج أحابيل هاجسية في ذهنه، هذه التناقضات بطبيعتها تسير للإنسان إلى عبودية الارتهان لأوهامه دون النزوع الإدراكي لفكره وسموه عبر الجمال والفكر والحب الأقصى، فالمزاج النفسي للعاشق يتسم بالتقلب المستمر تبعاً لحالة الشك التي تسترعيه، وسرعان ما يهدأ بعودته للثقة المحفزة وحسن البصيرة والاجتهاد على التحكم بالهواجس والأوهام، وكذلك التأمل للذات على نحو متوازن وصحيح، بهذا الإيمان بالنفس والثقة بها أمكن للحب أن ينتصر وينهض بالإنسان لينقله من طور التفسخ والأذى النفسي إلى طور الإرتقاء والنماء الفكري، فالعبودية ليست قدراً وإنما تحدٍ يقف بوجه الإنسان المعرفي ، الواهب المنتمي للوجود وبعناده الفكري وتجاوزه للحواجز فإنه يبصر وجوده نوعياً

مختلفاً وفاعلاً ضمن المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه، هذا الإيمان بالمعرفة والحب يرفع النفس ويجعلها في منأى عن الضياع والاغتراب، إن الانتصار على الوهم والعبودية يمثل مرحلة تشافي قصوى، تمكن الموجود الفاعل من التحرك بيسر ومواجهة الظروف الصعبة، تجعله يتجاوز ويرتقي دون أن يحيد عن الأخلاق المقترنة بالمعرفة ، كون القيم تشغل مساحة عميقة ورحبة داخل النفس الإنسانية وتجعلها قادرة على إتمام مهامها في التنوير والتنمية العميقة للآخرين الساعين للانعتاق من أسر الذات للذات، ومما لاشك فيه فإن النظام السياسي الاستبدادي هو من يجعل النفاق والبؤس والكراهية ألواناً تشوه روح المجتمع التائق للحياة الجيدة، والرفاهية المنشودة، وعليه فإن الانتصار الحق كامن في التماهي مع الجماليات، لتصبح جزء من كينونة الفرد الفاعل والمؤثر،

مما تنفتح الآفاق شيئاً فشيئاً على عملية الخلق والإبداع وفهم الحياة يجسد حليم يوسف واقعاً بائساً من صنع توالي النظم السياسية الشمولية المعظمة للقائد المستبد والملهم، ومجتمعاً يعيش تأليه رموزه بتصوف، ويظهر مظاهر مثيرة للشفقة وبعضها يبعث على الفخر بإرادة الحياة الموجودة في المجتمع، لكنه ينتصر للجانب الصامد فيه ويظهر جوانب الحياة ومآسيها جراء الموت المحيط بالأفراد، هذا التنقل بين المشاهد يحفز الأفكار وينعشها، ويدع المتلقي الباحث يحلق ويكتشف فاحصاً نمط البؤس وتركيبته الخانقة ، ولعل ذلك مدعاة تفكر وتدبر في أزمات الأفراد ومآزقهم، حيث يجسد الكاتب ويلات الحروب التي يعانيها فقط المدنيون دون سواهم نتيجة فداحة أخطاء نظمهم المركزية، في بلاد منغمسة في عبادة الأوثان الاشتراكية و التي رأت في حقوق الإنسان تآمراً وفي اقتصاد السوق خطأ فادحاً وفي الليبرالية 16 انحلالاً وجوراً، شأنهم شأن الإسلام السياسي الذي بات يستعدي كل ظاهرة ديمقراطية ويعتبرها جسماً

غريباً مكتنزاً بالخطايا.

يقف الكاتب وسطاً بين تفاؤل ما مشرع في الذهن وعبث يخيم على مشهد الموت، والجنازات ، يليه الوقوف على عاطفة رودي المتقلبة تجاه بروين، وسط أنباء عن تقدم أصحاب الرايات السود واحتلالهم للقرى الواحدة تلو الأخرى، هذا التسارع في الأحداث تلاه تسارع في نبضات القلب، والدخول في رهبة هذا المشهد، تدفق الآلاف من الناس الهاربين من قاطعي الرؤوس إلى الحدود حيث بات الناس واقفين مذعورين بين تقدم التنظيم والجنود الأتراك المرابطين على الحدود، حيث يعبر الأدب هنا عن هذا الخوف والقلق ، والشعور بدنو الموت من الأرواح الخائفة، وعن طبيعة التصرفات والأفعال المصاحبة لحالة الرهبة تلك، وحديث القسمات والملامح عن الحرب لما لها من وقع على النفسية،وفي ظل أخلاق القطيع ، نلحظ تشابهاً في الأمزجة وكذلك ندرة في وجود خاصيات جديدة للمنطق الاجتماعي بسبب تشابه العقول ، هذه النمطية العدوة للإبداع والاجتهاد أفسدت روح المجتمع، وعطلت إحساس العامة من الناس بضرورة التحلق حول الأبناء والاهتمام بهم بدلاً من أن يتفرد كل فرد بخياره الخاص ، دون الرجوع لأحد، وبدأ المضي نحو التحرر أو التلذذ بكونه شعار يروق للمرأة المضطهدة في الشرق الأوسط ، من فوهة السلاح وتحديداً قتال التنظيم المتطرف، للتعبير عن الكينونة المستلبة، واحتجاجاً على احتكار الرجل للحرب ، شكّل ذلك الأمر تغيراً في منعطف الحقبة المعيشة، ودعت الحاجة حينها لإعادة التفكير بالحياة والأدوار ، وبيان دور المرأة الحقيقي في بتر الذكورية الكلاسيكية واستئصالها كورم قاتل، فبدأت حرب التحرر النفسية ، من خلال مواجهة التطرف وخطره ، نبأ شيرين استرعى ذهن جيهان، حيث رن الهاتف لتخبرها ص 58 : "اسمعيني جيهان نحن في القتال، قولي لأمي، من سيخرج من كوباني ليخرج، أما أنتم فلا

تخرجوا " هكذا بنبرات انفعالية شجاعة تتحدث بتحدٍ، تأمر وتعي مؤكدة ضرورة التشبث بالأرض كجزء من الصراع ضد مغتصبي الأرض والقيم الإنسانية، فالزمن في تغير مستمر، والحرب الدائرة تصبح ضروس وحامية الوطيس، حيث يتسابق فدائيو الأرض لنيل الخلود مقابل صيحات الجهاديين الذاهبين للموت للقاء بالحوريات، حيث هم عبارة عن مخلوقات بهائمية مدجنة مهووسة بالعنف والجنس، وفجأة إذ باتصال آخر من شيرين ص 58 " أمي متعبة وشيئاً فشيئاً سينشب القتال في كوباني، أمي والأطفال والذين لا يستطيعون القتال ليخرجوا، حسناً جيهان ، القتال يشتد يوماً بعد يوم، انتبهوا لأنفسكم، بلغي سلامي لأمي، أقبّل أياديكم " هنا عويل الأم المفجوعة ينثر تساءلاته أمام إله رسم قدراً خاصاً بمجتمع يعاني الإبادة منذ قدم التاريخ على أرضه التاريخية، ذلك الصراع ما بين التجهيل الممنهج والدفاع الحماسي عن قيم الجمال والحق والخير يثبت مصداقيته وجدوى تلازم الحضارةمع حروب الهيمنة على المقدرات ، فمعركة كوباني المدمرة تستعر على مرأى العالم، وأمواج من البشر المتلاطمة أخذت تزحف باتجاه الحدود هرباً من فلول التنظيم الإرهابي، وقلوب مليئة بالغصص والفجائع الكبيرة تمضي خارج هذا الدمار مستغيثة، إنه العالم المبني على العبث والتقاتل والنزاع، وكثيراً ما نلحظ هذه الرغبة المستميتة في الهيمنة ولقاءها نجذ هذا النزوع للعنف محفوفاً بدوافع لا أسس إنسانية لها، تكاد تكون ربحية وثمنها باهظ يقدم من قرابيه هؤلاء الجنود المدفوعين لتنفيذ مآرب حكامهم وأفكارهم التي تعتمد على القوة والبطش وزرع الدمار لتلبية شهوة التحكم بكل شيء يتصل بالحياة، هذا الصراع أربك العقل الإنساني وقادر الإنسانية إلى طرق مسدودة ومحفوفة بالمهالك والمخاطر الجمة، فغياب الحضارة والتنافس المعرفي كان بسبب هذا اللهث الربحي والتفسخ القيمي، الذي جعل نداء العقل الإنساني يغرب

لصالح هذا التوحش الرأسمالي الفظ ، والذي أربك معالم الحياة المجتمعية وجعلها مجتمعات مهددة أبداً بالتفكك والتفتت، وتحولها إلى وقود ارتزاقية خدمة لحسابات الدول الإقليمية ، هكذا يغدو ميدان الرواية مجسداً للأحداث الدرامية ، لتتأسس قاعدة النقد الأدبي بنهجه التأويلي، على فك المراميز الحية الغائبة في متاهة الحدث، المسلط عليه الضوء، مسرح يكتظ بالشجون ، يعبر عن حقبة الصراع لإثبات الوجود في ظل هذا التنازع المقيت ما بين السلطتين القائمة والمعارضة وبينهما حراك آخر يتطلع لمسار آخر

. للعيش في ظل هذه التناقضات المعقدة على الصعيدين الإقليمي والعالمي وقد تمكن العدو من قتلنا بواسطة الهرم المدير و وانتهاء بالقاعدة المتفسخة أصلاً بينما القرابين لا تعلم بأي ذنب تنحر على مذبح المقامرة السياسية، وعلى الجانب الآخر لازال مريدنا الحزبي يشتم ويهاجم المختلف معه حتى ظن الآخرون أن سيفترسه بينما بعضهم لازال يعول على حلم الوحدة وتحرير الأرض، وهنا نعني أن هذا المسرح البشري الكوردستاني يعج بفوضى متباينة رغم وجود تيار البناء والفداء الذي يحاول المضي بالمجتمع لتحقيق تطلعاته في العيش الأفضل، على الرغم من جوقة المنهزمين المنتصرين بالكلام والشاحذين للهمم بالشعارات، ، حيث يؤمن الكاتب هنا بوحدة رسالة الفن مع السلاح المدافع عن الأرض ، كون أن أي حركة تعادي معرفييها فإنها تحكم على نفسها بالموت دون احتضار ، لهذا فإن خيار الأدب هو الوقوف مع الوجدان الجمعي للإنسان المعرفي المدرك لطبيعة وضراوة الصراع، حيث يسلك الكاتب إيماناً بحقيقة الوجود الكوردستاني، حيث الإيمان بالصهر أخطر من الإنصهار فالأول ميت والأخير قد يعود للحاضنة، لوضع نهاية لمسلسل فرق تسد الدموي، والذي طال تصويره وإخراجه في ربوع كوردستان، حيث يتباين الخطاب الأدبي في الرواية عن أي

خطاب كراهية رائج في الوسط الكوردستاني المتسم بكونه خطاب لا مسؤول وجبان ، وهذا ما جعل التركي قادراً على قضم مدننا بالتدريج والعمل على مشروع الإسلام السياسي المدمر لكل حالة دمقرطة جوهرية ، لهذا نجد الثورات في عالمنا مفرخة للطغاة والفاسدين، إن خيار العدميين أن يموتوا كالأشجار اليابسة غير المثمرة، وأن يقفوا حجر عثرة بوجه التغيير والأفكار الجديدة المناهضة لأفكارهم الرثة وخياراتهم الكلاسيكية ، لهذا فإن مسيرة الفكر النقدي تتحالف مع العمل الإبداعي في خندق واحد ضد قوى الجمود والعنف لهذا نجد حليم يوسف أقرب لثورية الفكر الجديد منها إلى وصف الجمود والحزن الكثيف، يؤمن بالزمن المتجدد ، وانبعاثة الصحوة المعرفية وقدرة الإبداع أن يتخطى كل تحجر أو جمود.

معركة كوباني في عيون رواية الطيران بأجنحة متكسرة

تعاد رسم الخرائط في المنطقة، وحينها لابد من أن تتغير التركيبة الديمغرافية ، وتصبح الحياة مضطربة، والمجتمع محتم عليه أن يجابه وينظم نفسه احتراساً من أمواج التغيير الديمغرافي ووجود عداء اقليمي بائن لشعب كوردستان يفرض عليه التوحد، لكن ليس بوجود زعامات روحية تضع برامجها الإيديولوجية الحزبية على حساب الأمن الكوردستاني الاستراتيجي، إلا أن المعركة ضد التنظيم المتطرف ، رجحت خيار المواجهة الميدانية بدلاً من الإنشغال بترتيب البيت الداخلي، حيث يصور حليم يوسف التناقضات والحيرة المتشعبة في صفوف الناس، إزاء توغل الجماعات الجهادية المندفعة داخل المدينة، والتي راحت تسن سيوفها لقطع الرؤوس دون رحمة، في كل زاوية وشارع وحي وقرية، راحت تدمر

كل ما تصادفه، وفي تلك الظروف يقوم الناس بمختلف شرائحهم وأعمارهم بتجنيد أنفسهم لأجل مجابهة هذه الحرب الشرسة، حيث استعد الآلاف لمواجهة هذه الهجمة الغادرة ، والبعض التزم بالتشبث بتراب الأرض على أن يخرج منها، حمل السلاح والانضمام للقوات بات واجباً مقدساً، والتمسك بغريزة البقاء والملكية تحتم على الناس أن تتشارك في معركة الدفاع، ففي هذه الحالة لا شيء يلوح في الأفق سوى ما يتعلق بصون الحياة وضمان البقاء والملكية، يلتقي الطرفان ليحملان في داخلهما ايديولوجية ، أحدها توسعية تاريخية ترى في الدين وإعادة إحياءه سياسياً واجباً حتمياً يستدعي تدمير كل مخالف لها، والأخرى تحارب لأجل الأرض والوجودية المهددة تاريخياً بالانقراض والاندثار، ويتعلق ذلك بوجود الكورد كمكون قديم في الشرق الأوسط، فإحياء العسكرة الإسلامية يعني بروزاً للإسلام الجهادي كونه وسيلة أفضل لخلط الأوراق والتحكم بالموارد المائية والنفطية، فالعثمانية الأردوغانية تم تثبيتها بعد أن برز تنظيم الدولة الإسلامية وتوسع وانتشر بسرعة وكذلك أصبحت المعارضة السورية طعماً سهلاً للأسلمة الأردوغانية المفروضة عليها إلى جانب استفادة إيران منها ودعمها لشيطنة المكون السني واستهدافه طائفياً وبصورة مباشرة من خلال داعش الذي لم يستهدف الشيعة أو عناصر النظام السوري وإنما استهدف العرب السنة وحدهم، وكذلك تم توجيهه بدهاء نحو المناطق الكوردية في كل من جنوب كوردستان العراق ، وغربي كوردستان سوريا، وكذلك استهداف الكورد الإيزيديين في شنكال، وهكذا ظهر داعش كعامل أساسي لرسم معالم جديدة للشرق الأوسط الجديد، بصعود كوردستاني غير مسبوق كرادع أساسي وحليف قوي للتحالف الدولي في عملياته ضد داعش، بعد معركة تحرير كوباني على وجه التحديد، لهذا سلط الكاتب حليم يوسف النظر على البسالة الجماهيرية ، عمد إلى تصوير البطولات

الفردية باعتبارها المعادل الأساسي للتفوق الروحي لشعب غربي كوردستان ترسم هذه الخرائط بالدماء دون أن يكون في حساب اللاعبين الكبار خراب المدن وخسارة الشريحة الشابة، فيكون إنهاء حرب داعش مقابل 11 ألف شهيد ، ويكون ثمن عفرين مقابل الغوطة، ويكون سري كانيه وكري سبي مقابل إدلب، وهكذا تقسم مناطق النفوذ ويكون على اللاعبين الصغار تنفيذ السيناريو دون نقاش، وتلعب الدول الكبيرة لعبتها بواسطة القوى المحلية لتخوض حروباً بالوكالة، عرضها الحصول على المكاسب والامتيازات في دولة مصطنعة كسوريا التي باتت ميداناً راهناً لتصفية الحسابات، ذلك التنافس الدولي لا يتم إلا في دول منهكة مفتتة، وهذا المد التركي الإيراني ، يكشف عن تنافس متصاعد فيما بينهما، توجهها إليه كل من روسيا وأمريكا، وهكذا تغدو هذه الحروب رائجة في سوريا ، العراق ، اليمن، ليبيا، والصومال، ولبنان، ويتم تقاسم النفوذ وعبرها تنمو ظاهرة النزوح والهرب من الجحيم الدائر، فالأزمات السلطوية باتت جلية، والانهيار الاقتصادي يطل كشبح مخيف بات النتيجة المعلنة والتي تعد وسيلة استكمال تنفيذ المآرب الدولية الذي هو نهاية المطاف بعد تفتيت المجتمع وإحداث الشروخ العميقة فبعد نموذج الدولة المخابراتية، حدث التفتيت والانهيار وإذكاء الفوضى لضمان الهيمنة والقدرة الدائمة على التحكم، ويكون على المجتمع المسحوق فيما إن أراد البقاء أن يقف بمواجهة الفساد والاستبداد المافيوي الذي ستمارسه السلطات الوليدة عن تفسخ الدولة وانهيارها غير المعلن، نجد القرابين البشرية تتوالى والنزوح يستمر، والعجز الاقصتادي يطل كشبح مخيف، ويصبح اللهث خلف الصراع شيئاً ليس بالإمكان إيقافه، فالدول الاقتصادية لا يمكنها إخماد جشعها ورغبتها في توسيع نفوذها، لهذا فالذي يشعل النار لن يكون بمقدوره إطفاءها في أي وقت يريد، لهذا أصبح لزاماً على

الدول الراعية للفوضى والأزمات في أن تمضي في طريقها ولعب أدوراها دون تراجع، وهكذا يتشظى دور الأدب ليكون حليفاً للإنسان ووجدانه خارج شراسة هذا الصراع ومرتبطاً برغبة الإنسان في الحياة المثلى المتحققة في الإرتباط بالجمال والفن والقيم الأخلاقية إذ بدونها تصبح الحياة عبثية ضارية تصارع لأجل لا شيء وإنما لتنشر الخراب والويلات دون حل يلوح في الأفق، فتغدو الحروب المتلخصة بقصة البقاء على الأرض مسرحاً للأدب ليوثق أخبار وحقب الأمم في النهوض والصراع لأجل بقاءها متسلحة بإيمانها بأصالتها وثقافتها وقدرتها على الاستيطان في مواقعها، هذا ما يدفعها للذود عن نفسها ودفع فواتير الحرب ، ووعي الكوردستاني بقضيته أصبح أمتن من أي وقت مضى ، ولا تنهض الأمم مالم تتجاوز تلك التحديات المفروضة على وجودها، ولكي تبقى ويكتب لها الانبعاث فإنه ينبغي لها أن تستشرس في الدفاع

. عن مقدساتها وتحتل الجانب الأبلغ في رحلة الصراع نحو الأفضل عسكرياً وفكرياً وقومياً .

إن التأمل في جوهر الصراع النفسي الذي يعتمل النفس الإنسانية يجعلنا نشهد صراع المتناقضات المتعلقة بالمزاج والعاطفة ، ناهيك عن الأفكار المحتدمة في العقل، كل ذلك يسهم تحديداً في رسم مسار الفرد وتحولاته السلوكية بوجود العائق في كل مكان، ففهم السلوك يندرج في إطار العوائد المستقاة عن

. البيئة وتعامل الفرد مع المحيط، استناداً لجملة المؤثرات الاجتماعية

إن محاربة الإرهاب يعتبر عملاً صعباً يمتاز بجسامته وخطورته واستنزافه للموارد والبنى الفوقية والتحتية للمجتمع ، وبالنظر للمجتمع الكوردستاني ، نجده منهكاً بفعل عوامل الإبادة الثقافية والجسدية الممارسة عليه من قبل الحكومات القمعية القومية، ولديه وظيفة أكبر من إمكاناته ، تتمثل في مواجهة تنظيم الدولة

الإسلامية ، ومدى قدرة الأخيرة في مخاطبة العقول بخطاب تاريخي إسلامي يجعل الجماهير المحقونة بإبر التدين التقليدي تلبي هذا النداء مستجمعة كل الشرور والجنون الكامن في نفوسها، فكما قال أرماندو تورنو 17 في كتابه أخلاقية العنف ص 19 : " أن الإنسان هو الحيوان الوحيد باستثناء الفئران وبعض الحشرات الاجتماعية، الذي يقتل بني جنسه بانتظام، ووفقاً لآراء بعض الانثربولوجيين ،" لقد أصبح الإنسان سيد كل الحيوانات لأنه قاتل قبل كل شيء هنا نجد جانباً آخراً من تعريف ليس بجديد يتسم به الإنسان، بكونه مجبول على الاستياء والغيرة، حيث يحاول الظهور التسيد بين المحيط الاجتماعي بأي شكل، لهذا يتخذ العنف والإيديولوجية وسيلتين للهيمنة وإنشاء النظام الخاص به، بل إنه يتصف باللاتسامح حينما يصل لمبتغاه فيحارب كل الأصوات المختلفة عن رؤاه وتوجهاته باعتبارها نشازاً حسب اعتقاده ووجهته، لهذا نجد أن سمات الجهاديين حسب حليم يوسف أنهم متطبعون تماماً بخصال الوحوش الذين يسارعون لقتل الناس كونهم مرتدين عن الدين حسب وصفهم، ويجب نحرهم وجز أعناقهم وصلبهم، نلحظ هنا مدى الاستسلام لغريزة العنف والتلذذ بالألم، والاستمتاع به، ثم تخدير العقل بعد غسله بشيئين وهما الجنس والعنف ، لما ، ، لهما من قوة وجاذبية تستطيع توجيه الإجرام الفردي المصحوب بإيديولوجية دينية اسلامية تعتمد على القتل والقتال، إن شراهة المرء للعنف تقوى بوجود المحفز الديني المحرض للعنف بوجوب نص مقدس واضح لا يحتمل اللبس، ، فهي توقظ لدى المتطرف شهوة تدمير المخالفين، هذا التطرف يتم توظيفه لتهديد دول وشل اقتصاداتها واستنزافها وكذلك تعمل على تحويل الكراهية لمذهب حياة ، الأمر الذي يضمن وفرة معامل السلاح والاستفادة من بيعه ، حيث تقوم أمريكا، روسيا ، الصين وألمانيا وفرنسا بتصدير السلاح

وتصنيعه عالمياً ، الأمر الذي يشير إلى أنه لابد من وجود بؤر عنف مستدامة كي تتمكن تلك الدول من الاستفادة مادياً، حيث لا تأبه لا بالقيم ولا بالأخلاق فالمنفعة المادية أولاً، ولا معنى للإنسانية إلا في الأدبيات التي آمن بها المعرفيون عبر توالي العصور ، حيث ذلك السد المنيع الفاصل بين قيم الإبداع الأخلاقية وذلك الجشع السلطوي المنحاز للعنف والوحشية المتجددة ،فكلما أراد المعرفي المفكر أو الفنان أو الصانع تشييد الجسور بين الثقافات والأمام ، قامت السلطات عكس ذلك بهدمها وتقويض الروح الحضارية القائمة في الوجود ، ولعل أول أثر للحضارة الإبداعية يتمثل بهندسة الوجود الماثل أمام نظرنا.

جدلية الحب والحرب

شكل مجيء البيشمركة لمساندة قوات الحماية الشعبية مرموزاً لقيمة الاتحاد الكوردستاني والذي تم أثناء التصدي لتنظيم الدولة الإسلامية إبان محاولته لانتزاع كوباني وفرض سيطرتها عليه، وقد عبّر الكاتب عن ذلك على نحو يبين ذلك التوق الشعبي لهذا التلاحم المصيري في كسر شوكة التنظيم وإبعاد المدينة عن خطر سقوطها، وعن تداعيات قرب سقوطها كما تداولت ذلك الأقنية الإعلامية التركية، ، وعن رغبة الأخيرة في هزيمة الكورد وانهيار مدينتهم، عبّر الكاتب عن وحشية التنظيم الإسلامي وقتاله اللاأخلاقي فعلى الرغم من محدودية قوات البيشمركة ودخولهم بعدد رمزي إلا أن ذلك أعطى للقوات الصامدة عزماً وروحاً معنوية، لهذا فلا يبدد سوى الحب فظاعة الحرب ، بل لعل الحب يكسر رهبة الموت، ولايدع العاشق إلا حالماً ومتعلقاً بأمانيه، هذا ما يبديه رودي وهو يسرد المحيط الخارجي والنفسي لشخصيته، هنا اختار الكاتب شخوصاً يعدون

أبطالاً للرواية على التساوي، يتحدثون عما يعتريهم ويرصدون كل ما جرى في تلك الرقعة الساخنة من الوطن، بأسلوب لا يبعث على الرتابة بل على حس الاستكشاف، وتعقب الحدث، ففهم النفسية الاجتماعية وكيفية فهمها لإدارة الأزمات الإنسانية واحتواءها للفظائع والكوارث الناجمة عن الحروب بالوكالة، تلك الحرب تقف كتحدٍ وعائق أمام ممارسة الحياة الاعتيادية، وتجعل المرء يوغل أكثر في التمعن بالموت ، إذ في فقد المقربين تنبثق حكمة ما، تتعلق بفهم قيمة الحياة والعيش فيها وكذلك قيمة التفاهم مع البشر لما يعتري الوجود من صدف ومفاجآت تغير المصائر والعقول وتفتح الأذهان، إذ أن الحدث يصنع الرأي مع تقادم الزمن، هذا ما يوحي إليه الحديث الداخلي المنبعث من الرواية، إذ هي محاولة من الكاتب لفهم صلات الإنسان النفسية بالآخر في زمن الحروب، إذ كلما تكالبت العوائق والصعوبات نزع الإنسان إلى التفكر والتدبر في شؤونه وكذلك يبدأ الخوف ولوجه لداخله وبمعزل عن الخوف هنا ذلك الحب المؤكد للرهبة والمقاومة ودفع الخطر وبذل الجهد لفهم طريقة العيش، أحاديث المقاتلات والمقاتلين تكشف لنا عن سذاجة الفكر الجاهدي وعته الدماغ الباعث على الصدمة والدعابة معاً، هنا يتجلى غسيل الدماغ وحشو ذلك العقل البليد بمحفزات الخطاب الديني المتطرف ، كي يخرج الفرد بعدها وحشاً بهيئة تكاد تشبه البشر، ووفق ذلك القالب ثمة الكثير ممن يرمزون لاتساع الشرور معبئين بالتطرف ، يقادون كالنعاج والحيوانات الشاردة ليكونوا أداة لتغيير الخرائط والنظم ومسرحاً لتصفية حسابات الكبار.

إنها الحرب تنهش الحب وتثكل العشاق، ثم تجعل منهم فتات يقتات منها المجتمع أشعاراً ، أغان وروايات، ظروف عصيبة تحيط بشخوص الرواية ، وهم يتحدثون على حدة ليبينوا ما حدث في رقعة منسية اسمها كوباني، ظهرت بغتة

وباتت رمزاً للصراع من أجل البقاء ضد قوى الإبادة ، هؤلاء التاريخيين وبكامل أحقادهم وذخيرتهم السامة من بلاغة وتفقه في نص القداسة أخذوا يطبقون حرفياً ما أوتي في القرآن تبعاً لفهمهم وقطبهم المتجدد، وينشرون الويل والفزع حيثما ولوا الأدبار، نلحظ أن التطرف يندفع لمحاولة قتل الحياة ومعنى التعايش وحس المسالمة بين المجتمع، هذا التطرف الديني الذي جسده الكاتب في إطار حديث المقاتلين الكورد عنه يأتي في إطار التهكم والسخرية لمستويات التفكير لدى الجهاديين، ممن يهربون إن سمعوا مثلاً زغردة امرأة مقاتلة، لاعتقادهم أنهم سيخسرون الجنة إن قتلوا بيد امرأة، يبين لنا هنا ذلك التمايز بين فكر دفاعي وآخر أتى من ظلمات التاريخ الوحشي، وهنا تصبح السياسة وسيلة لاجترار العنف وتهديد البشر الآمنين، هذا الميراث الديني السياسي يتسم بغناه وقوته البلاغية وإفحامه في الخطاب الذي هو مزيج من تحريض على العنف والبلاغة المتحكرة للفضيلة والمعبرة عن التوجه للحرب بأن من يحارب هو وكيل لله ومعتمد في نشر تعاليمه الموجودة في القرآن، ليس الكتاب فحسب إنما كبار الأئمة الذين يرون في الجهاد وتطبيق الشريعة بالقوة وسيلة مقدسة ولابد منها لنشر الإسلام كما كان السلف يفعل ذلك وكان بذلك قد وصل للعديد من البلدان واصفاً غزوها بالفتح، فارتباط القداسة بالعنف يعتبر أصلاً للشرور، هذا الإيمان الأعمى وضع العقل في معتقل، وألبسه عباءة الظلامية الدموية، والسبات الثقيل ، حيث يعتبر الدفاع عن قيم البقاء والتعايش المجتمعي ردة فعل ممنهجة وهامة بوجه التاريخيين، كون ذلك موضوعاً للرواية الوطنية المجسدة لكفاح المجتمع في التخلص من الهيمنة السلطوية والدينية في آن معاً، فترسيخ الوعي الرادع للظلامية الإسلاموية بالغ الأهمية ويغلق الطريق بوجه أسلمة المجتمع وضياعه في التاريخ ، من حيث انغماسه في الطقوس التي قادت العقول إلى الخواء

والانغماس في الأسر والتبعية،

المعركة مع المتطرفين ليست بالأمر السهل، الاستيلاء على قلب المدينة بعد معارك طاحنة ، رسمت ملامح صراع جديد، يتسم بنصر أصحاب الأرض، وتجديد ارتباطهم بوطنهم وتسابق الفتيان لنيل الشهادة لما لها من رمزية هامة في حياة الشعوب استناداً لمثل كوردي شعبي، "الثور يموت ، الجلد يموت، الرجل يموت والاسم يبقى " ان انتزاع وسام القيم يعتبر هدفاً قيماً ، يضعه المدافعون عن البلاد نصب أعينهم ويجدون في تحصيله سعادة داخلية، ونشوة تضاهي النصر، لنتأمل هنا ص 74 : " في أيام السنة الأخيرة ، وبينما العالم كان مستغرقاً بالحفلات والمفرقعات النارية تملئ سماء أرجاء المعمورة، وحدها سماء كوباني ، امتلئت بإطلاق الرصاص والمدافع القاتلة المخلفة خراباً وراءها، حيث تزينت سماؤها بها، في ذلك الليل، لم يدع ذوا اللحى شبابنا وأطفالنا أن يكبروا في السنة الأخرى، فرغم تحرير المدرسة السوداء، إلا أنه لم تبقى سعادة لأجل السنة الجديدة، متصفح ومتابع الفيسبوك باهوز هوران كان ينتظر الأنباء الجديدة حول كوباني، فبدلاً من أن يقرأ نبأ تحرير المدرسة السوداء، قرأوا نبأ رحيله، انقضت السنة الجديدة بنبأ رحيل الناسط الفيسبوكي الشاب ، الذي وضع : صفحته كنافذة مفتوحة عن كوباني المحاصرة بين النار والخراب والدم، كل فرد من ناحيته كان يؤدي تحيته مع السلامة باهوز هوران، سلاماً لكل شهداء كوباني نفخر بكم .

هذه الحرب بين قوى البناء والهدم، حرب بين المعرفة والخرافة، بين أصالة الجذور وعنجهية الهيمنة على المقدرات، وتحتاج أن تتبين معالمها أكثر في المساحة الأدبية الروائية على وجه الخصوص، فلا شيء سوى الكتاب بإمكانه أرشفة الحوادث والاعتبار من مغازيها، لأجل صناعة ذاكرة كوردستانية أدبية

تحمل ما ينوء التاريخ عن حمله، حيث تعريف الجيل القادم بحقيقة الصراع من خلال الأدب يعتبر منجزاً معرفياً وطنياً يعتد به، إذ في التاريخ أقاويل وتفاسير لا تصلح كوسيلة لمعرفة الحقبة أكثر من الآداب الإنسانية وأخصها الرواية، فهي تقدم أرواحاً، أحاسيساً، أفكاراً ، نجت بحكم الفن من أسر الارتهان السياسي والانتفاع الايديولوجي ، حيث تشير الرواية إلى الكفاح العسكري وخيارات الذود عن النفس والأرض للدخول عبر ميدان القوة لعالم السياسة والحنكة الدبلوماسية، واقع شعب مضطهد تخلى عنه قدماً الأحلاف والأصدقاء، عدا تلك الجبال الشماء، واليوم هو ماضٍ في تقرير مستقبل حر وديمقراطية واعدة وسلام منشود.

حيث لا فلسفة في شيء يتقدس ، يتحنط ويصبح وسيلة لتقويض انتماءات وأفكار الآخرين بدلاً من تنميتها، ويتغذى العنف من المقدس الذي يتماهى به المعتنق حد ألا ير سوى عقيدته ، وهنا تكمن نقطة الخطر، في ألا يميز المرء بين انتماءه وانتماءات الآخرين، ويرى من إيمانياته سواطيراً تعادي ، وتنحر، هذا ما يدور في فلك دماغ الجهادي، فما يدور في أروقة ذهنه هو النزوع للتاريخ الوحشي وطرق التعذيب وتسخير العقيدة الدينية خدمة للتوسع والهيمنة على المقدرات والموارد، فالإنغماس في التراث أربك الفعالية الفكرية لدى الجهادي، وقادته إلى التقوقع والاستسلام للهلوسات والهذيانات الدينية واضعاً نصب عينيه الموت لأجل لقاء الجنة والحوريات ، وقتال كل معادٍ أو مختلف بوصفه مشركاً أو مرتداً، هذا الخطاب طغى على الجانب الآخر من الفكر الاشتراكي الثوري، الذي يتماهى خطابه ببعض جوانب طقوس الخطاب الديني، إذ أنه يعتمد على غسل الأدمغة والتركيز على الفئة القاصرة من الشباب، إلى جانب إضفاء القداسة على القائد واعتباره مهدياً منتظراً، فالواقع القبلي يجعل من المجتمع متأهباً أبداً

لحدوث طفرات في حياته على الصعيد الحياتي، لكن على صعيد الأفكار لن تكون الطفرات الفكرية إلا محدودة بوجود سلطة سياسية تلجم فكر الفرد وتلزمه على أن يقول ما تريده وليس ما يريده، هنا تتكاثر العقول المدجنة وتتناقص الإدراكات المميزة،فإبراز البطولات الجماهيرية يذكي ذلك الوعي القومي الإنساني ، والتأكيد على كفاح شعب كوردستان الغربية والجنوبية بمواجهة التطرف الإسلامي له أهمية عالمية، إذ أن مكافحة الإرهاب من بوابة الوطن المغتصب أعطى القضية الكوردية بعداً سامقاً بارزاً، أجج عبرها مشاعر الكراهية والبغض من جانب الأتراك ، إذ تمحورت السياسة التركية بمواجهة هذا التألق البارز للقضية، ومسألة الديمقراطية والانفتاح على الحريات، ذلك أحرج سياسة الدول الاقليمية وجعلها في حالة فرزع وهياج، فأخذت تنظر إلى لمعان القضية عبر مكافحتها للإرهاب العابر للحدود، بعين القلق والجدية، لهذت فإن توثيق تلك البطولات وتثبيتها في ذهنية المتلقي الشرق أوسطي عموماً والكوردستاني خصوصاً يساعد كثيراً في إشراك مختلف الشرائح في عملية صناعة الوعي المضاد لأنظمة الرعب والشمولية، وقد قدم الكاتب حليم يوسف وعياً دراماياً صحيحاً وتعمق في المأساة المجتمعية وعن صناعة الأمل المنشود في رواية تحمل في متونها نوازع التشبث بالهم الاجتماعي وذلك الانغماس في عمق الأرض والمرأة بوصفهما معشوقين قديمين تجيد سبرهما فنون الأدب والموسيقا وكذلك السينما، فتلك المشاهد أعطت للفن السابع قيمة في صناعة الحرفية الموغلة في تصوير الوجدان الجمعي وحمل رسالة المعرفي العاشق لوطنه والمتأصل بكفاح الشعوب وسيرها باتجاه التأكيد على الوجودية والمظلومية التاريخية، لقد وظف الكاتب كل ما يشير إلى الإنسان في عرض الشحنات الوجدانية وضخها بمظاهر الفكرة التي تنادي بمجتمع الإنسان كبديل عن الاستئناب والتوحش وعن رحلة الصراع لأجل تحرير

الأرض، رغم أن المواجهة غير المتكافئة أفضت لخسائر مادية وتدمير للبنى التحتية إلا أن المعنويات بقيت عالية وتصر على الاستمرار بالذود عن المصير، رحلة الصراع لأجل البقاء تستمر، لتجاوز الصعوبات والعراقيل التي وضعتها قوى التكفير، بطريق أمن المجتمعات وطمأنينتها ، حيث يصف الكاتب البيوت المهدمة، الأنقاض ، المباني التي تحولت لأطلال، فشجرة الجوز تتحدث كإنسان مراقب لما يجري بعد دمار كوباني وعودة أهلها، وعن أناس لم يجدوا مأوى يناموا فيه، لنستمع لما قاله رودي العاشق هنا : ص 78 " – حلمي أن ألبسك ثوب العرس بين هذه الأطلال يا بروين

استقبلت بروين استعجاله بالزواج بذهول ، وهو يرسم ثوباً فلسفياً فنياً في هذا الحدث،عرسنا رمز انتصار الحياة، ضد حصار الموت لنا، رمز إعادة البناء مقابل الموت والخراب ، انتصار للحب واللون الناصع ضد عبودية الحياة واللون الأسود المعتم.

هكذا جسد الكاتب ذلك الإبداع الفني والحي رغم كل الويلات التي تعترض طريق الناس في صناعة عيش رغيد وواقع أفضل، ليشيد صرح رواية تنتصر لأحلام الإنسان وتطلعاته في الحرية والجمال ونهضة الفن الجميل.

تخطأ أحياناً طائرات التحالف في أهدافها فيتأثر المدنيون بهذا القصف فتتهدم منازلهم وتصبح معيشتهم صعبة للغاية، فالمحظوظ هو مالم يتدمر منزله كاملاً، إذ بإمكانه بناؤه وترميمه، أما سيئوا الحظ فيضطرون للسكن في منازل أقاربهم أو المكوث في العراء أو في خيم أقيمت على عجل، لاسيما وأن فرق البحث عن الجنازات لا تزال مستمرة وقد تم مصادفة جثة شيرين، هنا تتعدد المآسي وتتزاحم، حيث سوء الحال وفجيعة الروح لا تتوقف ويستمر الأنين والترحال صوب ممالك

الحزن والعوز، وبألم تتلقف الأم وصية ابنتها الشهيدة حين قالت ص 80 :
"وصيتي حين تقومون بدفني، أهيلوا علي التراب
" بأيديكم، كي لا يتوجع التراب الذي من أجله أصبحت شهيدة
هذا العلم الذي يتعلمه المقاتل، والمقاتلة، لم يكن وليد الكتب والمجلدات ، بقدر ما هو استخلاص لهذا الحب المتأجج للأرض والشرف، يكثفه على نحو وصايا تنضم لأرشيف وأرث الأمة الكوردستانية، وتوضع كأعمدة متينة في صلب الرواية الوطنية، كي تتفقهها الأجيال وتصقل كم المعارف والآداب الإنسانية، لتعزز من مناعة الأجيال وتحفظ الرسائل كأجنة حية في مختبرات الوجدان الإبداعي، رواية، شعراً، رسماً أم موسيقا، إصرار رودي على إقامة عرسه وزواجه من بروين كان بمثابة نكران متمرد وفلسفي للواقع المزري والخطورة الباقية، إنه بمثابة مواجهة من نوع آخر، وضرورة لطلب الحياة كما يجدر أن تكون وتعاش، أرادها عرساً يتحدى صعوبات الحياة ورائحة الموت والجنازات، وتكاثر قبور الشهداء، أراد شيئاً يشعره أن الدنيا على خرابها تبدو صالحة للعيش، وقد استطاع أن يتزوج ويمشي مع عروسته بروين بين شوارع المدنية المتحولة لأنقاض، مشهد يبدو واضحاً وعارماً بالحماسة، مشاعر متناقضة ومدببة توقظه من سبات الخوف والمحنة المحدقة به من كل صوب وحدب، لقد استطاع حجز غرفة له مع بروين ومع الوقت أخذ منزلاً يعيش فيه إلا أن حلم المكتبة الذي راود بروين لم يتحقق، على الرغم من أنها لم تعد ترى كوابيساً تغير حال العاشقين بعد الزواج، إنه الاستقرار والتفكير المشترك بالبناء والتغيير للأفضل، أشياء نبيلة وأخرى بريئة تعصف بذهنيهما، وهو أن يمضيا بحياتهما بروح مشرعة للأفق وطموح لا يتعب أو يهدأ ، لقد أجاد حليم يوسف الإنسابية في الحدث عن تجربة رودي في زمن الحرب، وعن شجاعته في إحداث مقاربة بين الخيال والواقع، رغم كل العثرات

والمواقف العصيبة، فالموت لايبدو بعيداً بل على مسافة قريبة جداً إليهما، عالم يتخلله الصراع منافع تحول البشر إلى جشعين وإلى شراذم قتلة محترفين، وقلوب تنبض وتتابع طريقها بين الزحام، تروي سيرة الزمن المرير الذي يعايشه الناس معاً أو على حدة،نلحظ عناية الكاتب بالجانب النفسي للإنسان الإرهابي حيث أشار في روايته الوحش الذي بداخلي، إليها، وتحدث عن مراحل نمو هذا الوحش في معامل احترافية "معتقلات" تجيد إخراج الوحش الذي بداخل الإنسان عبر التعذيب الشديد والنيل من الكرامة وإذلالها، نجد أن ذلك متصل بموضوع روايته الأخيرة هذه، ففلول الجهاديين " الأمراء منهم" تحديداً كانوا من خريجي المعتقلات المختلفة للنظم القمعية الاقليمية منها على وجه الخصوص، حيث تم رعايتهم عن كثب وإخراجهم على ماهم عليه كي يكونوا وسائل تهديد وضغط وترويع للسكان المحليين ومن ثم وسائل دعائية مؤثرة لاستجلاب الشباب المراهق من كافة أنحاء العالم ، من أوروبا ، آسيا، أفريقيا، استراليا وأمريكا، إنه إرهاب عالمي منظم يديره المستفيدون من تغيير الخرائط ووضع أخرى تتناسب ومطامحهم،ومصالحهم البعيدة، حيث استطاعت أوروبا "ألمانيا" مثالاً، من جلب ذوي الكفاءات والطاقات، ووضع برامج اندماجية لهم تستطيع من خلال هجرتهم ومكوثهم أن يتحولوا لأيدي عاملة تسد العوز والاحتياج للدولة، وهذا الأمر مرتبط تماماً بضرورة إشعال الحروب في مناطق كسوريا ، العراق، ليبيا واليمن، وغيرها من البلدان الفقيرة المضطربة، وأيضاً تضمن دوام تصديرها لأسلحتها ، إن كل هذه القضايا ، بيع السلاح، اللاجئين ، الإرهاب العابر للحدود والقارات، مرتبطة بحاجة الدول المهيمنة اقتصادياً للإستفادة من نكبات الشرائح الفقيرة المعانية من ضغط أنظمتها القمعية ووجود جماعات تكفيرية تطال سلامتها على الدوام مما تدفعها للهجرة لأجل مستقبل أفضل للأجيال ، إنها سياسة تصدير الأزمات

وضمان بقاءها يكفل بقاء قوتها وسوق سلاحها لفترات وعقود أطول، تلك الرأسمالية الوحشية تدير الإسلام السياسي وتبقي على إيران وتركيا كبعبعين في الشرق الأوسط ، وكذلك تحرص على إبقاء اللون الكلاسيكي الإشتراكي بصورته الهزيلة الطوباوية والتي نخرتها رادءة الحراك والتوجه، وطغيان الفساد والاقصاء، في مؤسساته لدرجة التحلل والتفسخ فما يفعله المال السياسي المتحالف مع الاقتصادي لن تستطيع فعله الايديولوجيات القائمة على الدعاية التحريضية والطقوس الشمولية ، حيث الصراع اليوم يتمثل في تهديد اقتصاد الدولة وشكلها إيذاناً بسقوطها غير البعيد بطبيعة الحال.

الموت والحياة يتبادلان الأدوار علناً في مجتمع الحرب، حيث تكون الحواس متأهبة باستمرار كأنها تنتظر مفاجأة ما، وتنعقد الألسن حين يقع المحظور، تصبح الحياة أكثر تجسيداً حين يقاربها شبح الفناء، هذا ما يحاول النص إبرازه حينما يحيط بهالة الحدث الدرامي بانتظار أن ينبت الخضار ويزهر بين الصخور الصلبة، تلك المفاجأة كفيلة بأن تطوي صفحة لتفتح أخرى، حيث تروي جيهان هذا الكابوس الذي بدأ عند الاستيقاظ لتناول السحور الرمضاني عند الفجر، لنتأمل النص هنا ص 85 : " يوم 25 حزيران 2015 الساعة عند الرابعة صباحاً، كونه شهر رمضان، فأكثرية الناس مازالوا يقظين ولم يكونوا قد ناموا بعد، استيقظت على وقع أصوات الرصاص والتفجيرات، في الوهلة الأولى اعتقدت أنه حلم، أو هي سعادة المقاتلين لتحريرهم بعض المناطق التي كانت بيد ذوي اللحى، سألت أمي الذاهبة والراجعة هناك "

-ماذا تفعلين أمي ؟

- تناولت السحور وسأصلي

اقتربت أصوات الرصاص، بدت وكأنها تأتي صوب جدران بيتنا، كل شيء حدث

بغتة، دون أن يدري أحد، أمي أخبرت أختي بريفان أن تتصل بإدارة المدينة ليعلموا ما يجري حولهم، عندما صرخت زوجة أخي، توقفت يد بريفان على الهاتف". أم أحمد ذهبت، أحمد قُتلْ.

الفاجعة التي سطرت صخبها في الكلمات، يتفاعل معها وجع الروائي وانقياده إلى فداحة الكارثة الإنسانية، وقد حلت بالسكان الآمنين، كيف سقطوا تباعاً جثثاً هامدة، يخبرنا الحدث عن أشياء تعصف بالذهن الإنساني ساعة قرب لقاءها مع الموت إذ يدنو ويبتعد، حيث إطلاق النار يحدد من سيبقى ومن سيغادر إلى العالم الآخر، إذ لا يجيد الموت المزاح والفكاهة، والإنسان حياله لا يستطيع شيئاً، سوى أن يحرص ما استطاع على النجاة من مخالبه الحادة، ، الموت يتمتع بإيدي طويلة ورهبة لا متناهية ومزاج عكر، فالمجزرة التي راح ضحاياها العشرات من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، كانت إحدى الوحشيات المقترفة المعاصرة، وقد تم اقترافها باحترافية وقد مات جناتها كلهم، إنهم أتوا نتيجة عقيدة جهادية دفعتهم ليموتوا لقاء قتلهم أكبر عدد ممكن من العزّل، إيديولوجية تجد كل مخالف لها مستحقاً للموت بقسوة حسب وجهتهم، في داخلهم كمية حقد كافية لتشوية الحياة في النفوس التي استعدت لخوض عمار الوقت وملئه بما يجب وبما يحرك في الذهن سعياً لبلوغ الأفضل.

لقد استطاعت العقيدة الجهادية المتبنية للنص الحرفي أن تحرك الدماغ القاصر للعنف بيسر، فقتل كل ما يمكن مصادفته هنا يعتبر تأكيداً على قوة تأثير الدين بشقه الخطابي على العقول الشابة وكذلك التي تتبنى الإرهاب بوصفه مبدأ إسلامياً، كما تجسد ذلك في سورة الأنفال : "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم " فهذه الآية لما لها من سطوة تأثيرية على العقل الباطن للمتدين إذ

تحرض فيه غريزة العنف والقيام به كوسيلة للتقرب إلى الله، حيث إنهاء وجود ما يعتبرون كفرة أو ملحدين هو غاية الجهادية التي اعتبرت نفسها الحارس الضامن لصيرورة الدين وانتعاشه، والجهاديون وفق ذلك يعتبرون أنفسهم حراساً ووكلاء لله على الأرض، إنهم يتغذون من كتب السير والقرآن والسنة وأيام الغزوات المحمدية ، أي أن علاقتهم مع التاريخ ، علاقة قوية توأمية، لا انفصال عنها، فتوظيف ذلك التأثير البلاغي يتسم باحترافيته وتفوقه في ميدان غسل الأدمغة وتحريك الفرد نحو العنف باستخدام الترهيب والترغيب، الوعد والوعيد، ففي كل عمل يقوم به الفرد المتدين يعده شكلاً من أشكال العبادة، فالمال والجنس محركين قويين لهما جل التأثير على الفرد الجهادي، إلى جانب الدعاية الممنهجة والأناشيد الدينية القادرة على تخصيب خيال الجهاديين بوعد الجنة والثواب، إلى جانب إباحة النساء واعتبارهن متاع، ووسيلة للترفيه وقضاء الحاجة الجنسية، حيث بإمكانه أن يتمتع قدر ما يشاء جنسياً بواسطة السبايا واللاتي يهبن أنفسهن له "جهاد النكاح" فاهتمام تنظيم القاعدة وداعش بالترفيه عن المجاهدين مثل وسيلة استقطاب مهمة للشباب وتسخيرهم عبر محاكاة غرائزهم الجنسية والعنفية على حد سواء، في ذلك إلغاء لدور العقل والمنطق والتدبر الفكري، على حساب إذكاء شرارة الغرائز الحسية وتمجيد نزعة الكراهية والانتقام، لكل الانتماءات غير الجهادية بوصفهم أعداء لله والنبي، حيث تغذية الشباب بذلك يكفل لها الوصول للمزيد من الأراضي وتوسيع رقعة هيمنتها، لقد تم الاستفادة من النص المقدس والتقيد به حرفياً ، وتمثيل الماضي الوحشي على الأرض عبر العودة للماضي ونكران الحاضر، بوجود إمكانات لوجستية وتقنية إلى جانب جهاديين من جنسيات مختلفة ، يتمتعون بخبرات متعددة ، جندوا انفسهم لخدمة العقيدة التي جاؤوا من أجلها، من خلال فكرة إعادة الخلافة الإسلامية

والتمدد الجغرافي، لقد عبروا بلدانهم عن طريق تركيا ودخلوا الشمال السوري، ووجهتهم غربي كوردستان وجنوبها، أي أن قوى اقليمية وأخصها تركيا زودتهم بكل المعدات ، وسهلت لهم العبور عبر أراضيها دون أية عوائق تذكر، ليلعبوا دور القرابين في حرب مفتوحة والغرض من ذلك إثارة الاضطراب وعدم الاستقرار وتشجيع الناس على ترك مدنهم وقراهم والمضي للخارج عبر هجرات تمت عن طريق تركيا، فهي من جهة تمضي في دعم تنظيم الدولة الإسلامية ومن جهة أخرى تفتح ممراتها البرية والبحرية عبر بلغاريا واليونان، لتسهل الطريق للهاربين بالتوجه صوب أوروبا رغم كل المخاطر ورحلات الموت التي تنتظرهم

القبور في كوباني تتسع، تبتلع أشلاء الشهداء وتقول هل من مزيد، كل شيء يشير إلى الفناء في أروقة هذه الرواية التي تتلوى من العذاب وحرقة القلب والرغبة بالانعتاق من قيود الحاكمية والمظلومية التاريخية، حيث لا شيء يفقد البوصلة في عيون الكوردستانيين المتطلعين إلى كوردستان، الحقيقة التي لا يمكن للنظريات الطوباوية أن تلتف عليها وتنقص من قدرها ، فالحرب التي يدفع أبناء وبنات غربي كوردستان والأجزاء الأخرى، ثمنها من الدماء والأبنية والقلق ، قرباناً لأجل كوردستان الحلم ، مهما حالات الإيديولوجيات التنويمية من رؤيته واضحاً ، إلا أن الحقيقة القومية ظاهرة تحديثية عصرية وضمان لاستمرار التنوع الإنساني اللغوي، وهذا ما تسعى الرواية لإبرازه بشكلها الواضح، إن قدر شعب كوردستان أن يحمل صخرة سيزيف ليجرها للأعلى فتقع ثم يحاول الشعب الاستمرار فيدفع بالقرابين البشرية كرمى لكوردستان، وهكذا نجد المسعى التاريخي يتجاوز تعنت الأحزاب الشمولية وارتهانها لأجندات أعداء كوردستان ، كون الوقود الجماهيري ينزع أبداً للحلم القومي الذي لا يتزعزع في الذاكرة الجمعية، لقد سلط الأعداء الاقليميون تنظيم الدولة الإسلامية على الكورد في

جنوب وغربي كوردستان، وكذلك ضد أبناء الطائفة الإيزيدية والهدف من ذلك طمس جذور الحضارة وإبادة العرق الكوردي وكذلك النيل من الأقليات التي تعيش في كوردستان، ، ذلك مثّل تحدياً جسيماً ، وولد الهم والطاقات لمعركة مصيرية عالمية ، حيث بدأ العالم يحتفل بيوم كوباني، تمثيلاً لإرادة الشعوب الحية في مواجهة الإرهاب الإسلامي، تتحدث الأرواح هنا في رواية تعزف على الوجدان المدرك، فتقول مالايقوله الفكر المجرد السابح في متون رؤى وآراء مستنبطة عن غيرها ممن سبقتها من أقاويل، حليم يوسف هنا بصدد محاكمة وجدانية لغوية يعقدها فيما بينه وتلك الأرواح التي هامت على وجهها ذات عاصفة قضت على كل غصن أخصر يانع، فالمقارعات الحامية في رقعة حدودية شكلت تحدياً أمام قوى الإرهاب والتكفير والتي خرجت عن عباءتها المغبرة، وباتت القوى الشعبية اليوم رقماً يصعب تجاوزه أو القفز فوقه في معادلة الصراع السوري، فالواقع الراهن تم صنعه بتضحيات جسام ، ومعارك كبيرة، أحرقت ودمرت ، حيث تحررت الإرادات عبرها من قيود التبعية والخوف، وتنفست الجماهير الصعداء لتبصر غداً بهياً مفعماً بالسلام

. والسير نحو مجتمع جديد ،يعي أدواره في بناء الديمقراطية وتغيير الحياة يتجلى الموت هنا بوصفه معادلاً لطلب الحرية والرفاهية، وكذلك يتعلق بالتشبث بالأرض وقيم المجتمعات فحقاً لا يرغب أحد بالموت، لكنه يصبح حلاً اضطرارياً لرؤية واقع أفضل، في ظل صراع ساخن وعنيد بين أنصار الحداثة وأنصار النزعة التاريخية، حيث يواجه الإرهاب المقدس بإرهاب مضاد ، الفارق بين الإرهابين ، أن الأول وحشي يقوم على نزع الحياة، والآخر ضروري يقوم بطلب الحياة والدفاع عنها، لاشك فيه فإن الكثير من الأرواح الشابة الحالمة ستتساقط كما اوراق الشجر الصفراء في الخريف، وأن قلوب الأمهات ستنفطر ،

على فلذات أكبادها، إلا أن الموت هنا يتم الاحتفاء به كرمز لكرامة المجتمع المناهض لإرث الإرهاب التاريخي الراسخ في جذور الدين ومراميزه السياسية المتعلقة بالتوسع وتدمير إرث وحضارات المنطقة الخصيبة، نعم يرمز الموت الجهادي إلى دمار الحياة وتدمير روح الانتماءات وتقويضها، وإعادة الزمن رأساً على عقب، لتصبح الحياة جامدة لا روح فيها ولا إبداع، قتل الناس على الهوية ، وتدمير بيوتهم، سبي نساءهم ، ولأجل تلك الممارسات يهب الشباب القاصر كالقطعان لاهثاً دون وعي طالباً للموت في سبيل جنة وهمية عرضها الأكاذيب والهراء، ببساطة الحدث يعبر عن نفسه، عبر الضحايا الناجين من هول الجريمة المرتكبة، جيهان، تعتقد أن في نجاتها حكمة ، ربما تتعلق في دورها كراوية لما حدث من خطب زلزل القلب، وجعلها لأشهر تعيش الصدمة، ولا تقدر أن تنفِّس عن ذلك الألم العظيم، الذي تأصل في الأرواح، كانت الغاية من هذا السرد والتوصيف ، هو التعريف بمحاصرة الأعداء الاقليميين وألدهم تركيا لتجربة الانعتاق القائمة في غربي كوردستان، بعد تفكك الدولة السورية وجهازها القمعي وغياب حضورها في غالب المدن بالأخص الكوردستانية، فداعش كانت وكيلاً عن تركيا في حربها ضد الكوردستانيين، حيث كانت داعش مطية في قتال الكورد،وتفتيتهم ، حيث يجري اختلاف البيت الكوردي على أي حدث، عبر وضح اللائمة على بعضهم البعض، والتنصل الخبيث من المسؤولية حيال الشعب، حالة التفتت السياسية، سبب المحن المتلاحقة، فليس ما جرى إلا سبباً غير مباسر عن الانقسام السياسي ووجود شروخ مجتمعية، وتجهيل مؤدلج يتجلى في تأليه الزعامات الروحية،بدلاً من رسوخ فكر قومي صحيح وجوهري واضح، لايتم اختزاله بأشخاص ورموز، في قسم آخر يتناول حليم يوسف مشاهد تتعلق باستنطاق الموتى، فالذهول ساد أرواحهم المغادرة والتي اغتيلت غيلة وغدراً، ففي

المشهد الثاني يتحدث عن الذين لقيوا حتفهم أمام أضواء الكاميرات، انتقال احترافي ومحزن لطريقة مغايرة للسرد، من امرأة تتحدث عن مشهد قتلها، سبع رصاصات اخترقت رأسها ، وقد شاهدت أطفالاً يغادرون الحياة على مرأى منها، المغزى من هذا الانتقال هو عرض المجزرة، أحداثها، وما يجول في داخل كل ضحية لم تنجو من الموت ، وذهبت بما تحمله من لواعج وحسرات، ذلك الأسلوب في الدخول لجوانب دقيقة قد لا يتسنى للمتلقي مواكبتها في الحالات المألوفة، إلا أن كل ضحية تتحدث عن كيفية موتها ، ذلك أبرز التأثير الدرامي الباعث على الحزن ، ، فالموت هنا بات حليفاً للظلاميين ، حسب تعبير "شيخ مهران" أحد الضحايا ، إذ يصف طريقة موته على نحو يسترسل في حدث الرحيل الموحش عن الحياة، يعرض الكاتب ضحاياه، وهم من مختلف الأعمار، يصفون الحدث تبعاً لنظرتهم وتصوراتهم، وذلك إبراز لعمق الفجيعة وهولها على النفوس، وكذلك يجسد فداحة التآمر الاقليمي على شعب يسعى جاهداً للعيش في ظل منطقة مستعرة بالخلافات والنقائض والنزعات التعصبية دينياً وقومياً.

هذا النزاع الدموي ضخم من الجهل والتجهيل، وأثبت للعالم أنه ليومنا هذا يمكن قيادة حروب كبيرة باسم الرب، إذ لا زال ذلك صالحاً ومطلوباً بشدة، حيث مئات الأقنية الدينية والمؤسسات والجماعات السرية منها والعلنية، وذلك الإعلام الذي يضخ سمومه في العقول، وذلك الخطاب الإسلامي الذي لم يتغير والذي لم تعترف مرجعيته بأن داعش لا تمثل الإسلام، ذلك يعني استمرار الضحايا وتأصل العنف كثقافة مقدسة داخل المجتمعات الشرق أوسطية وكذلك التي تعيش في المناطق الفقيرة والمنكوبة المهددة بالحروب والنزاعات المستمرة.

يروي الكاتب على ألسنة الضحايا كل أمنية ماتت معهم، وحسرة توارت بتواريهم عن أحبتهم، أراد أن يحقق في قدرة العصابات الوحشية على إخماد جذوة الحياة

في أرواح العزّل، كل شخصية تتحدث عن المكان والزمان الذي توارت فيه عن الدنيا واستسلمت لسبات عميق، كل صوت كان يملئ المكان بالدفء والحركة في الأرجاء خيم عليه بغتة سكون مطبق، فالمقابر تدوي من حكايا الذين فتحوا أذرعهم للأمل، ثم استقبلهم الموت في حجره الباردة، فالموت مرموز الانطفاء، وعكس فعالية الحركة، يجيد اقتناص الحالمين والتائقين لحياة أقل معاناة، وقد امتهن صناع الموت القتل متسلحين بالعقيدة الدينية ، وقد أحسن أسلافهم في ربط العنف بالثواب الإلهي، بتلقينهم عبر النص الذي خولهم ليصبحوا حراساً للدين ووكلاء لله على الأرض، الكاتب هنا ينشغل في الأحلام المزهقة والطفولة البائسة، ليستجمع في أذهاننا قصص الحروب التي كثيراً ما تتحدث عن ضحايا لم يحملوا السلاح وقضوا نحبهم بيسر، نلحظ كيف تصبح العقائد سيفاً مسلطاً بيد معتنقيها، كيف تحررهم من إنسانيتهم وشفقتهم وتجعلهم مهووسين بالدماء، وكيف يعاد التاريخ الوحشي على تعدد سيناريوهاته، وتصبح المسرحية الممارسة جسيمة في أدء ممثليها الحقيقيين على الأرض، كيف يتحول الدين إلى سيناريو يمثل بحرفية على خشبة الواقع، عبر ممثلين وضحايا وأخرى قتلة، هنا أخفق الفن مقابل الحدث المعاش، وأخفقت الرواية أمام من عاشوا الألم، ويخفق الكتّاب حيال نقل مأساة الآخرين إلا من خبر ذلك الواقع وعاش بتفاصيله واكتملت فيه مقومات المأساة والتمثيل الإبداعي لها على حد سواء، بهذا الكم من الحقد تم الاستيلاء على أدمغة الفرد المتطرف، وإخراجه عن الحالة الإنسانية التي تقشعر بطبيعتها من رؤية الدم والأشباء، تم تجريدها من كل ما يمت بتأنيب الضمير ، ولعل خطاب الكراهية تم توظيفه عبر التاريخ لإخراج البشر من إنسانيتهم والتشبث الأعمى بالعقيدة واعتبارها فوق كل شيء، لهذا فالضحايا يزدادون بالتزامن مع ضخ الإعلام لهذا النوع من التخاطب، عبر بثها للسموم وخاصة

بتعدد وسائل التواصل الاجتماعي، فإن توظيف الدين في القتل بات تجارة رائجة تدر الربح ويصبح تنفيذ الأجندات أكثر يسراً عبر تمويل الجماعات الدينية وتوجيهها من خلال أمراءها وقدرتهم الخطابية في استقطاب الشريحة الشابة بكافة الوسائل المتاحة.

يعمل التأثير البلاغي الكامن في الخطاب الديني على امتلاك فكر الفرد المراهق وحتماً يعتبر من أقدم الآليات المؤثرة على العقول والأذهان عبر التاريخ ، وقد حذت كل الإيديولوجيات الشمولية حذوها في تمجيد ذاتها وتوجيه مريديها لكراهية الجهة المضادة لها، وأعطتهم مسوغات للقتل وإرهاب المختلفين معهم، فقد مات الكثيرون باسم الأديان كما مات الكثير باسم الصراع الطبقي ، من هنا نجد أن التحضر مجرد زي، بينما لا يزال المتحكمون بالعقول والموارد، يعمدون إلى زج الناس في عداوات وخصومات لا تنتهي ، فعمدت يد الإيديولوجيا للبطش والتنكيل دون وازع، يمكن التنبه بأن صناعة الإرهاب الديني قائم على مبدأ الكراهية المقدسة، فهي إن تملكت إنساناً متديناً واستحوذت على ذهنه فإنه مستعد في أي فرصة سانحة في الانقضاض على من يكرههم، وذلك ينفي وجود التحضر الحقيقي ، وإنما يخفي وراء العبارات الجميلة قلة الحب وكثرة الكلام المعسول ، كما يجعل الإزوداجية مرضاً سريع الانتشار، حيث يقول الشاعر البريطاني جورج غوردون بايرون 18: " أن الكراهية هو الإحساس الأطول أمداً على الإطلاق ، الناس يقعون في الحب في لحظة خاطفة ولكنهم يكرهون بتمهل وعلى روية " ما نتحلق حوله هنا هو تنقيب عن مراحل الكراهية وتثبتها في اللاوعي، ومن ثم قيام الإعلام الموجه بتحفيز الناس على الكراهية واعتبار ذلك حرية تعبير، إن كل إرهاب ممارس يتم عبر إذكاء شعور المظلومية داخل الذهن وتحويل ذلك مع الوقت إلى دعوة للانتقام وتوجيه الضربات العنيفة، للجهة

المستهدفة، لهذا فتثبيت الفكرة ورسوخها داخل الفرد المعتنق يسهم في إطلاق يده وتفريغ شحنته الملغومة تلك، وما أكثر الجماعات المستخدمة في القتل والتدمير ، كون هنالك دوماً أرضية خصبة لنموها وتوليدها، بخاصة وجود الأقنية الإعلامية وطريقة الشحن التعصبي ، حيث اعتمدت الحروب الأهلية على التجييش الإعلامي "سوريا" نموذجاً وتم إعادة الصراع السني الشيعي عبر الاخوان المسلمين والطائفة العلوية الحاكمة ، وتم تطوير ذلك الصراع اقليمياً من بوابة الإسلام السياسي الذي تقوده كل من تركيا وإيران في المنطقة ، حيث راحت الدول تتسابق في إنتاج جماعات مسلحة وتخصيبها بخطاب الكراهية وضخ المال والتمويل الجيد للمجندين ، وتم استخدام هذه الجماعات ضد دول ومصالحها، وتم توجيه داعش بأوامر تركية ضد الكورد وضرب تجربتهم الفتية في غربي كوردستان، من ثم جندت المعارضة السورية المسلحة ضد الكورد بعد أن تمت هزيمة داعش عسكرياً، إذن يمكننا القول أن التطرف يعتمد على التجييش الإعلامي والتمويل الجيد.

إن دولاً لم تكن لتقام لولا خطاب الكراهية المؤسسة لها، تركيا مثالاً ، اعتمدت العنصرية لأبعد حدود لتأسيس دعائم قوتها، عبر كراهية العنصر التركي لكل ما هو غير تركي نقي ، وقتل الإنسان الكوردي لانتماءه القومي، إلا حين ينكر كرديته ويعتبر نفسه تركياً ، حينئذ يحق له العيش كتركي غير نقي، وعبر ربط العروبة بالإسلام أقيمت دول عربية تحولت قوميتها المتعصبة كسيف مسلط على رقاب الأقليات والقوميات غير العربية، وفي أوروبا لا تزال هنالك كراهية مبطنة لليهود ، فمعاداة السامية واقع معاش، حيث لا يجرؤ اليهودي على الإعلان عن يهوديته خشية وقلقاً على نفسه من القتل أو الاعتداء، إننا في عالم مبني على الكراهية واعتبار ذلك شيئاً طبيعياً، حيث أن منابع الإرهاب تحظى برعاية الكثير

من الدول في الخفاء ولاسيما تلك التي تزعم أنها تكافحه، إن الإرهاب الإسلامي انتشر كوسيلة لإزالة الدولة وتفتيتها وكذلك توجيه المجتمعات لقبوله والتعايش معه، الهدف من ذلك الإرهاب العابر للحدود هو التذكير بالتاريخ الوحشي الذي لم يتسنى للكثير الإطلاع عليه، وكان الغرض منه تمكين الإسلام والعرق العربي، على حساب انتماءات القوميات، الذين هم سكان أصليون لتلك المنطقة الشاسعة المعروفة راهناً بالعالم العربي، حيث اعتبر فيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري 19 الديانات مكراً وخداعاً استخدمه السلطويون لغايات تتعلق بمنافعهم وتحكمهم بالعقول بغية تدجينها حين قال:

أفيقوا أفيقوا ياغواة فإنما ***** دياناتكم مكرٌ من القدماءِ**

حين نلحظ اقتران كل كراهية بما يسوغها من أمثلة التاريخ والوقائع الدموية ومن بوابة ذلك الماضي المسيس انطلق الخطاب الطائفي في مقت الطائفة المقابلة، حيث لا تزال رواسبها في العالم المتحضر قبل العالم النامي ، فما تمدد اليمين المتطرف ومعاداة السامية، إلا حاضنة أولية لكل نزاع قد يطرق الأبواب مع تقادم الوقت، حيث يمكن تشبيه الكراهية بالطبخة التي تستوي على نار هادئة، فما هجوم داعش على كوباني ومن ثم قيامه بالمجزرة الوحشية التي روعت عبرها المدنيين في بواكير صبيحة رمضانية إلا دليلاً على أن الكراهية وحش مربوط بحبال لا تبدو متينة وسرعان ما تنفلت من عقالها ما أن تتاح لها الفرصة المناسبة، فهنا عبر حليم يوسف عن محنة الحوار القصير بين الضحية وأحد العناصر المنتمية لداعش ما قبل مقتله لنتأمل ص 114:

أنت ستقتلني وغيرهم سيقتلك، بالحرب والقتل لا يُحل شيء، تجلب الحرب فقط –خراب البيوت والدمار يا بني

كلمة يا بني أخرجته عن صمته ،

– لست ابنك ولا يشرفني أن أكون ابناً لكافر لا يعرف الله

– لا يعرف الله ؟! ،الوقت الذي قضيته على السجادة بالصلاة كان أطول من سنين عمرك ، وأنت قادم باسم الله الذي صليت لأجله كي تقتلني

في تلك اللحظات قدم رفاقه من قرب الباب، وأرادوا أن يرافقوه على عجل، لا أدري لماذا كان على حيرة في قتلي، والجملة الأخيرة التي سمعتها من رفيقه هي . انقضت ساعة وأنت مشغول مع هذا العجوز

بكلماته هذه ، صوب رفيقه سلاحه نحوي وأرداني بالرصاص، وهكذا على عجل قفزوا من على جثتي واتجهوا نحو منزل "آخر.

هادي أوقن أن كونه كوردياً فإن عشقه مرتبط بحالته ككوردستاني اغتصبت هويته، فحسب نظرته فإن الشعب المضطهد كالإنسان المريض وعليه أن يكون دائم التطلع لحريته ، هكذا يخرج الشهيد من مقبرته كطيف ليدخن سيجارته ويتأمل الكون في العتمة، فالكاتب لا يرى في الموتى إلا أحياء، حيث حسراتهم لا تتوقف ولا حتى أحاديث عشقهم لحبيبتهم وأرضهم، فالموتى يتحركون ، يحدثون الصخب، وتهتز أعماقهم، يستحضرهم الكاتب ليعبأ من خلالهم لوحته الفنية بألوان تتحدث عن هذا العالم الموبوء، وعن ضحاياه المرابطين على جبهات الوجع والانغماس في عبادة الأرض والجمال والمرأة، رغم انخداع الكثير من الحالمين ببزوغ شمس العدالة، إلا أن ذلك لم يكن إلا وهماً مستساغاً، فأعمار الوحوش والقتلة في الواقع أطول من أعمار الملائكة وفق تعبير هادي، لقد صقل الكاتب هذه الشخصية وكيفية إداراتها في لمس العالم الوجداني لدى المتلقي والإيغال فيه ، لتحقيق الدهشة والشعور بالحزن واستجداء الدموع، والمضي قدماً في تجسيد حوادث الإنسان وأثرها على النفسية، والتعريف بجلد الإنسان

حيال الألم والفقدان إزاء انتهاء الإنسان ببروز شبح الموت، امرأة اسمها كوباني تعيش مخاضاً عسيراً وتخوض حملاً صعباً، ويتساءل حولها الناس أتولد ذكراً أم أنثى، تلك خاتمة ختم بها الكاتب روايته، حيث يشير ذلك المرموز إلى الولادة التي تعني الأمل والبشرى التي طال انتظارها، أما علامة الانتظار والتساؤل عن جنس المولود فربما تشير إلى تفضيل الصبي عن البنت، أو قد تشير إلى حياة لا يعلم الناس مآلاتها، إذ أن الغد يحمل في مكامنه الكثير من المفاجآت، إن الحرب لم تتوقف والجراح لن تبرأ سريعاً والناس تعيش في حالة من التأهب الدائم ، في ظل واقع يتسم بالمتغيرات والصراعات التي لا تهدأ، كل ذلك يحتم على المرء أن يفر خارج الصخب ويستجمع هدوءه المريب، يحاول إشعال الأمل من فتيل محاولاته في سلك طرق جديدة، وتفادي الشعور بالألم جراء الفقدان، إذ بات الموت حدثاً يومياً يتلقاه المحيط على نحو متوازن، حيث يؤمن الناس بالقدر وبالأرض كشجرة لا بد من رويها بالدم وكذلك بالجهد والتعب الكبير، إن الشهداء يختلطون بالأحياء في هذه الرواية ، يمتزجون بإيقاعات الحياة، ولا يهابون الموت ، إذ يعتبرونه مجرد انتقال من صورة لأخرى، فالناس تنتظر المزيد من المفاجآت السارة، وتحاول أن تعيش بعيداً عن الحزن ، فليس الذين ضحوا بحياتهم لأجل الأرض موتى، إنما أحياء في القلوب والأذهان، ويولدون من خلال تلك البراعم الجديدة التي تخرج من بطون الحوامل لتحمل قناديل الحياة الأفضل عن أيد السلف

. المضحي لأجل بزوغ فجر جديد محل فجر دموي

يبدأ عمل كل من هادي وبرهان حول أن يبدأ الفيلم حول الحديث عن فجيعة عائلة محددة في كوباني ، عانت في حقبة الحرب انتهاء بحدوث تلك المجزرة ، وقد أصبحوا من ضحاياها فيما بعد، هنا تتضح معالم الفيلم المنجز، ويتم تحديد

الهدف من إنشاءه، وهو تقديم الحقيقة المعاشة للآخرين ، ممن لم يتسنى لهم معرفة حقيقة الأوضاع وما آلت إليه، ببداية عاطفية يسهب فيها رودي بالحديث عن غرامه بحبيبته، ذات العينين الخضراوين كخضار الربيع في كوباني ، فيعرّف رودي عن نفسه كونه ابن هذه المنطقة التي لم تخضع لأي غازٍ أو محتل على مر الدهور، ابن سهل سروج ، رائحة العراقة والأصالة تفوح من تلك المنطقة ، يعكس الكاتب هذا الظرف في شخصية رودي كتعبير عن روح البساطة ودماثة السكان، إلى جانب أن التغير الذي يتم في المنطقة يتسم بفجائيته وسرعته، فالحرب تتقدم والجماعات السوداء في طريقها لتدمير كل أخضر أو شيء يدب على الأرض، نجد سلالة انتقال الأفكار والتحولات المتسارعة وعن التسهيلات التي قدمتها الدول الإقليمية في دخول العناصر الجهادية لسوريا دون قيود أو موانع، بغية تحقيق مشروع الإسلام السياسي على الأرض، وهذا يتطلب إراقة الدماء، والكثير من الضحايا، فتقدم الدول الممولة لهذه العناصر أسلحة حديثة وآليات متطورة، ويتم تحويلها على نحو ممتاز لتسهم في خلط الأوراق وتغيير ديمغرافية المناطق وترويع السكان، بالمقابل من ذلك يحارب الإنسان ابن الأرض بمنطق الحب والإرادة، فهنا يسارع حليم يوسف بوضع الحب مقابلاً للحرب، رودي العاشق لا ينفك عن حمى الحب الذي غيّر من لون عينيه، فبات يجتاحهما الخضار، لتتم رواية الجوانب البريئة في حياة الشباب في سنهم الأول، ولعل هدوء العلاقات الإنسانية والانفتاح الذي جرى في غربي كوردستان والشمال، أعطى إشارات لبروز خرائط جديدة لا تلقي بالاً للحدود، حيث تداخل المجتمع الكوردستاني ما بين الشمال والغرب، سيلزم بتبدل الصراع ونشوء الحرب على نظاق واسع حيث تداخل المنطقتين، يعكس أيضاً دوراً تركياً في التدخل وكذلك تمويل داعش وتقديم مختلف سبل الدعم لها، فالعلاقة القائمة ما بين فيان

وجيهان، تشير إلى انتهاء الحدود وجدانياً، وكذلك مشاركة أبناء الشمال الكوردستاني في حرب الدفاع الشعبية ضد تنظيم الدولة الإسلامية، كذلك بالتزامن من نيران الحرب يتم تدريس اللغة الكوردية وإعداد المناهج وتدريب الأشخاص ليصبحوا مدرسين وليبرز إلى جانب نضال البارود ، صوت صرير القلم في إنشاء معالم انتفاضة معرفية تخرج اللغة الكوردية من توابيت الإهمال والتهميش، لعل الثورة الأبقى هي ثورة المعرفة وتنوير الأذهان وتحريرها من القيود وكذلك إنشاء مجتمع يقرأ ، يفكر ويتعلم لغته ويسبر الحياة من خلالها، ذلك جعل كل شخص يدرك أن سفينة الحياة الجديدة تتجه بسرعة إلى ميناء اليقظة والتأهب لحرب الدفاع عن الأرض والنفس

حديث الشارع، يغدو في صميمه أشياء تخص الدرما الإنسانية وطرائق التفكير البارزة، تشير كلها إلى حالة التأهب لتغييرات قادمة، إلى جانب أن الظروف تخلق الأفكار والآراء وتتحكم بها، تلك الظروف محكومة بالجغرافيا، بخاصة وأن المناطق المستعرة تؤثر على الحدود الموضوعة ، فالواقع المتغير كشف أنماطاً من القتل و ممارسة الوحشية على الكاميرات، جميع المتعطشين لرؤية حياة أفضل في زحمة هذا الواقع المتغير، يلتحقون إلى الجبهات للقتال وصد هجمات الجهاديين، في قناعتهم حب الأرض وضرورة حمايتها استناداً لعقيدة الإيمان بكوردستان ونيل الشهادة لأجلها كوسام، فالدم لا نهاية له، والحرب تجلب معها انضمام العديد وشعورهم بالارتباط بالجماعة والأرض، إزاء هجمات لا تعرف إلا العنف والاستيلاء على الأراضي ونشر الرعب، حيث استفاد عرّابوا الجهادية كثيراً من القرآن ونصوصه المحرضة على القتل ونشر العقيدة الدينية، فالقتال يعتبر فريضة حسب النص القرآني وقد انتشر التأويل وتضاربت الآراء بغية أن يتناسب النص مع جميع الذين يستخدمونه تبعاً لسياساتهم فيهرع المؤولون في تطويع

التأويل خدمة لمآربهم وصراعاتهم السلطوية وذلك بحد ذاته استفادة لجملة النصوص التي فتحت الطريق لقوننة الجرائم واعتبارها وسيلة للتقرب من الله والجنة الإلهية، حيث للأديان علاقة كبيرة بالعنف نظراً لارتباطها بالسياسة والحكم، فالتحكم بالمجتمعات يتطلب العنف، وفي القانون عنف القوة، حيث النخب المقتدرة تفرضه قسراً وتلزم الأفراد به، عبر المؤسسات الدينية والجماعات الجهادية تتغذى على التاريخ في تحويل المجتمع إلى نواة لسلطات مستبدة، حيث تفشل أي سلطة ما أن تضع الدين على الحياة ، فلا الجماهير بإمكانها أن تتبع طويلاً أي نظام غير مؤسس على الدين أو احترامه، أو على الأقل لا يعتبر الدين خبزاً وشراباً له ، أي ما يتعلق بجانب التشريعات، حيث لم تنجح النظم العلمانية في الشرق الأوسط ، ولم تستطع بتر الروح الطائفية لديها، ففي الواقع كانت تتستر بعباءة العلمانية والنظام الجمهوري ، وهي في الواقع متمترسة بمفاهيم الفرقة والشقاق الديني، وكذلك تعتمد التوريث في نظرتها لنظام الحكم، فهي أقرب للملكية منها إلى النظام الجمهوري والقانون المدني، فالمنظرين الشرق أوسطيين على قلتهم لم يوضحوا نظرتهم إلى الإسلام السياسي، بل اعتبروا الدين حالة روحانية ، عمدوا إلى توصيفها بما يتناسب وحاجتهم المرحلية، حيث لم نتمكن من إيجاد مفكرين ذوي جرأة عالية ، قادرين على أن يظهروا بجنكة وشجاعة على طراز نيتشه 20، رينيه ديكارت 21، هيدغر 22 وجان بول سارتر 23، السبب هو أن الخطاب الإسلامي والإيديولوجية الشمولية اشتراكية الطابع وفقوا بالضد من أي نبوغ معرفي أو ثورة معرفية.

الحب في الرواية يدفعنا للتوغل أكثر في المشاهد وكذلك يحفز الأحاسيس لتتنبه بالذي حدث وسيحدث، أي انه بمثابة توطئة وإشادة جسور متسلسلة لفهم ماسيجري انتهاء بوقوع تلك المجزرة التي تعرضت لها كوباني، ومما لاشك فيه

فإن الضحايا نسق حياتي لابد وأن يعرض بدرامية ، لاسيما الشق المتعلق بضحايا لهم طموحات وآمال مرهفة كانوا يتمنون تحقيقها والتي اصطدمت في نهاية الأمر بحائط الموت الأصم والفجائي، فهمنا للموت كحدث أوقف دفق الأحاسيس والأحلام، حيث الرواية تتحدث عن صراع الإنسان مع الظروف والحروب وطبائع الناس ، ليحصد شيئاً بسيطاً مما يتخيل، هكذا دأبت الرومانسية في الرواية أن تكون ، وأن يمر العاشق البطل في المصاعب والعوائق ، ويتعرف المتلقي على ذاته من خلال الشخوص الذين يعجب بهم أو يراهم الأقرب إلى شخصه، فالأحداث تجري في كوباني، والحادثة تسترعي إبداع الكاتب أكثر وتثير اهتمامه فكل تركيزه ينصب حول المجزرة والأجواء التي كانت سائدة ما قبلها، ومقاومة الشعب لغزو داعش للمنطقة ولغرام بروين ورودي ، من ثم نجد الكاتب حليم يوسف يحيط بالمجزرة ومعانيها المنتهكة للوجدان الإنساني بما يحمل من شجون وخيبات، وعلى عكس قصص الحب المألوفة يتوج حب بروين ورودي بزواج ومن ثم يغدوان كلاهما ضحية للقتل ، في إيحاء أن الحب أيضاً سلاح لمواجهة التطرف على الرغم من فداحة الإرهاب وطرقه المروعة في قتل الأبرياء دون تمييز ،فبين روائح الأشلاء ووسط المذابح والدمار أصر رودي على إقامة عرسه، ليعبر عن حقيقة الصراع بين الجمال والقبح، النور والعتمة، حيث تلك الحروب التي يمتهن عبيدها فيه القتل ، كما يمتهن العشاق العشق ، ويسير الحب مع الحرب ضمن مسارين مختلفين، كما جدلية البناء والهدم، فلكي تحافظ على حبك يجب أن تحارب، فلا تتوقف غريزة الإنسان بعد الحب وإنما يبدأ بالبحث عن أشياء أخرى تتصل بنداء الملكية ، بيد أن الحب في البيئات غير الآمنة والفقيرة تسودها حالة من التصوف والصفاء المقترن بالحرمان، لم تتدخل الملكية في صنعه وإنما الحادة أوجدته، حيث يحاول العاشق أبداً الظهور

بمظهر العابد أو الحالرس لكل هذا الزخم من العواطف والأحلام التي تشتعل في صدره، وقد جاءت الحرب لتناهض الحب ولتحرض الفرد على ضرورة التأمل في دقائق الحياة وتفاصيلها، ليتبين أن لا شيء من السهل أن يكون بمتناول الإنسان مالم يحالفه الحظ ويبدل جهداً في حيازتها، فالموت يحصد الأرواح ولا خيار أمام الإنسان الطبيعي إلا أن يذود عن وجوده وبقاءه إزاء قوى أتت من بطن التاريخ، متسلحة بوحشية العقيدة ونصوصها الصحراوية الاستعمارية المقدسة.

لا نرى في الحب الذي يجسده الكاتب تملكاً وإنما وسيلة للارتقاء والتشبث بالأرض ، مضدر الكينونة وإحساس الإنسان بالجمال والسحر والخصوبة، حيث تتجلى الأرض بملامح المرأة ، والمرأة هنا عاشقة تدافع عن قيم المجتمع وروحه من تلك الهجمة البدائية الناشبة أظفارها ، هذا التصادم القهري لا يهدأ ويفتح مساراً للتساؤل ،وكذلك يستولي على المخيلة والإدراك وهنا وجب على المتلقي أن يسبر ما بذاته من خلال مواطن الإحساس ، فالسرد الجمالي يبدي وظيفة عليا في الارتقاء بمستويات إحساس الإنسان بالذاتية والجمال في ظل عالم وحشي جائر مؤلف من رأسمالية وحشية هدفها جمع المال وبيع السلاح وتوريد الإرهابينن والتخلص منهم عبر زجهم بمعارك تحصد من أرواح الآلاف من المدنيين العزل، تحالف قذر بين الجشع الربحي والتطرف الديني، حيث يقع على عاتق الكوردستانيين محاربة داعش التي تم توجيهها بمهارة وإدراك نحو المناطق الكوردية في كل من جنوب وغربي كوردستان، لتكون المنطقة المحتقنة مركزاً للحروب والنزاعات والصدامات ، وهكذا تتدفق عبر ذلك موجات النزوح، وتتغير الخرائط لتصبح بين ليلة وضحاها، جديدة تحل محل ماكان سائداً ، ولعل الذي يقود الإنسان الجهادي هنا هو سلسلة من أفكار دينية وهمية و إغراءات حسية

تستولي عليه ولا يملك سبيلاً في إعادة تمحيصها بسبب تأثير الدعاية الدينية وحيث أنها تتسم بقوة الخطاب البلاغي وتاريخية التأثير العميق على أدمغة الشباب وعواطفهم وهم في مرحلة الفتوة الأولى، فالحرب الثقيلة وسيطرتها على العقول مفعمة بالصخب والصدمات، والحب يمثل عقاراً مضاداً ويمنع الخوف من الدخول لأعماق الفرد، هنا يدين الكاتب طبيعة المجتمع المتسلح بقيم الحق والخير والجمال ، ويجد في ممارسة العشق ضرورة قصوى في مواجهة التحديات العصيبة ، إنه صراع بين عالمين مختلفين، وطبيعتين مغايرتين، إحداها معلقة في الغيب وتعتقد أن القتل وتقديم الذبائح البشرية وسيلة مثلى للتقرب إلى الله، وأخرى ترى أن لا إله كامن في الدم والوحشية، وإنما هنالك وطن يجدر حمايته و الإيمان به يعتبر أثمن قيمة، وبصدد الموت يتحدث فرويد 24 في كتابة الحب والحضارة والموت ص 27 قائلاً : " الموت شيء طبيعي ، الموت هو موتنا نحن ومع ذلك لا نفكر فيه إلا بوصفه موت الآخرين، المهم أن تستمر في الإبحار ، الحرب تواجه الإنسان بالموت وتجبره على الاعتراف به، الموت كدافع للتفكير ، الموت عند البدائي فكرة الروح والخلود والشعور بالذنب، لا شعورنا البدائي تفضحه الحروب .

يعزو فرويد سبب نشوء الحرب إلى حالة اللاشعور البدائي الذي يعترض الإنسان عقلاً وعاطفة، فالوحشية الكامنة لدى الفرد هي سبب وجيه للتدمير ، وهذا ما نشهده في العقلية الجهادية فقد أطلقت العنان لشهوات أفرادها بالظهور ليستمروا في القتال، حيث وظف الإسلام السياسي الجنس وعشق الموت لأجل الجنس كوسيلة إغراء إلى جانب المال، وتوفير اللذة، عبر جهاد النكاح، والجنة الإلهية الموعودة ذلك كفيل باستمرار الدعوة والتوسع في الهيمنة على المزيد من الأراضي .

جدلية الموت و الحياة في حرب كوباني

الموت يخيم على النفس في لحظة مجيئه القصوى ، ويبدو حليم يوسف قد استخدم الأسلوب التكثيفي في إبرازه لبنية السرد، وأحاط بمشهد انفجار مبنى الهلال الأحمر الكوردي في كوباني، معتمداً على المؤثرات الوجدانية ، عبر توظيفه لملامح الشخوص الداخلية ، وتذكر جيهان لابتسامة والدها الذي قضى نحبه في الانفجار، وذلك حتماً مدعاة ألم، وكذلك فإن الانفجار المهول أربك المحيط، واستدعى في الذهن ماقاله سيغموند فرويد في كتابه: _ الحب والحرب والحضارة والموت _ ص 25 : " إن أذكى الناس يتخلى عنهم ذكاؤهم فجأة ، ويتصرفون كالحمقى حالما يتواجد ذكاؤهم في مواجهة مع مقاومة عاطفية" . ذلك يؤكد دور العاطفة في مواجهة العقل، كيف يفقد الإنسان توازنه العقلاني في أشد لحظات حياته حميمية أو شجناً، خاصة فيما يتعلق بموت شخص عزيز وقريب أو سماعه لخبر صادم قد يغير من مجرى حياته كاملة، فقوة العاطفة وتدفعها تمنع العقل من أن يفكر بطلاقة، حيث الإنسان حيال الصدمة مفعم بالذهول والانشداه والتلعثم ، هذا الاضطراب الداخلي يدفعه لسلوكيات غير منطقية، كأن ينزع للصراخ أو الحبور والالتزام بالوقوف ساكناً دون إبداء تصرف منطقي حيال الموقف، تحاول جيهان أن تنكر وقوع الموت وفقدانها لأبيها ولأشخاص تعرفهم من محيطها، ويتحول الموت لحدث طبيعي حين يتكرر بشكل دائم في زمن الحروب فيأخذ المرء مناعة من الانهيار السريع نتيجة فراقه للعديدين ، فلا ينشغل بالحزن طويلاً وإنما تسود الكآبة عوالمه برمتها، إلا ان الألم والحب يتصلان ببعضيهما هنا ولا ينفكان، حيث نلحظ أن الحب أحياناً يصلح ليكون عقاراً مهدأ للألم نوعاً ما، لكنه يخفي في جوهره غصة الفراق والفقد، فالكاتب

ينقب في فلسفة العواطف ويرصد لنا شخوصاً تعترضهم المفاجآت وتحاصرهم، ، تجعلهم يرمون ما بأرواحهم ، وتتحدث كل شخصية عن حبها للأرض ، وكذلك فإن الموت متعدد الأوجه يرمي بقتامه على كوباني، ويزداد حصار داعش لها يوماً بعد يوم، والجنازات تتوالى، والجميع يهدف من عملية الصمود لنيل الشعادة الحقيقية، والتماس الأمان والحياة الجيدة، نلحظ شخصية الوالد المتدين الذي كان موالعاً بإعداد وصفات طبيعية لمرضاه، وكذلك يضع وعاء ماء قرب رؤوس أولاده النائمين، ويذهب للمقبرة ليقرأ القرآن قرب قبر فيان، هذه الطقوس الدينية والجانب المتعلق بالطمأنينة الروحية تخبرنا عن وجه آخر للتدين يتصف بالمسالمة وعدم الأذى وكذلك نشدان حياة هادئة أقل ضرراً وتعنت وأكثر طيبة ودماثة، لهذا يعرض لنا الكاتب الجانب اليسير من التدين ليفرق المتلقي بين نوعين من التدين ، الأول مرتبط بالفطرة الخيرة والطبيعة المسالمة والآخر تدين وحشي سادي يستمتع في الأذى والانتقام والحقد، ونرى أن كلا التدينين على خلاف نقيض يجتمعان في ميدان الحرب ، ويتصادمان مخلفين وراءهما عويلاً ونحيباً وموت، لهذا نجد الصراع يثبت لنا أنه الانتصار للأقوى كونه الأجدر والأصلح في تسيد الوجود.

حب برائحة الانفجارات يستولي على الأذهان العاشقة، يكشف عن مخيلة تتسع للفقد ، الرحيل ، الانتقام والأمل، لاشيء يمنع العواطف من أن تتأهب لعيش العشق رغم حلول الموت بكثافة فهو خبز وشراب الأحياء، كي يصمدوا بوجه الأحزان والكوارث الناجمة عن حرب الإنسان ضد مقابله، الحرب تمتحن قدرة الشعوب في البقاء والاستمرار في مواجهة الإبادة والصهر ، فتعمل الآداب والفنون إلى جانب الحراك السياسي والعسكري، لمقاومة مخاصر الإبادة العرقية التي يتعرض لها الكورد في غربي كوردستان وجنوبها، وكذلك فإن عمل داعش

هنا هو تنفيد أجندات تركيا في تصفية ثورة غربي كوردستان للحيلولة من أن تكون ذات يوم حرة على غرار تجربة اقليم كوردستان الجنوب (العراق) فتعمد إلى فرض واقع الانقسام الكوردستاني ناك عبر تحييد طرف كوردستاني ، قد يعطي لتصرفاتها الشرعية وهكذا ظل الحراك السياسي مخصياً ، ضعيفاً ومخيباً لآمال الكوردستانيين جمعاء، الأمر الذي سبب المآسي للشعب ، حيث تمت السيطرة الكاملة على عفرين ومن تل أبيض (كري سبي) و رأس العين (سري كانيه) وواقع ذلك التمدد مستمر ويجعل المنطقة في حالة اضطراب دائمة، وقد أصبح الوحدة الكوردستانية ضرباً من المحال في ظل ارتهان الحركة الكوردستانية على طرفي نقيضها لأجندات كل من تركيا وإيران، حيث تعاد للأذهان ذلك الارتهان الكوردستاني قديماً لكل من الامبراطورتين المتصارعتين العثمانية والصفوية، هنا أعاد التاريخ نفسه بصورة مؤلمة يدفع فيها الشعب الثمن من دماء أبناءه، ليغدو ضحية الايديولوجية الحزبية وخطابها الخاص المنغلق على أدبياته ورؤيته التصوفية البعيدة عن التوجه القومي الديمقراطي هكذا يصبح لكل حزب شهداءه ورموزه ومآثره ، التي لا يقر ويعترف بها الحزب الآخر المناهض، وينقسم الأدباء بين الطائفتين في ولاءاتهم وتفسد السلطة الحزبية الأدب والفن وتتقاسم الجماهير، ليترسخ ذلك الانقسام الشللي سياسياً ، عسكرياً ، أدبياً وفنياً، هذا سبب الاغتراب الجماهيري وغيب من وجود الخطاب القومي والاستراتيجية الوطنية الجامعة للكوردستانيين على اختلاف انتماءاتهم، بسبب التبعية لأجندات الدول المحتلة لكوردستان، وهي تحول من نشوء الوحدة السياسية، الأمر الذي يجعل المكتسبات الوطنية المتحققة بفضل دماء الشهداء وإرادة المقاتلين، في خطر دائم من الزوال، مثال ذلك ما حصل في سقوط كركوك بيد الحشد الشعبي 25 إبان الاستفتاء، نتيجة خيانة طرف كوردستاني موالٍ لإيران،وسقوط شنكال بيد

داعش نتيجة انسحاب البيشمركة دون قتال منها، وسقوط عفرين نتيجة القراءة السياسية الخاطئة لواقعها والانقسام الكوردستاني الحاصل نتيجة التعنت الإيديولوجي، وهكذا فإن الأدب يقوم على خلاف كل هذه الأمور بإنشاء وردم الهوة الروحية بين الجماهير عبر التأكيد على الوجدان الوطني وكذلك إيلاء الدم المراق لأجل الأرض حيزاً كبيراً للإبقاء على الروابط الوحدوية بين المجتمع الكوردستاني فما نجح فيه الفن والأدب في لملمة التاريخ الكوردي ووحدة الجماهير روحياً عجزت عن تحقيقه السياسة الكوردستانية طيلة عقود، فالأدب الحر الخال من التبعية لطرف سياسي معين، قادر على حفظ التاريخ الوطني وأرشفته.

يسعى رودي لتحصيل اللذة الروحية والحسية من وراء نشدانه لحب هادئ ومريح مع بروين، الفتاة الرقيقة ذات العينين الخضراوين كربيع كوباني، يعلم يقيناً أن المحيط يعج بالحرب والجنازات والانفجارات ، مع ذلك يجد الحب مضاداً للرعب والخوف وانعدام الأمل، ويذود من خلاله عن نفسه، ليكون أكثر فهماً لحاجات النفس في ظل العوز المتفاقم، شجرة الجوز لها رمزية عميقة في هذه الرواية وفي ذلك المكان حيث هي الشاهد على ما يجري ، تواكب الشجرة يوميات مدينة مقاتلة، شعب مقاوم وآمال معقودة،لقد رأى الجنرال حمو سعادته أخيراً في تجسيد وضعية الجنرال الظافر وتفرغه لتلك الفكرة بعد العدول عن بحثه لامرأة تنجب له، إن السعي وراء الأشياء وتكرار الإخفاقة قد يحوّل الإنسان لمعلول نفسي، وقد يعيش هذا النقص مضاعفاً إذ أن الجنرال حمو نصف مجنون بسبب عدم تحقق رغبته في أن يكون أباً، لشدة طلبه لذلك ومروره بالإخفاقات وعدم قدرته الكافية على إيلاء ذلك فإنه عجز عن التكيف وبات يجد أن ذلك نقص لا يمكنه تفاديه، وبانتقالنا لمشهد آخر يضم جلوس بروين مقابل رودي، قبلة حميمة جعلت بروين

في حالة من ذهول وخجل، وقد تعذر على رودي فهم شعورها حينذاك ، النصوص متقلبة وتعالج الكثير من الأشياء، تحاول تلخيص المحيط المحتقن بدء من مجزرة شنكال مروراً بأزمة الفرد المتلخصة في شخص الجنرال وكذلك غرق رودي في العشق إلى جانب رائحة الموت المنبعثة في كل مكان بالتزامن مع تقدم داعش نحو كوباني ، كأن رودي بالعشق يحاول إدارة ظهره للوجع المقيم والكارثة القادمة، أو يداري بالحب المواقف، إلى جانب أن الآخرين يجدون في قراءة القرآن قرب القبور باعثاً للطمأنينة ، لعل الأوهام الجمعية متأتية من حقيقة مبعثها ضعف الكائن الإنساني وحاجته الماسة لعزاء نفسي، حيث يرى سيغموند فرويد ص 51 – الحب والحرب والحضارة والموت : " وليست الديانات الإنسانية إلا من قبيل الأوهام الجماعية ، ولا حاجة بنا إلى القول بأن من يشارك في الاعتقاد في الأوهام لا يمكن أن يعترف بأنها أوهام"

بيد أن الوهم في الرواية يعتبر لقاحاً منيعاً ضد الاستسلام والخنوع للواقع القاسي والموت الذي ينقص من عدد الشبان يومياً ، فهذه الحرب تحتاج تسلحاً بكل شيء بالدين والايديولوجية الحزبية أو الإيمان بالأرض وضرورة الدفاع عنها، وكذلك فالوقوع في الحب هو شكل من أشكال نكران الألم المعاش، وهو ضرورة وطنية تسهم في التشبث بمكامن الجمال والحق والخير ، وتلزم الناس أفراداً وجماعات في سلوك الإيمان بالتضحية والإيثار ودفع الثمن لنشدان حياة فاضلة فيما يدفع رودي لعشق بروين هو الإيمان بعدالة الدفاع عن الأرض من محاولات احتلالها وإذلال ناسها، إنه عشق يرى في السعادة ضرورة لا يمكن تحصيلها إلا عبر فوهة البارود ، أيضاً فإنه يصر على أن يكون حفل زفافه في بيته المهدم وفي أجواء بعيدةعن السرور لتصل رسالته للمحيط الاجتماعي، إن ما من قوة تستطيع أن تنزع منا حق الحياة وسط توغل عناصر التنظيم وإعدادهم لحملة

كبيرة لغزو المدينة ، يساعد العاشقان لتلقي هذا الهجوم واندفاع بروين للانضمام لوحدات حماية المرأة، استعداداً للدفاع عن حق الحياة، ضد صناع الموت وقاطعي الرؤوس، فالذئاب البشرية تتقدم بحدة وعنف لتدمر كل ما يمر بها من بشر وحجر، والميول العدوانية تستفيق في دواخلهم، ويهيئون لها عدتهم وذخيرتهم وكراهيتهم لكل الذين لا يشبهونهم أو يوافقونهم النهج، إنهم محملون بغريزة الموت التي رآها فرويد أنها غريزة عدوان وتدمير، يجدون في طريقهم مجتمعاً آثماً يجب استئصاله وإبادته،يحاولون إعادة الوحشية التاريخية، ويطبقون سنن النبوة السالفة، فالنزوع للتاريخ وتقمص الماضي بما فيه يمثل انقلاباً خطراً على الحاضر ومعاييره المبتذلة ، هذا الانقلاب الوحشي يخلق انعدام التكيف وبروز أمراض مستفحلة يجعل سلوك الفرد المتطرف أشبه بالهلوسة، تسيطر الغرائز العنفية على دماغه، وتقوده إلى القتل وممارسة الاغتصاب وتحقير الأنثى، والنيل من إنسانية الفرد، فالحرب بين الوحشيين والمدافعين عن الأرض مستعرة، وليست سهلة رغم تفاوت القدرات التقنية، إلا أن المعركة عنيفة وعلى أشدها، فهي اختبار لكوردستانيين لإثبات مدى قدرتهم على حسم الأمور والتوحد في الساعات المصيرية، والاستعداد الموحد للذود عن الأرض وكرامة الناس، أمام عدو همجي تسلح بالعقيدة الدينية وهي تبرر له هجومه وسلوكه العداوني، حيث خطاب الكراهية الأعمى للكورد، يعتبر وقوداً لهذه الحرب وبتواطئ تركي واضح، فالأردوغانية جندت داعش وأعطتها كل الإمكانيات لتتمدد وتتوسع ويكون عملها لصالح مشروع الإخوان المسلمين العالمي في الوصول للسلطات في العالم العربي وإحداث انقلابات دموية فيها، ولا سيما وأن وراء داعش أقنية تروج لقوتها وبطشها على نحو غير مباشر وبخاصة قناة الجزيرة القطرية حيث كانت تهول من قوة الجماعات الجهادية وتسميها بمسماها "تنظيم الدولة

الإسلامية" بخلاف الأقنية الأخرى التي نعتت التنظيم بمسماها الاختزالي المعروف بداعش، وانبرى المزيفون من المثقفين الاسلاميين ليبرروا على نحو شامت ويقوموا بترويج أخبار مفادها سقوط المدينة وتوسع داعش، إذن يقف وراء داعش تمويل إعلامي جلي وعسكري هائل، وقد أخذت القوة المعنوية في التمدد والقتال بوحشية عقائدية، وهمة عالية، مقابل ذلك سارعت القوى الكوردستانية في اتخاذ اجراءات قصوى وسريعة لوقف هذا الهجوم وانقاذ المدينة من سقوطها الوشيك، جسدت الرواية هنا تدابير الشعب ليكونوا نواة لمقاتليهم وكذلك فقد حمل المسنون السلاح ليكونوا خاصرة متينة لأبناءه المحاربين بشرف على الجبهات ويأبون التراجع والاستسلام رغم شراسة الهجوم.

وقد تحدث حليم يوسف على لسان شجرة الجوز عن التمدد السريع للتنظيم وعن خطوط المواجهة وبطولات المقاتلين، وصمود من تبقى في كوباني من المدنيين إلى جانب قواتهم وعن تلك العمليات الفدائية ضمن صفوف التنظيم الجهادي، أشهرها تلك العملية التي أنجزتها آرين ميركان وقد خبرت قبل ذلك المعارك وطبيعتها، لهذا كلفت بمهمة ناجحة لاقت دوياً إعلامياً جسد إرادة المقاتلة الكوردستانية إزاء تكتيك الغدر الذي يتبعه التنظيم في حربه ضد المقاتلين وتمثيله في قتل المدنيين والأسرى لأجل بث الرعب ، كذلك وحسب تعبير ميركان فأن عناصر التنظيم يلجؤون بادئ الأمر لشن هجوم بالأسلحة الثقيلة ومن ثم يتسللون في منتصف الليل أو الفجر خلسة عبر هجمات مباغتة، وأنهم قلما يتجرأون على المواجهة المباشرة، وإلى جانب ذلك كان نبأ دخول البيشمركة لمساندة المقاتلين ومنع سقوط المدينة، وعودة إلى قضية الحب والدفاع عن الأرض قد مثل استجابة للحب ، وحقيقته البارزة في التشبث بالدفاع عن قيم الجماعة ضمن الجغرافية التي يعيشون فيها، حيث نرى أن وهمك المساواة يكاد

ينتفي في ظل مناخ الحرب، حيث يدفع المعدمون مادياً الثمن في ساحات القتال، ويدركون معنى أن يعيش المرء حياته بأكملها في موطنه ثم يأتي شذاذ الآفاق من كل مكان ليعيثوا فيها فساداً وخراباً، فالبطولات الفردية تم رفعها للإعلام ليشاهدها العالم كون صناع الأزمات وجدوا منها وسيلة للحد من التطرف الذي استشرى وكاد أن يخرج عن السيطرة بخلاف صمتهم تجاه مقاومة عفرين للإحتلال التركي ومرتزقته، حيث يتم الإقرار بالإرهاب الدولي واعتباره مشروعاً دائماً ، أما عن الحرب ضد داعش ومقاومتها فشيء آخر، إنها ازدواجية متجلية يتم ممارستها كون الدول تمارس الإرهاب وترى أن من حقها أن تحمي أمنها القومي وتتحرك تبعاً لمصالحها لا قيمها، فكل التدخلات الخارجية في شؤون الدول ليست استجابة لحاجات أخلاقية بقدر ما هي مصالح تدفعها للتدخل ، لقد سلط العالم الضوء على كوباني وتناسى احتراق مدن أخرى كنصيبين وتدميرها من قبل الطورانية التركية، نشهد ذلك الزيف في تلك الإنسانية البارزة على شاشات التلفزة والصحف والوكات العالمية،، وقد عبرت الرواية هنا عن روح الشعب وإمكاناته المسخرة في مواجهة الإرهاب وطبيعة الحروب الراهنة كسرت طوق الحدود بين الأقاليم والدول، وتشعبت المصالح واتسعت رقع الأزمات، وتفشت ، وبدت علاماتها واضحة بانهيار عملات الدول التي تتم معاقبتها اقتصادياً من قبل أمريكا، فالفاشية الدينية سوقت للأردوغانية كحالة استيطانية توسعية، وباتت وسيلة تفتيت للدول وضياعها وقد تم تحديث الحرب الدينية بما يتناسب وجملة القضايا الشائكة في الشرق الأوسط لتكون وسيلة تدفع بالكثير من الدول في إعادة حساباتها وطريقة تفكيرها ، حيث شكل قدوم الأجانب إلى أوروبا كلاجئين ، تسعيراً لبروز خطاب الكراهية الذي حمله القوميون الجدد في أوروبا، والذين تجاوزوا عتبة 15 بالمئة من نسبة الجماهير المؤيدة والنسبة مرشحة للنمو

المفاجئ إذ بقي الخطر الديني فعالاً ، فكوباني ليست سوى محطة قصيرة لجولات قادمة من حروب تتستر بعباءة الله أو المقدس الإيديولوجي.

المجازر المرتكبة تكشف حالة الجشع للحصول على أكبر قدر ممكن من الأراضي واستيطانها بعد إبادة سكانها الأصليين، وتتم عبر تعبئة الأفراد ، مرتكبي المجازر بخطاب الكراهية والمسوغات الكافية لارتكاب القتل الوحشي، حيث انكفاء المجرمين حول بعضهم البعض وتحلقهم حول عقيدة عنفية معادية لنمط الحياة المعينة تسهم في تحويل السلوك الإجرامي إلى فعل متعمد وواجب القيام به، لقد تم تعبئة عناصر داعش عقائدياً لينفذوا الإجرام باحترافية وتم تلقينهم بأن الجريمة التي يقترفونها هو بمثابة عقاب إلهي للبشر يتم بأيديهم، يستندون في ذلك لآيات قرآنية كما في سورة الأنفال 17 : " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم " حيث تشير الآية للجهاديين أن الله يقتل بأيديكم، وهذا يدل على التعبئة القرآنية المحفزة للشباب المتطرف في أن يقتل، حيث بقاء هكذا سور مصدر خطر دائم ، حيث تقرأ على أرواح المتوفين، وتترسخ في لاشعور الإنسان المتدين، ويتم تعبئة الجهاديين نفسياً من خلالها واستدراجهم لسلوك الإجرام، كون هكذا نصوص تبيح لهم ذلك، فالعنف المقدس هو عنف قائم ويستند لنصوص مقدسة، وقد جسد حليم يوسف في معرض روايته ما ارتكبه الجهاديون في قتل أكثر من 300 شخص من رجال ونساء وشيوخ وأطفال، في فجر يوم رمضانيا، هذا القتل العمد والعشوائي، سببه جملة النصوص العنفية الواضحة، والملحقة بتأويلات يجرم من خلالها المؤولون الذين يدافعون عنها ويحاولون تبريرها دون وازع منطقي، وصمت مؤسسة الأزهر دليل كافٍ على كونهم يرون الدين عنيفاً يتسم بالرهبة وكراهيته لكل مخالف، ولا تمتلك الجرأة لتفسير الآيات

كونها تقر بها على حقيقتها دون محاولة الالتفاف أو التحايل البائسة، حيث لا يمكن القفز على الإرث الجهادي الموجود في القرآن والذي هو مصدر الشرور، حيث خطورة النصوص تكمن في صفة المقدس بخاصة عند الذين يعتقدون أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، وإجمالاً فالتعبئة العنفية موجودة في مناهج كافة الأديان والنظريات السياسية الطامحة لتكون سلطة مستتبة، حيث الدين حاجة سلطوية في حدها الأقصى، ومن ثم هي عزاء الفقراء المضطهدين، من ضغط وجور الأغنياء عبر التاريخ، حيث يمكن أن نفرق بين اسلامين: اسلام وحشي وآخر فطري، حسب تمييز حليم يوسف لهما في سياق روايته، حيث أشار إلى تدين والد رودي ودمائته حين كان يدوام على قراءة القرآن قرب قبر الشهيدة فيان، وتلك الضحية التي قالت لأحد مقاتلي داعش أن صلاتي لله تساوي ضعف عمرك يابني، ومقابله نجد التدين الوحشي المتسم بخطورته وخشونته وتناوله للنص المقدس بحرفيته ، ونجد التدين الفطري الكوردستاني ناتجاً عن استجابة روحية للتدبر والتأمل في شؤون الكون والحياة دون إيلاء النصوص المقدسة أهمية حرفية ، حيث ينبثق الصراع في كل مذهب أو تيار يستخدمه السلطويون وأصحاب المصالح ،يقومون بتطويعه حسب غاياتهم في تجييش الجماهير والشباب القاصر بأسباب الموت لدوام الانتفاع.

جيهان ، إحدى الناجيات من موت أباد غالب عائلتها، بدء من صديقة العائلة فيان ومن ثم والدها الذي لقي حتفه في انفجار مبنى الهلال الأحمر الكوردي، وأختها الشهيدة شيرين مروراً بموت والدتها، وأخيها مع زوجته، عروس عشرين يوماً، وهنا تتساءل ما العبرة من نجاتي، هل السر كي أصبح راوية لهذه الفاجعة،هنا أخذت جيهان تتحدث عن الموت الفجائي وعن تداعيات تلك المجزرة الغامضة، وهكذا يترك الضحايا بلا رعاية أو مساعدة من قبل الجهات

المسؤولة، كديدن القائمين في إدارة البلد ، حيث تنتفي المسؤولية الحقيقية في حماية الناس، وتتحمل الإدارة الذاتية مسؤوليتها الأخلاقية كونها الجهة الحامية للمدنيين والذين لقيوا حتفهم، بسبب ذلك الإهمال والتسيب الأمني وضعف الحماية، إلى جانب تسلل عناصر داعش وتنكرهم بزي مدنيين هاربين من الرقة،ودخولهم إلى كوباني، هنا نتأمل ص 95 : " في الآونة الأخيرة عرفنا أنهم لبسوا ثياب المقاتلين الكورد، وهاجموا من عدة جهات ، من جهة صرين بإثني عشرة سيارة ، ثمانٍ منها دخلت مدينة كوباني ، وأربعة منها اتجهت صوب قرية "برخباتان " حيث تبعد عن المدينة حوالي 27 كليو متر، حيث دخلوا القرية عند الساعة الرابعة فجراً، بعضهم كان نائماً ، والبعض الآخر ظل يقظاً لأجل الصيام والصلاة، وقتل 28 شخصاً من القرية، والذين دخلوا المدينة من جهة الغرب تمركزوا في ثانوية الشباب، ومن جهة أخرى عبرت مجموعة كبيرة الحدود التركية من ناحية الرها ، ودخلت الحارت، بدأت بقتل المدنيين العزّل من الساعة الخامسة والنص قرب باب مرشد بنار، فجروا سيارة ، وانتشروا بزي المقاتلين الكورد في ساحة المدينة عند مدرسة الشباب ، حول مطعم السيران ، وكازية مصطفى درويش، ومن جهة شرق مشتى النور حتى صالون سيامند ولغاية شارع 48 و من هناك وحتى أوتوستراد قره حلنج انتشرت العناصر ولفت نفسها بأدوات التفجير، صوبت أسلحتها مقابل كل شخص يخرج أمامهم"

لقد توقف الزمن عند هذه الفاجعة الكبيرة ، وبات عالم جيهان يتكرر أمامها ، حيث ذلك السيناريو المليئ بالرعب والموت الدائم، فالفاجعة وضعتها أمام عذاب يومي، مأساة تتكرر في أعماقها، فالإنسان يدمن الموت حينما تعبر حياته دون رجعة ، يمر الأمس كما سيتحول الغد لأمس راحل وهكذا، إلا أن الإنسان الذي يعيش، يعاني فقد ذويه ومحيطه فإنه يعيش موتهم فيه، حينما يكون رحيلهم

أمامه على هذه الدرجة من الفظاعة والصدمة، حيث يرى هيدغر أن الموت أعلى إمكانية من إمكانات الوجود ، فهو يبعث على الرهبة والصدمة والانطواء، ويسلب من الحي حسه بالحياة وطعمها، حيث تكون خطوات الموت أكثر ثقلاً ووطأة على النفس، حيث يخلد الموتى داخل ذاكرة الأحياء ماداموا على قيد الحياة . وتتفاوت رهبة الموت على النفس تبعاً لدرجة ومكانة الميت في القلوب

الخلاصة

دور التمثيل الدرامي في هذه الرواية عالٍ ، حيث استخدم الكاتب تقنيات متعددة في السرد كأنسنة شجرة الجوز، كذلك إيحاءه للمتلقي أن برهان وهادي يعملان على تصوير فلم يوثق ما جرى في كوباني، سرعان ما يصبحان ضحيتين للمجزرة المرتكبة من قبل داعش، حيث تعامل الكاتب مع الضحايا كأشخاص يخرجون من قبورهم ليلاً ، فأحد الضحايا يخرج من قبره ليدخن سيجارته في تلك الليلة المقمرة، وليقم بإعادة سرد صدمته، أي ما جرى له في تلك الليلة الغادرة عند الفجر، كذلك فإن الكاتب اعتمد على تبويب روايته ، لتتحدث كل شخصية على حدة ، بدءً من هادي وبرهان، وكذلك رودي ، بروين ، جيهان، شجرة الجوز وفي الفصل الأخير يتيح الكاتب المجال لتتحدث كل ضحية عما جرى لها أمام الكاميرا، هذا التمثيل المونودرامي أسبغ على الرواية تأثيراً فريداً ومميزاً على المتلقي، فالتخييل الذي اعتمده الكاتب في غالب رواياته أتت أكلها، وقدمت مادة فنية غنية اتسمت بالغرابة والدهشة والفنية العالية دون أن تخرج عن الأفكار والمناخ العام للرواية، حيث لا يتسع المجال كثيراً للإحاطة بكل شيء منعاً من التشعب والاستطراد، في ان تروي كل ضحية قصة موتها وحياتها وصلاتها

بمحيطها ونظرتها للحياة، هنا يعمل التكثيف اللغوي دوراً في عملية التأثير، لاسيما وأن التركيز يعتمد على الإحاطة بهذا الحدث المفجع وتوثيقه في رواية، كي لا ينسى الكوردستاني المعاصر أي عدو ينهش في لحمه وتاريخه ووجوده، هذا الوحش الذي حركته تركيا وقطر لتكون أساساً لمشروع الإسلام السياسي وإعادة الهمجية العثمانية من بطن التاريخ، فجوهر داعش هو جوهر تركيا العثمانية والعلمانية على حد سواء ماضياً وحاضراً في إمعانها لكراهية الأقليات الدينية وكذلك الشعوب الأصلية للشرق الأوسط، كالكورد والأرمن والسريان والآشور وغيرهم، كونها تعلم أن ضمانةوجودها كعرق وافد من شمال غربي آسيا هو أن تبيد وتنفي وتجرم، وقد تطبعوا بالقسوة والوحشية نظراً لكونهم من سكان السهوب الفقيرة الجرداء "مجلة التاريخ المغاربي –محمد صراي – تاريخ الجمهوريات التركية الحديثة" ، فاستماتة داعش في القضاء على الفسيفساء الشرق أوسطي وعلى رأسهم الكورد هو ذاته جوهر السلطنة العثمانية في مراحلها الأخيرة، حيث تفشت النزعة الطورانية القائمة على إخضاع كافة الشعوب الأصلية وصهرها بالبوتقة التركية، حيث الموت هنا ابن الحرب وابن عاق للوجود الإنساني، إذ يعيش الكائن لينتظره، كما قال أبو العلاء المعري في رسالة الغفران " إن الموت هو أفضل الأشياء" فمصير الإنسان أن يجتاز الحياة . وينتظر الموتإن أنصار الموت يودون كسب الثواب في قتل البشر ليدخلوا الجنة ويمارسوا الجنس مع 72 حورية ، أما أنصار الحياة فيموتون لأجل القضية، فالوطن هو السمو والقيمة النبيلة وأساس الهوية الإنسانية

إثر ذلك الاضطراب الفكري ونمو العنف ، ازدادت الحروب واتسعت شرارتها، انتشرت في شتى الأصقاع، انعدام التكيف مع المحيط ، عزز من التطرف داخل الفرد، وحكم عليه بالعنف والإجرام ، فالبيئات المعنفة من حكوماتها الفاسدة، ربت

في أوساطها الفقيرة مشاعر النقمة والتذمر، وأودى ذلك بالنتيجة إلى انتشار بؤر التطرف الديني بازدياد حاجة الناس للعمل، المساواة والتعليم الجيد، ففي ظل حكومات دينية طائفية ، من الطبيعي أن ينمو الغلو نحو العنف وتوجهه الحكومات الاقليمية ، تلك المتصفة بالتعصب القومي المذهبي ولا تستطيع أن تتدخل مباشرة في شؤون الدولة المجاورة فتلجأ إلى حرب الوكالة كي تحقق أجنداتها ، ففشل داعش كتنظيم اعتمدت عليه تركيا في محاربة الكوردستانيين في بلد ديمقراطي فيدرالي، جعلها تدفع بورقة المعارضة الأخوانية السورية، لتنفذ ما فشلت فيه داعش، وكثيراً ما يكون التطرف عبارة عن ردة فعل، فالتطرف القومي هو ردة فعل عن المظالم المرتكبة على شعب ما ، حيث يدفه الأخيرة للتطرف كوسيلة لرد الهيبة والكينونة وغالباً ما تكون ردة الفعل هذه مضطربة وعنيفة حد الانتقام، فصعود النازية جاء إثر ظلم لقيه الألمان بعد خروجهم من الحرب العالمية الأولى ، وتوقيع معاهدة فراساي 1919 26 والتي كانت بمثابة فرض شروط من قبل الدول المنتصرة على المهزومة ، هذا أذكى شرارة التطرف القومي وكان أن ولدت النازية حينذاك،، ولعل التطرف الديني يمثل شكل التعصب التقليدي وهو الأصل لكل تطرف، كونه الأقدم تاريخياً، حيث يرى عالم الأعصاب دوغلاس فيلدز 28 " بأن المشكلة تكمن في أن دوائر العنف العصبية التي تجعلنا ننفجر في الغضب والعنف ، عميقة في الدماغ تحت القشرة الدماغية . حيث ينشأ الوعي، مما يستدلنا هنا بأن العنف مركزه الدماغ وحينما يعتنق المرء فكراً معيناً يكون شديد الإعجاب به وكارهاً لكل من يخالف تلك الفكرة، وبذلك تصبح الأفكار خليطاً يتضمن دوافع الدفاع عن العقيدة ضد من يخالفها أو يحاربها ويسعى لإقصاءها وكذلك غرائز الاستعداء والتشفي لدرجة الانغلاق، حيث تنتهي الرواية عند تساؤل متصل بهرم الذكورية العملاق الرابض في أذهان

الناس في كوباني أتلد تلك المرأة ذكراً أم أنثى، وبهذا التساؤل ينهي الكاتب روايته ويترك السؤال معلقاً في الهواء ، مشرعاً أمام إجابات مفتوحة ، ليدين المنطق الساذج الذي خلّف العنف والتعنت وضياع المساواة في عالم مهمل ومهمش ، دماء أبناءه رخيصة لحد السكوت المطبق وأحلام قاطنيه مطعونة بخنجر الموت والأممية الحمقاء الناهشة في جسد أمة تحارب في سبيل العالم وأمام عينيها لتغدو ضحية المصالح عبر الأزمنة.

الهوامش:

1-

منظمة حلف شمال الأطلسي (بالإنجليزية: North Atlantic Treaty Organization) ويُعرف اختصاراً الناتو (بالإنجليزية: NATO)، بالفرنسية (organisation du Traité de l'Atlantique Nord) اختصاراً (OTNA)، هي منظمة عسكرية دولية تأسست عام 1949م بناءً على معاهدة شمال الأطلسي التي تم التوقيع عليها في واشنطن في 4 ابريل سنة 1949. يشكل حلف الناتو نظاما للدفاع الجماعي تتفق فيه الدول الأعضاء على الدفاع المتبادل رداً على أي هجوم من قبل أطراف خارجية. ثلاثة من أعضاء الناتو (الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا والمملكة المتحدة) هم أعضاء دائمين في مجلس الأمن الدولي يتمتعون بـ حق الفيتو وهم رسميا دول حائزة للأسلحة النووية. ويقع المقر الرئيسي لحلف الناتو في

. هارين، بروكسل، بلجيكا، في حين أن مقر عمليات قيادة حلف الناتو يقع بالقرب من مونس، بلجيكا

2-

حزب الاتحاد الديموقراطي (بالكردية: Partiya Yekîtiya Demokrat، PYD)

حزب سياسي يعمل في المناطق التي يعيش فيها الأكراد في سورية. أنشأ سنة 2003م

3-

نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلّي

(بالإيطالية: Niccolò di Bernardo dei Machiavelli) (3 مايو 1469 – 21 يونيو 1527) ولد وتوفي في فلورنسا، كان مفكرا وفيلسوفا سياسيا إيطاليا إبان عصر النهضة. أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن يكتب نصائح للحاكم ، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ماهو مفيد فهو ضروري، والتي كان

. عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية

4-

أَرِسْطُو

(بالإغريقية: Ἀριστοτέλης) (384 ق.م – 322 ق.م) أو أَرِسْطُوطَالِيس أو أرسطاطاليس وهو فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان

. وهو واحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية

5-

أفلاطون

(باللاتينية: Plato) (باليونانية: Πλάτων) (عاش 427 ق.م – 347 ق.م) هو ارستوكليس بن ارستون، فيلسوف يوناني كلاسيكي، رياضياتي، كاتب لعدد

من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في

. العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو

6-

جان جاك روسو

(بالفرنسية: Jean-Jacques Rousseau) ولد في جنيف، 28 يونيو 1712 وتُوفي في إيرمينونفيل،

يوليو 1778 (عن عمر ناهز 66 عاماً)، هو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة

. روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

7 - تل أبيض (Girê sipî)مدينة كوردستانية تقع في منطقة الجزيرة في شمال سوريا غربي كوردستان

8- زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، من مُضَر. (520 - 609 م) أحد أشهر شعراء العرب وحكيم الشعراء في الجاهلية

9-كارل هانريك ماركس، (بالألمانية :Karl Marx، تلفظ ألماني: [ka:ɐ̯l ˈhaɪnʀɪç ˈma:ɐ̯ks])، كان فيلسوف ألماني، واقتصادي، وعالم اجتماع، ومؤرخ، وصحفي واشتراكي ثوري (5 مايو 1818م - 14 مارس 1883م). لعبت أفكاره دورًا هامًا في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية

10-رأس العين waşûkanî(بالكوردية Serê kaniyê)، هي مدينة كوردستانية تقع في شمال غرب محافظة الحسكة على الحدود التركية السورية، يعود تاريخها إلى آلاف السنين قبل الميلاد.

11-أدولف هتلر (بالألمانية: Adolf Hitler) (20 أبريل 1889 - 30 أبريل 1945) سياسي ألماني نازي، ولد في النمسا، وكان زعيم ومؤسس حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمعروف باسم الحزب النازي.

12-أليكسي مكسيموفيتش بيشكوف (بالروسية: Алексей Максимович Пешков)

ويعرف باسم مكسيم غوركي (Максим Горький)؛ (28 مارس 1868 - 18 يونيو 1936)، أديب وناشط سياسي ماركسي روسي، مؤسس مدرسة الواقعية الاشتراكية

13-روزا لكسمبورغ (بالإنجليزية: Rosa Luxemburg) (ولدت في 5 مارس 1871 - 15 يناير 1919) هي منظّرة ماركسية وفيلسوفة واقتصادية وإشتراكية ثورية من أصول بولندية يهودية عملت بالتجارة وأصبحت مواطنة ألمانية. كانت عضواً في كل من الديمقراطي الإشتراكي لمملكة بولندا وليتوانيا، الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني والحزب الإشتراكي الديمقراطي المستقل والحزب الشيوعي الألماني .

14-فرانسوا فوريه (1927 - 1997)، هو مؤرخ فرنسي، متخصص في الثورة الفرنسية وتراثها الأيديولوجي. هو أكاديمي وأحد كبار المتخصصين بتاريخ الثورة الفرنسية، وعضو في الأكاديمية الفرنسية. من أبرز كتبه: «المعجم النقدي للثورة

الفرنسية» و «التفكير في الثورة الفرنسية» و «إرهاب وديمقراطية».

توفي يوم 12 يوليو 1997 في قرية «Figeac» بمقاطعة أوسيتاني جنوب فرنسا.

15-صدام حسين المجيد التكريتي الذي ينتمي إلى عشيرة البيجات (28 أبريل 1937 – 30 ديسمبر 2006) رابع رئيس لجمهورية العراق

16-الليبرالية هي فلسفة سياسية أو رأي سائد تأسست على أفكار الحرية والمساواة. وتشدد الليبرالية الكلاسيكية على الحرية في حين أن المبدأ الثاني وهو المساواة يتجلى بشكل أكثر وضوحاً في الليبرالية الاجتماعية.

17-أرماندو تيستا أرماندو تيستا (تورينو، ولد في 23 مارس 1917 م— تورينو، توفي في 20 مارس 1992 م) كان مصمما دعائيا، مشخصاتيا، ورساما إيطاليا.

أرماندو تيستا كان رساما مشهورا، كاريكاتيريا، ومصمم جرافيك ونصوص في مجال الدعاية

18-جورج غوردون بايرون، سادس بارون بايرون أو اللورد بايرون (Lord Byron؛ 22 يناير 1788 في إنجلترا – 19 أبريل 1824 في اليونان) شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي.

19-أبو العلاء المعري (363 هـ – 449 هـ) (973 -1057م) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري، شاعر وفيلسوف ولغوي وأديب عربي من عصر الدولة العباسية، ولد وتوفي في معرة النعمان في محافظة إدلب

وإليها يُنسب. لُقب برهين المحبسين أي محبس العمى ومحبس البيت وذلك لأنه قد اعتزل الناس بعد عودته من بغداد حتى وفاته

20-فريدريش فيلهيلم نيتشه (بالألمانية: Friedrich Nietzsche) (15 أكتوبر 1844 - 25 أغسطس 1900) فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث.

21-رينيه ديكارت (31 مارس 1596 - 11 فبراير 1650)، فيلسوف، وعالم رياضي وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ"أبو الفلسفة الحديثة"، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصًا كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى-1641م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. كما أن لديكارت تأثير واضح في علم الرياضيات، فقد اخترع نظامًا رياضيًا سمي باسمه وهو (نظام الإحداثيات الديكارتية)، الذي
شكل النواة الأولى لـ(الهندسة التحليلية)، فكان بذلك من الشخصيات الرئيسية في تاريخ الثورة العلمية.

22-مارتن هايدغر (بالألمانية: Martin Heidegger) (26 سبتمبر 1889 - 26 مايو 1976) فيلسُوف أَلَمَّانِي. ولد جنوب ألمانيا، درس في جامعة فرايبورغ تحت إشراف إدموند هوسرل مؤسس الظاهريات، ثم أصبح أستاذاً فيها عام 1928. وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل.

23- جان-بول شارل ايمارد سارتر (21 يونيو 1905 باريس - 15 أبريل 1980 باريس) هو فيلسوف وروائي وكاتب مسرحي كاتب سيناريو وناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي.

24- سيغيموند شلومو فرويد يعرف اختصارًا بسيغموند فرويد (6 مايو 1856 —23 سبتمبر، 1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي.

25-الحَشد الشعبيّ هي ميليشيا عراقية، ، تأتمر بأمرة القائد العام للقوات المسلحة ومؤلفة من حوالي 67 فصيلاً

26-معاهدة فرساي(بالفرنسية: Traité de Versailles) هي المعاهدة التي أسدلت الستار بصورة رسمية على وقائع الحرب العالمية الأولى. وتم التوقيع على المعاهدة بعد مفاوضات استمرت 6 أشهر بعد مؤتمر باريس للسلام عام 1919. وقّع الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الأولى من جانب اتفاقيات منفصلة مع القوى المركزية الخاسرة في الحرب (الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية والدولة العثمانية وبلغاريا)[1]. تم توقيع الاتفاقيات في 28 يونيو 1919.

27-دوغلاس فيلدز : عالم أعصاب ومؤلف، حصل على درجات متقدمة من جامعة كاليفورنيا

مفهوم الإرادة والتحرر في فكر البارزاني

يقول القائد المعرفي مصطفى البارزاني: «إن ما أذكِّركم به الآن، لا تحسبوه انتقاداً موجهاً إلى أي شخص معين، إذ أنني سأنتقد نفسي أيضاً، إذا بدرت مني أعمال تسيء إلى الثورة، وتلحق الضرر بها أو بالشعب، يجب على الكل أن يعرف واجباته، فيؤديها بدقة فائقة، وإن أي مسؤول في الثورة لا يعمل لصالحها، ويهمل واجباته، يصبح في هذه الحالة عدواً لنا وخادماً أميناً لأعداء شعبنا» من مقولته نفتتح الحديث في هذا المقال عن مبدأ المحاسبة والانتقاد الذي ارتأى البارزاني إيضاحهما كونهما قاعدتين أوليتين لاستمرار النضال العملي المستند إلى معايير أخلاقية تمثل حاجة كل تنظيم صحيح يريد أن يكون الخادم الحقيقي للشعب ومصالحه، وقد انطلق البارزاني في خطابه هذا من نفسه، معلناً أن المحاسبة هي مبدأ يشمل الجميع من الرئيس إلى المرؤوس وانتهاء بفئات الشعب وأفراده، فكل عمل بطبيعته مُنتقد، وكل حركة جادة لا تتحقق لها الاستمرارية بين الجماهير عبر التاريخ ما لم تضع في حسبانها مبدأي المحاسبة والانتقاد، كمبدأين أساسيين حقيقيين يضمنان توارث الالتزام والتماسك عبر مراحل التنظيم المختلفة، من خلال معرفة المسؤولين والأعضاء طبيعة الواجبات الموكلة إليهما، وبيان القصور والمساوئ والأخطاء الناشئة وتصحيحها على الدوام عبر سلوك مبدأ تحقيق الواجبات تجاه الآخرين، فالإهمال المزري والمستمر يفضي تدريجياً إلى خدمة الأعداء والمتآمرين ويضاعف من إمكان قوتهم، ولقد وضع البارزاني معياراً حقيقياً بدأه من نفسه ومروراً بالمسؤولين أدناه وانتهاء بكل عضو أو فرد من أفراد الشعب، وهذا المعيار يصحح كل الخطوات والمساعي نحو بلورة العمل التنظيمي ليصب في خدمة الجماهير المتطلعة للحرية والحياة

القويمة.. وقد اعتمد مصطفى البارزاني على اللغة الواضحة التي تدخل بسلاسة وسهولة نبض الإنسان الكردي، التائق للحرية والخلاص من الأزمات الجسام التي تداخلت في صميم واقعه المعيش، وتبلور معظم حديثه حول إنعاش الروح القومية المتآلفة في عموم الشعب الكردي، وتطلع إلى ترسيخ التآخي بين الكرد والشعوب المحيطة بها بحكم الجوار والترابط التاريخي، ووحدة المصير المشترك، وفي هذا المقال سنحاول التسليط على جملة مقولات نقوم بتحليلها واستخلاص مضامين جوهرية من خلالها حيث يقول البارزاني هنا في أحد خطاباته المرتجلة: «أفتخر كثيراً بأبناء شعبنا الذين تحملوا كثيراً الصعاب والآلام الجسام في هذه الفترة الطويلة منذ اندلاع ثورتنا إلى يومنا هذا، هؤلاء تحملوا الحر والبرد والاعتقال، والموت والتعذيب»، نلحظ هنا بساطة اللغة وهالة تأثيرها الشفاف في داخل المتلقي، ليجذبه إلى حمل زمام المسؤوليات والتشبث بالواجبات في مرحلة حساسة ومهمة، وكذلك التسليط على حجم المعاناة والمرارة التي يذوقها الثائرون في الجبال، لأجل شحذ الهمم استجداء النفوس، لتعمل على تخفيف الأعباء عن الكواهل، والالتفاف حول الانتفاضة التي من وظيفتها الأساسية، إزالة مظاهر الاضطهاد والظلم عن رقاب الشعب، إنه يؤمن بضرورة الالتفاف والتضامن وحمل المسؤولية التي لا بد وأن يحملها عموم فئات الشعب كافة.. ويركز المعرفي مصطفى البارزاني على الإعلام الكردي وشح تأثيره على العموم العالمي لقلة الإمكانات وضآلتها وينظر للإعلام على أنه الوسيلة القوية لبث نقل الأخبار والحوادث التي تجري في محيط الواقع الكردي المتخم بالمآسي والويلات، حين يؤكد: «إن ما حصل للشعب الكردي لم يسمع به العالم الخارجي إلا بنسبة 4% ولكن نرى إذا ما حصلت ثورة في الخارج وحدثت أربع بطولات فحسب، أظهرت وكأنها مئة، لأن هناك من يساعدهم ولهم وسائلهم الإعلامية وهناك من يدعمهم

ويقف إلى جانبهم، إلا أن ما حصل في كردستان، حصل دون مساعدة ودعم من أحد بل بسلاح متواضع مقابل قوة كبيرة غاشمة وظالمة»، فيشير إلى مدى تأثير الإعلام في نقل الحدث بوتيرة متسارعة، تساعد العالم على فهم ما يجري ويحتدم في بقعة جغرافية، أما عن الكرد فإن الإعلام لم يكن موجوداً لينقل نضال الشعب الكردستاني وكفاحه المعرفي الطويل لأجل تحقيق الحرية والاستقلال. وقد عمد القائد المعرفي مطصفى البارزاني على إيضاح نقطة مهمة في نجاح أي حركة أو انتفاضة في العالم من خلال آلية نكران الذات وتقمُّص معاناة الجماعة والذود عنها حين أوضح قائلاً:

«في كل ثورة أو حركة تقوم لخدمة شعب في الدنيا، من الضروري أن تناط الأمور بمسؤولين يضعون خدمة الشعب في المقام الأول، ويعملون بنكران ذات، وينسون مصالحهم ونزواتهم الخاصة، ويقدمون على أي عمل فيه خدمة الشعب، حتى وإن تناقض ذلك مع مصالحهم وأهوائهم الذاتية»

فهو يؤمن بضرورة نكران الذات كآلية قوية فعالة لدرء الخطر عن الجماعة الموجودة على أرضها التاريخية، ويتحدث بوضوح عن سوءات الأنانية ونهج المصالح الشخصية على حساب الشعب وقضيته، ومن خلال التشبث بمبدأ خدمة الشعب ورفع مستواه وإبراز شخصية الجماعة، خير دليل على سلامة قيادته وسعة خطاها، من خلال التمسك بالمبادئ والقيم الأخلاقية التي هي عماد انتصار ونهضة المجتمعات ورقي أفرادها ووعيهم في التصدي لكل جهالة أو أنانية، فكل ذلك يصب في معركة المصير القومي، وقد شدَّد القائد المعرفي البارزاني على أهمية أن يلتزم المسؤول بصيانة مسؤوليته من دون إهمال حيث بيَّن عواقب ونتائج من يتخلف عن أداء مهامه حين قال: «المسؤول الذي يتخلى عن مصالح الثورة من أجل مصالحه الشخصية أو الذي يعمل لملء جيوبه

ويتوخى الاستفادة المادية، ويحاول المفاخرة الفارغة، إن مثل هذا الشخص لا يمكن اعتباره كردياً ولا يمكن أن يخدم الثورة، إن القومية والحزبية والثورية الصحيحة في أن نتعاون مع بعضنا ونتكاتف من أجل مصلحة شعبنا»

ولنتأمل الآن جملة من رسائل تجلت في هذا المقتطف من خطاب البارزاني، والتي تجلت بانتقاد المسؤول الانتهازي الذي يحط من قدر مسؤولياته ويستغل ذلك لأجل مصالحه الشخصية الأنانية التي تنتج الوبال والسوء على الثورة والتنظيم على حد سواء، ويقلص العمل الناجح ويقصي الإرادة من أن تصبح قوة داخل النظام والحركة، وقد بين أن الذي يقدم مصالحه الشخصية الضيقة على المصلحة العليا المتمثلة بالشعب والثورة إنما هو عدو للكرد والثورة معاً لذلك رأى في التعاون المعيار النظيف والصحيح على القومية، التي تتضمن ثقة الجماهير بعضها ببعض، والحزبية التي تمثل الصراط أو النهج الذي يستدلنا على الالتزام والتنظيم الذي يجسد لنا الحياة الراقية، ونتوقف أخيراً لنقول:

إن حقيقة الفكر الذي انتهجه البارزاني كان متلخصاً حول فكرة الانتقاد ومحاربة المصالح الضيقة للإرادة المتمثلة بمصلحة الأمة الكردية، و التحرر في فكر البارزاني هو الدعوة إلى فك القيود عن العقل الكردي والحياة الكردستانية، ورفع الأغلال عن كاهل الكردستانيين، من خلال سلوك التضحية واستكمال نشر ثقافة الاختلاف، وإفساح المجال لقول كل ما يشير إلى المساوئ السلوكية التي توجد داخل الجماعة المنظمة، وإن إبداء الرأي حول كل القضايا النضالية، ومعالجة النواقص على الدوام، تشكل حقيقة مفهوم التحرر لنتأمل قوله هنا: «لقد بلغت تضحياتنا أكثر من 2000 شهيد، وهؤلاء ضحوا بأرواحهم الطاهرة في سبيل الشعب وهذا الوطن، ومن أجل حقوقنا المغتصبة، والتي كما قلت مراراً، هو الخلاص من هذه المظالم، وحق إبداء الرأي فيما يحدث، وحق استخدام عقولنا

واكتساب وإدراة ودراسة كل ما يتعلق بإدراة بلادنا فيكون لنا حق اتخاذ القرارات وحق الرفض فنتمكن من العيش كأي إنسان دون معاناة أو مظالم، وإذا تعرضنا لاعتداء يجب أن تكون لنا يد قوية تمنع المعتدين من خنقنا»

إذاً فالبارزاني يشير إلى إبداء الرأي لأجل معرفة ما يجول داخل نفوس وعقول الأفراد المنظمين تنظيماً حقيقياً قائماً على النقد وممارسة الاختلاف ونبذ الخلاف، كون ذلك يقودنا نحو تحقيق سلامة الوطن والشعب واستثمار روح قيمة التضحية، ومفاد ذلك هو تحقيق عنصر النصر من خلال زرع أواصر الثقة والتعاون بين أفراد الشعب، إنه يتحدث كما لو كان فرداً من أفراد الشعب، بعيداً عن الإحساس بوباء السلطوية الفظة التي تقف حائلاً دون رسوخ الوحدة بين الجماهير وكذلك الرفاق قائلاً: « إن رجائي إليكم جميعاً هو أن تتعاونوا مع بعضكم بقلوب صافية، وأن لا ترتكبوا أعمالاً تصبح عدوة كبيرة في دواخلنا وبين صفوفنا، وإذا ما تعاونا كأخوة وبصدق وإخلاص، وكافحنا من أجل الصالح العام، وإذا ما وضع الكل مصلحة كردستان والثورة فوق المصلحة الخاصة فلن تكون هناك قوة تستطيع هضم حقوقنا ولن يكون هناك من يستطيع الاعتداء على شعبنا»

إذاً يدعونا المعرفي المخلص مصطفى البارزاني إلى التعاون والتنسيق ونبذ الأنانية، وترسيخ الغيرية، للحفاظ على المكتسبات والقيم التي تنمي حس الوطنية وروح الانتماء في عموم الكردستانيين، وتبعدهم عن كل ما يشوب تعاملهم فيما بينهم، إنه نهج المعرفة والتوافق والسياسة المعتدلة التي تدعو للتكاتف والمحبة والثقة وتنبذ كل ما يربك السلم الوطني والقومي، ولعل هذه الاستراتيجية المعرفية التي تبناها المعرفي الخالد هو ماجعل الدرب الشائك يسيراً أمام خطا الأجيال نحو الاستقلال والحرية

ريبر هبون في سطور :

- هو ريبر عادل أحمد

- من مواليد منبج – سوريا 1987

- درس اللغة العربية في جامعة حلب

-يقيم منذ عام 2015 في ألمانيا ويحمل جنسيتها

- يكتب باللغتين الكردية والعربية

- مؤسس دار تجمع المعرفيين الأحرار للنشر الالكتروني

*المؤلفات :

في الشعر :

- ديوان صرخات الضوء باللغة العربية عام 2016

- جوقات كوردستانية 2019 مشترك مع الشاعرة بنار كوباني

- ديوان صرخات الضوء بالكردية 2020

في النثر و الفكر والدراسات النقدية :

– أطياف ورؤى 2017 نصوص ودراسات

– دلالات ما وراء النص في عوالم محمود الوهب– دراسة نقدية 2019

– فك المرموز في روايات حليم يوسف – دراسة نقدية 2020

–الحب وجود والوجود معرفة – فكر 2021

–كتاب أطياف موتورة بالكردية 2021

– كيف تصبح كاتباً حقيقياً

في الحوار والمناظرات :

– معرفيون ومعرفيات – حوارات

– أفكار صاخبة – مناظرات

– قراءة للمشهد السياسي في غربي كوردستان

– عفرين مقاومة العصر

– بارين أيقونة الزيتون

– التطرف

في الجرائد والصحف :

– عمل على تحرير صحيفة الحب وجود والوجود معرفة

– له العديد من المقالات والدراسات المنشورة في مختلف الدوريات والصحف الالكترونية كالحوار المتمدن ، مركز النور، صحيفة الفكر وصحيفة المثقف والفيصل ونواكشوط – الليبي – المدائن بوست، القلم الجديد، مجلة لوتس وصوت كوردستان.

في الأنشطة الأدبية والفكرية المختلفة :

– شارك في الملتقى الأدبي الثالث لشعراء مدينة منبج 2008

– أقام العديد من الندوات والأمسيات الأدبية في منبج وحلب كنادي التمثيل العربي واتحاد الكتاب العرب.

– وكذلك في ألمانيا شارك في العديد من المتلتقيات الأدبية وله العديد من المقابلات الإذاعية والتلفزيونية الكردية.

– عضو في اللجنة الإدارية سابقاً لاتحاد مثقفي غربي كوردستان HRRK

– قدم برنامج معرفيات و معرفيون باللغتين الكردية والعربية .
– مؤسس منتدى دوسلدورف الثقافي.

– عضو في الاتحاد العالمي للمثقفين العرب